كلمة العدد

بقلم : الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

درس من التاريخ :

السلام والأمن هما عماد الاقتصاد المزدهر

بعد تفكك الاتحاد السوفيتي أصبح العالم على أعتاب عصر جديد فقد تغير ميزان القوى الذي كان يحكم اتجاهات كل الاستراتيجيات لدى مختلف القوى الدولية وبدأت كل دول العالم تعيد حساباتها على ضوء النظام الدولي الجديد. وإذا كان كل المحللين اليوم يجهدون فكرهم لمحاولة معرفة مسارات السياسة الدولية للحقبة القادمة وطبيعة الميزان الجديد للقوى الذي يمكن ان تقوم عليه الاستراتيجيات الجديدة فإن المؤشرات التي بدأت تلوح في الأفق تومىء الى ان الحقبة القادمة سوف تكون حقبة الاقتصاد. فميادين القتال التقليدية سوف تتحول الى الأسواق والأسلحة المعهودة سوف يتغير شكلها من الطائرة والصاروخ الى الدولار والين والمارك. وكأن العالم يعود الى بدايات القرن السادس عشر أو كأن التاريخ العالمي كما قال بذلك ول ديورانت يسير في دائرة. وربما كان هذا هو السبب في اننا آثرنا في هذا العدد ان نقدم بعض الأبحاث ذات الصبغة الاقتصادية والتجارية وهي تتناول العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين الخليج وشبه القارة الهندية ومناطق أخرى امتدت لتشمل كل منطقة جنوب شرق آسيا بل وامتدت

شرقا الى الصين وشمالا وغربا الى اوروبا وافريقيا وذلك في وقت يعود الى القرن السابع الميلادي. وان كان التركيز يتناول حقبة لاحقة وبالتحديد بعد قدوم البرتغاليين الذين غلفوا هجومهم على المنطقة بغلاف ديني مزيف وغلاف سياسي أكثر زيفا اذ كان الهدف الرئيسي كما يتضح من كثير من الدراسات التي عرضنا لها في اعداد سابقة والتي نعرض لبعضها في هذا العدد هو هدف اقتصادي بالدرجة الأولى.

ونحن هنا نشير الى ان المعطيات التي تقدمها هذه الدراسات انما تؤكد على مجموعة من الحقائق التاريخية الهامة التي نرجو أن تكون أمام باحثينا في منطقة الخليج والمنطقة العربية وهم يتلمسون طريقهم وسط الدروب المتشابكة التي تسود سطح الكرة الأرضية في حقبتها القادمة.

أولا :

● كان الخليج وقبل قدوم البرتغاليين في بدايات القرن السادس عشر بل وقبل ذلك بوقت طويل هو قلب الاقتصاد العالمي والتجارة الدولية. وقبل ان يقود البوكيرك الأساطيل البرتغالية في أول هجمة استعمارية على الشرق، كان التجار الخليجيون يمسكون دفة الاقتصاد العالمي وينقلون السلع عبر مساحات شاسعة وصلت الى الصين خلال ممر ملقا ومرورا بكوجرات ومن والى المستودعات التجارية الممثلة في أكثر من ميناء زاهر في الخليج ثم الى شرق افريقيا ومصر ثم البندقية ومنها الى اوربا شرقا وغربا .

ثانيا :

● ان السلام والأمن اساسان ضروريان لانتعاش التجارة الدولية والاقتصاد العالمي. والمتتبع لحركة التجارة الدولية عبر التاريخ سوف يجد هذا التلازم فالرخاء يعم والتجارة تنتعش عندما يسود السلام فإذا ما قامت الحرب أو تعرضت طرق التجارة للاضطرابات توقفت التجارة وخلت الاسواق وانتشر الفقر واقفرت المدن المزدهرة وخلت المستودعات العامرة. وقد ساعد جو السلام الذي ساد الخليج ومعه طرق التجارة الى الشرق الأقصى خلال فترات طويلة قبل قدوم البرتغاليين على نمو الاقتصاد العالمي كله فوجدت التمور والأصواف

والـلآلئ والخيول العـربية الأصيلـة في الصين كما وجدت في اوروبـا. ولبس الأوروبيون الحرير وذاقوا طعم بهارات الشرق وعطروا بيوتهم ببخوره. وشيـدت البيوت والسفن في الخليج بأخشاب الساج القـادمة من غابـات الهند ووصل الأمن حـدا لا يمكن لأبناء اليـوم ان يتخيلوه مثال ما ذكـره ابن جبير من ان قائد القافلة كان اذا مـرض أحد جماله في الطريـق أنزل حمولته وتـركها في الطـريق ليأخـذها في طريـق العودة ورغم ان الحمولة كانت غالبـا من السلع الثمينة ورغم ان الطريق كان مطروقا بـالمارة والقوافل ورغم ان الغياب كان يستمـر أشهرا فإن أحدا لم يكن يقرب هذه الحمولة حتى يعود صاحبها فيأخذها.

ثالثا:

● ان الحرب الاقتصـادية ليست اصطـلاحـا عصريـا وليست ظاهـرة جديدة جاء بها القرن العشرون أو انها سـوف تكون أبرز ملامح القرن الـواحد والعشرين. وانما شهد العـالم ألوانـا من هـذه الحرب بدأ هـا البرتغاليـون عندما ارادوا باكتشـاف رأس الرجاء الصـالح ان يحولوا طرق التجارة وبـالتالي ارباحها بعيـدا عن دول الخليج والبحر الأحمر والبنـدقية وان يغيروا مسـارات التجـارة الـدولية بعيـدا عن طـريق الحرير وطريق التوابل ليستأثـروا هم وحدهم بخيرات العالم في بداية لموجة من الطمع والشراهة فتحت بعد ذلك الباب للجيوش الزاحفة على الشرق وعلى افريقيا وفتحت بابـا أوسع للصراعات الدولية والحروب العالمية والاقليمية على السواء.

وعـودا الى بـدء نقول ان العـالم اليـوم وهـو يودع آخـر سنين القـرن العشرين إنما يطل مع اواخر هذا القرن وبدايات القرن القادم على حرب اقتصـادية جـديـدة.. فأوربـا تضع اليـوم اللمسات الأخيرة على كتلـة اوروبـا الاقتصـاديـة الضخمـة التي ينتظـر ان تضم ١٨ دولـة / ٣٨٠ مليون نسمـة بانتـاج صناعي وزراعي متميـز وتكنولـوجيا متقدمة وشعـوب نشطـة واسـواق يحوطهـا سيـاج من الحمايـة والتكـامل والتنسيق وحواجـز جمركية وخطط محكمـة لغزو الأسـواق الأخرى ومواجهة التكتـلات الجديدة. وامريكا تعمل الآن على تشكيـل مجموعة أخرى ينتظر ان تضم كندا والمكسيك بكثافة بشرية توازي كثافة الكتلة الاوروبية تقريبا ـ ٣٥٥ مليون نسمـة ـ والعماليق الصفر أو مجموعة

النمور اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان وهي تعمل للاسراع في تكوين كتلة ضخمة تطرق بابها بالحاح هونج كونج بكثافة بشرية مساوية أو قد تزيد وهي تحشد كل الامكانيات استعدادا للحرب القادمة، اضافة الى كتلة الآسيان التي تضم اندونيسيا وماليزيا والفليبين وتايلاند وسنغافورة وبروناي وهو تجمع يضم ٣٠٠ مليون نسمة.

وقد يبرز هنا سؤال هام هو أين الخليج من كل ذلك ؟ بل أين المنطقة العربية كلها التي كانت في يوم ما وطوال قرون ترجع الى القرن السابع الميلادي وحتى القرن السادس عشر قلب الاقتصاد العالمي النابض ومفتاح خزائن التجارة الدولية. ان دروس التاريخ تؤكد ان الاستقرار والأمن والسلام يجب ان يكون الهدف الأول لكل الشعوب التي تعيش على الساحة.. ففي ظل هذا الاستقرار يمكن ان تلعب المنطقة دورا يعتمد حتى الآن فقط على معطياتها الحالية في مجال الاقتصاد العالمي سواء المعطيات الجغرافية أو الثروات الطبيعية. ان التفكير الجاد في هذا المجال يجب ان يتجاوز الحدود الضيقة ليطل على الساحة ككل وأن تنشط الأجهزة الاقتصادية التي ولدت في أعطاف الجامعة العربية أو مجلس التعاون الخليجي أو مختلف التجمعات العربية للبحث عن صيغة أكبر مساحة وأكثر شمولا وأكبر قدرة على مواجهة التكتلات العملاقة التي تتكون الآن على الساحة الدولية. ان العالم اليوم على أبواب الانطلاق الى آفاق جديدة مختلفة كل الاختلاف عن الآفاق الدامية التي عاش في ظلها عبر حربين كونيتين وحرب باردة وصراعات اقليمية ضارية وشرسة اسالت دماء وفرقت صفوفا وحطمت امكانيات وزرعت عداوة هنا وهناك. ان ملامح الغد الجديد تطرق الأبواب... أبواب الساحة العربية وان الركب العالمي على مشارف الانطلاق الى عصر جديد وعلينا أن نشد رحالنا للحاق به وإلا حكمنا على أنفسنا وعلى مستقبلنا كله بالتخلف بل بالتراجع.

عبدالله بن خالد آل خليفة

تأثير العرب على مؤلفات

ابن خلدون هو الأب الأول للتفسير

لعب العرب دوراً حيوياً وغيروا مجرى التاريخ الانساني في القرون الوسطى وقد حاولوا نشر فكرتين هما توحيد الله والوحدة الانسانية من سواحل المحيط الأطلسي في الغرب الى جزر الباسيفيك في الشرق مما رفع مكانتهم الى مستوى مرموق في المجالات الفكرية والعقلية ومنحهم درجات من القوة والحكمة والبصيرة ليبنوا حضارة استوعبت الأفضل من الشرق والغرب على السواء ، لقد جعلت روعة أدبهم وإبداع علومهم وعمق فلسفتهم ومثلهم الإنسانية في نظمهم الإجتماعية وعظمة فنونهم وهندستهم المعمارية التي قدموها للإنسانية جمعاء من «بغداد مدينة للمجد» ومن (قرطبة جوهرة) وفضلاً عن ذلك حاول فقهاؤهم إنشاء نظام قانوني مفصل ودون علماؤهم نظاماً في حسن السيرة والسلوك كما حاول فلاسفتهم شرح القيم العليا ووصل رحالتهم الى أقصى مناطق العالم وصنع فنانوهم وحرفيوهم المهرة أروع نماذج الجمال النادر وأكثر من كل ذلك قام علماء تاريخهم من أمثال ابن خلدون بتحليل علم الحضارة وهكذا نجد منجزاتهم العظيمة العديدة التي تثبت مجد العرب .

بقلم : البروفيسور الشيخ علي

المؤرخين الهنود

الاجتماعي للتاريخ

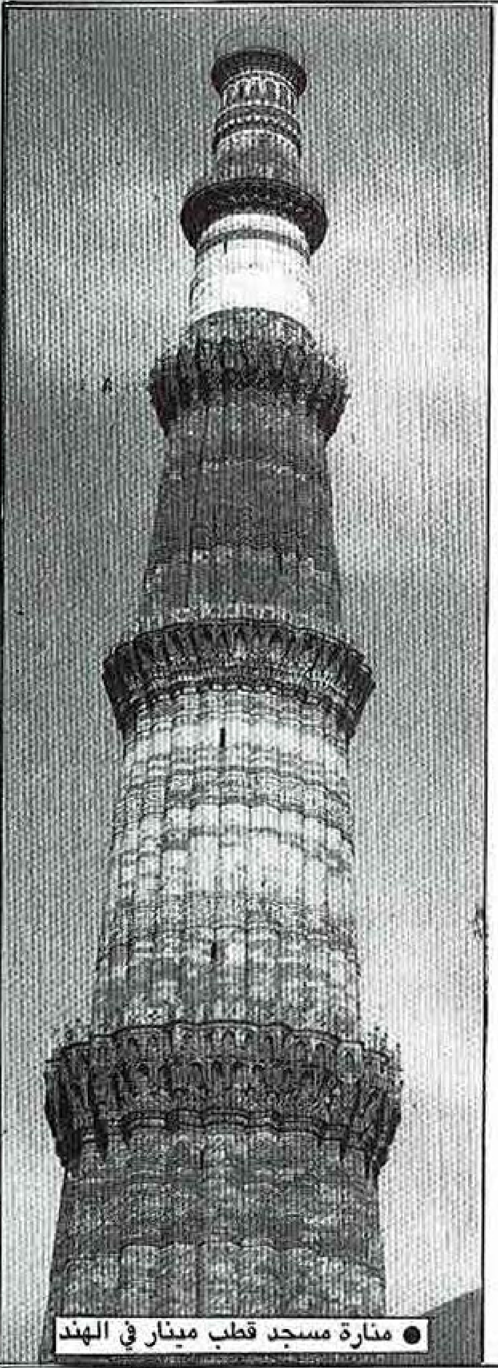
في مدرسة

ابن خلدون ..

تعلّم ماركس

وسان سيمون

وسبنسر وهيجل



● منارة مسجد قطب مينار في الهند

ويحاول هذا البحث ان يلقي بعض الضوء على مساهمتهم في مجال التاريخ وتأثيرهم على تدوين التاريخ في شبه القارة الهندية .

لقد شعر العرب على نحو صحيح ان تجاهل أحداث الماضي معناه البقاء في مرحلة الطفولة . وكانت دراسة التاريخ احدى الدراسات التي اهتم بها العرب ضمن أنشطتهم الفكرية والعقلية . وكان الرسول الامي (ص) شديد الرغبة في التأكيد على أهمية العلم فأثار إهتمام العلماء بفروع العلم المختلفة بأحاديثه الشريفة مثل «ان ساعة من التأمل في خلق الله أفضل من سبعين سنة صلاة و «ان الاستماع للعلم والحكمة لمدة ساعة أفضل من حضور جنازة الف شهيد أو إقامة الصلاة لألف ليلة» ونتيجة هذه التعاليم أخذ المسلمون يبذلون عنايتهم في الاهتمام بالعلوم التي كانت لها صلة خاصة بالحياة العملية اليومية وشهدت هذه العناية تطوراً هاماً في الأدب والفن والطب والرياضيات والكيمياء والجغرافية والتاريخ وألف المؤرخ العربي الطبري كتباً تاريخية قضى في كتابتها ٤٠ سنة بمعدل ٢٨ صفحة يومياً ونقصر حديثنا هنا على تأثير العرب على تدوين التاريخ الهندي ذلك لأن العرب كانوا همزة الوصل بين المؤرخين الرومان والاغريق ومؤرخي العصر الحديث . وسواء كان الدافع وراء ذلك هو الكنيسة أو تدوين التاريخ الا ان



● منارتا بوابة شارمينار حيدر أباد

المحرك الرئيسي كان هو مشيئة الله وان وجدت فجوة خلاف بين الاثنين . ولم يفرق العرب بين التاريخ الدنيوي والوثني ، وكان النظام الكنسى المرتكز على العزوبة والرياضة الروحية والزهد غير موجود في الاسلام فقد اهتم الاسلام اهتماما كبيرا بالدنيا مثل اهتمامه الكبير بالآخرة واذا كانت المسيحية تجعل من المسيح حلقه الوصل بين الانسان المحدود والحقيقة الأبدية فإن الإسلام يجعل هذه الصلة ممثلة في الخير والايمان بالله والعمل الصالح ، واذا كانت النجاة في المسيحية تأتي بواسطة المسيح فإنها في الاسلام تعتمد على عمل الخير ومعرفة الخير من الشر .

وقد حددت الفلسفة الأساسية لهذين الدينين موقفهما تجاه تدوين التاريخ . فهذه الدنيا عند المسيحي ذات أهمية ما لكنها ليست فاصلة او حاسمة وهي لدى المسلم فاصلة وحاسمة ولكن ليست نهائية . وكان لهذين الموقفين تجاه الحياة تأثير قوي على التاريخ .

وكان تدوين التاريخ العربي يعتمد الى حد كبير على التقاليد الاغريقية التي كانت لها جذور عميقة في العقل وكان المفهوم الضمنى لهذا التصور ان الانسان يساهم بعقله في دراما الحقيقة الأبدية بقدر اعتماد أفكاره على الحقيقة من هنا جاء من بين العرب مؤرخ جليل مثل ابن خلدون الذي يعترف به العالم كأحد عمالقة المفكرين . وكانت مساهمة العرب في فن تدوين التاريخ لا يستهان بها فقد كان لديهم احساس قوى بالتاريخ وكانوا مثل الرومان قد بنوا إمبراطورية امتدت أقاليمها عبر ثلاث قارات هي آسيا وأوربا وأفريقيا وهكذا صنعوا التاريخ في وقت مبكر قبل ان يبدأوا في كتابته .

وأخذت مساهمة العرب في فن تدوين التاريخ ثلاثة اتجاهات :

أولاً : كانوا شديدي الحرص على تفحص المصادر ببالغ الدقة وسموا تقنيتهم في ذلك بـ «الاسناد» الذي كان مكوناً من سلسلة من المراجع والمصادر نقلت المعلومات عن طريقها من العصور القديمة الى العصور الحديثة .

ثانياً : سرد الأحداث التي ذكرها الرحالة وتمتاز هذه الروايات بأنها ذات ثقل في مضامينها ومعلوماتها ونابضة بالحياة في وصفها لانها كانت مبنية على مشاهداتهم الشخصية .

ثالثاً : تقديمهم فلاسفة كباراً في التاريخ كابن رشد وابن خلدون وقد وضع ابن خلدون أسس علم الحضارة وقام بتحليل بعض المسائل المعقدة مثل تأثير البيئة على الإنسان والتحقيق في نشوء وتطور المجتمع ودور العنصر النفسى في السلوك الإنساني وتأثير العوامل الطبيعية والحاجات المادية على تقدم الإنسان وقد أورد ابن خلدون بوضوح العناصر التي ساعدت في نشوء الحضارة وقام

بتصنيفها تحت أربعة عناوين رئيسية وهي العناصر الطبيعية أو الحاجات المادية والعامل الرسمي أو المؤسسات السياسية والعنصر الفعال أو النسيج الاخلاقي وأخيراً العنصر النهائي وهو الهدف أو تحقيق المثل العليا .

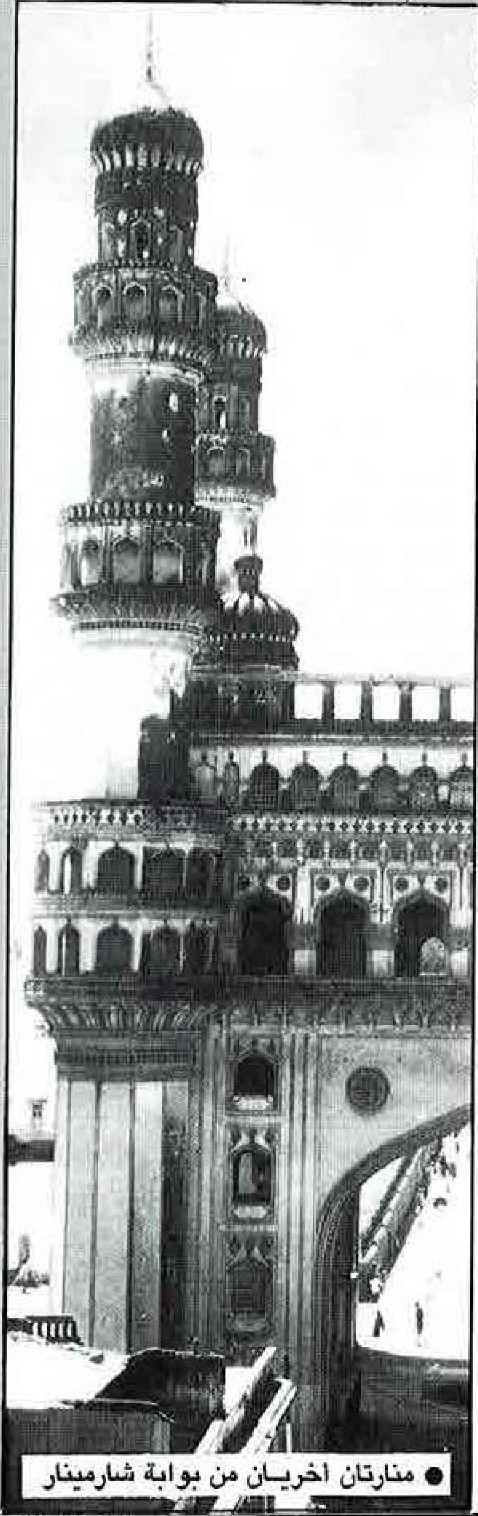
وكان لسيرة الرسول (ص) تأثير حاسم وقاطع على كتابة التاريخ عند العرب . وكان المؤرخون القدماء يتناولون الأحداث الهامة بصورة منعزلة مثل (الغزوات النبوية) ومعركة الجمل ووقعة صفين . وكتب ابن اسحاق (ت ٧٦٧ م) عن حكم البيت الأموي . وكان العرب مثل سائر الشعوب السامية متشددين في تمسكهم بدقة بعلم الانساب وكانوا حريصين على التقيد بالإسناد الذى ساعدهم كثيرا على تتبع تسلسل الحدث وصولا الى شاهد عيان للحدث نفسه أو مشاركين فيه .

وكانت هذه الطريقة تتميز بنظام دقيق في تحديد التواريخ . ويبتدىء التسلسل الزمني الإسلامي من سنة الهجرة في عام ٦٢٢م . وقد مهد هذا العهد ، الطريق الى الاتساق في التسلسل الزمني والبساطة بالمقارنة الى التسلسل الزمني المسيحي المربوط بالقرون الوسطى حيث يبدأ العام الجديد من أول يناير أو أول مارس أو ميلاد المسيح (٢٥ ديسمبر) أو عيد الفصح وهو موعد غير ثابت وقابل للتغيير .

وقد كتب ابن هشام أول سيرة للنبي (ص) حوالي عام ٨٢٨ م وكان ذلك بشكل سرد الأحداث متطابقاً مع التقاليد الدينية السائدة حينذاك ولقد كان الجهد والتفاني الذى بذله العلماء في جمع الأحاديث النبوية وتحقيقها لا مثيل له في مجال التدوين العلمي في التاريخ . وتضمنت سيرة النبي (ص) وأحاديثه منجماً ثمينا من المعلومات وقدم لنا الحماس والعناية البالغة والموضوعية التي بذلها العرب في تنظيمها من جديد خلاصة وافية واسعة موثوقة لا يوجد مثلها في أى مجموعة من التراث للإنسانية جمعاء في اي جزء من العالم . وقد اتبع العرب أسلوباً علمياً دقيقاً لتمحيص المراجع والمصادر حتى لم يبق اي مجال لإدخال مصدر تنقصه الدقة .

واخترع العرب أسلوباً خاصاً في كتابة السيرة أصبح شائعا في الهند وهو «الطبقات» وطبقاً لهذا الأسلوب تم تدوين تاريخ الأشخاص ليس بالترتيب الأبجدى وانما بالترتيب الزمني . وكان العرب معجبين بالأحداث والحكايات النادرة وأقبل الهنود أيضاً عليها بحماس . وماكتبه ياقوت الحموى تحت عنوان «قاموس العلماء» هو كتاب ممتاز من ناحية العلم والمعرفة وعلى الرغم من ان تدوين التاريخ العربي رسم السير الانسانية بوضوح اكثر ووصف الأحداث السياسية والعسكرية بدقة اكثر وبلغة خلابة الا أنه تجاهل الجوانب الاجتماعية والاقتصادية .

ولم يتتبع تطور المجتمع ولم يحلل أو يفسر الاحداث حتى جاء عصر ابن رشد وابن خلدون . واكتفى المؤرخون العرب المتقدمون بمجرد جمع الحقائق وترتيبها وسردها بصورة جذابة وتركوا للقارىء الخروج بالنتيجة التي يراها وكان هذا الأسلوب رائجاً لدى المؤرخين الهنود في عهد السلاطين والمغول . ومن سوء الحظ لم يتبع المؤرخون الهنود أسلوب ابن رشد او ابن خلدون بل اكتفوا بأسلوب ابن هشام والطبري فعالجوا في تاريخ الهند موضوع الحروب والغزوات اكثر من معالجة قضايا السلام والحضارة . وفي أغلب الأحيان كانت الأحداث توصف بأنها نتيجة الفتن أو طموحات السلاطين والقادة أو رجال البلاط الملكي دون تفسير القوى والتيارات التي كانت وراء هؤلاء القادة أو هذه الأحداث وكان الغرض من كتابة التاريخ عند المؤرخين سواء كانوا من العرب أو الهنود في العصر الاسلامي هو تلقين درس للإنسانية ولكن هذا الدرس كان في الغالب درسا في الأخلاق والتبصر في السلوك الانساني لادرسا في التاريخ أو الحقائق التي ترتبط الواحدة منها بالاخرى وفقاً لنظام منطقى او دائم . ومن هذه الناحية لم يتبع المؤرخون المسلمون أو الهنود ابن خلدون الذى أخذ بعين الإعتبار القوى الكامنة في تكوين التاريخ من وجهة نظر اجتماعية ونفسية .



● منارتان اخريان من بوابة شارمينار

ويعتبر ابن خلدون التونسي (ت ١٤٠٦) دون شك من اكبر مؤرخي العالم واكثر النجوم بريقا وسط علماء التاريخ وهو يعتبر «ثوكيديدس» أو «ليفي» الاسلام بل أعلى منهما منزله وكان أول عالم تبنى فكرة عالمية التاريخ وتناول بعمق علم الحضارة وحاول ان يقدم نظرة شاملة للتاريخ في كتابه الشهير «المقدمة» وهو مقدمه لتاريخ العالم أو «كتاب العبر» حيث شرح فيه العناصر الأربعة الأساسية وهي المادة والسلطة والكفاية والغاية وأثرها في تطور الحضارة . وأثبت بأسلوب منطقي «أن الموارد المادية المكونة من الأرض والعمل والتربة والمناخ والمعادن والغذاء والمرافق المادية «تشكل قاعدة» لنمو الحضارة وتحتاج هذه الموارد الى وسيلة الذكاء الانساني الممثلة في النظم السياسية القادرة على إستغلال الموارد المادية لنفع الانسان باحسن صورة واذا كان العنصر الفعال أو العنصر الأخلاقي المكون من الوحدة والانسجام والتضامن يعمل كمحرض للمجتمع الانساني ليتحرك الى الامام ويحقق التكامل إلا أن السبب الأخير أو الهدف او القضاء والقدر أو المثل العليا يحدد غاية الحياة ويعطي معنى لأفكارنا ويحول طاقاتنا الى الاتجاه الصحيح كما يحول مجرد الفكرة الى حقيقة وطبق ابن خلدون هذه المبادىء على نمو الحضارة الاسلامية وأوضح بان هذه المبادىء تعمل في كافة المراحل . وقد أصبحت هذه العناصر الأربعة في أوروبا في وقت لاحق الاساس لاربع مدارس فكرية مختلفة ورأى ابن خلدون بأن اجتماع هذه العناصر الاربعة معاً يؤدى الى نشوء الحضارة .

وقد جعل الماركسيون من المادة أساساً لأيديولوجية الشيوعية . وطور المفكرون الإنجليز من أمثال «هربرت سبنسر» نظرية العضوية الى العنصر الرسمي في القيادة السياسية ، وإستخدم المفكرون الفرنسيون من أمثال «سان سيمون» العنصر الفعال في التضامن الانساني لتقديم فكرة الدولة الاشتراكية . والفلاسفة الألمان من قبيل «هيغل» قدموا نظرية «مثالية» مبنية على عنصر الغاية النهائية أو مصير الانسان . وخلاصة القول فإن ابن خلدون هو أبو التفسير الاجتماعي للتاريخ وهو الذي قدم للعالم لأول مرة تفسيراً اجتماعياً وإقتصادياً للتاريخ . ويضع علماء السياسة كتابات ابن خلدون في مستوى «أرسطو» ورفع الاخلاقيون مرتبته الى «كولومبس» في تفسيره الاخلاقي للتاريخ . ويعتبره الفلاسفة مخترعاً لأسلوب جديد في التفكير المثالي في التاريخ . ويكفينا أن نذكر ان تفسيره الانتقادي الدقيق للحقائق وعمق تفكيره وبعد نظره وروعة أسلوبه في الكتابة جعلت للتاريخ مكانته المرموقة والمشرقة التي نشاهدها في أوروبا هذه الأيام . وكان

ابن خلدون مؤرخاً ومفكراً سياسيا وعالماً في الاقتصاد والاجتماع وفيلسوفاً بارعاً لا يمكن وصفه الا بكلمة «العبقري» .

وعقب هذا الاستعراض السريع لتدوين التاريخ عند العرب فلننظر الى تأثيره على المؤرخين الهنود المسلمين وكان في طليعة من تأثر به تأثراً عميقاً سلطنة دلهي التي مثلث عصراً جديداً في كتابة التاريخ في الهند . وأخذت هذه الكتابة صيغة تدوين الأحداث وحسب قول «دودويل» كانت أحسن بكثير من كتابة الانجليز للأحداث في القرون الوسطى .

عندما جاء المسلمون الى الهند كان عندهم فعلاً فكرة عن التاريخ ناتجة عن إتصالاتهم بالشعوب في كل من اليونان وروما واسبانيا وتركيا وايران ومصر وآسيا الوسطى والجزيرة العربية . لذلك عندما بدأوا كتابة التاريخ في الهند اختلف أسلوبهم عن الاساليب الخرافية واللاهوتية والقصصية التي كانت سائدة في الهند القديمة وتطورت هذه الكتابة الى الاهتمام بالمنطق والموضوعية والحتمية في عهد السلاطين واتخذت صيغة «ليفى» و«تاسيتوس» الرومانيين اللذين كان لهما تأثير على العرب بحفزهم الناس على القراءة بواسطة أسلوبهما الخلاب .

وقد حافظت الهند على التقاليد العربية في عدم اعطاء التاريخ المكانة العليا في الحياة الثقافية وإنما وضعته في المرتبة الثانية بعد الدين والفلسفة . وعلى الرغم من ان دراسة التاريخ أعتبرت ذات أهمية وإحترام في تربية الاشراف والأعيان والأمراء الا انها بالنسبة الى الرجل العادي ، مثلث امراً ثانوياً وكانت الأولوية عنده لدراسة القرآن والحديث . غير ان السلاطين أبدوا إحتراماً للمؤرخين يتساوى مع احترامهم لعلماء الدين والشعراء . ولم يعتن المؤرخون الهنود بمتابعة نظام «الاسناد» بنفس الدقة التي اتبعها المؤرخون العرب بارجاع المصادر والمراجع الى أصولها اي الى شهود عيان . وهكذا سقط نظام الاسناد ضحية لعدم الاعتناء به في الهند . وتبنت الهند التقليد الفارسي في مدح الملوك وكان النظام الفارسي يعتمد على «المصدر» و«المخبرين» الذين ينقلون المعلومات دون تحقيق أو تمحيص بواسطة تكرار أقوال اشخاص مجهولين دون التأكد من المكان الذي قيل فيه الكلام المنقول ودون التأكد حتى من صحة الكلام نفسه وكان هذا الأسلوب مخالفا لأسلوب العرب واكتفى المؤرخون الهنود بمجرد نقل المعلومات التى وصلتهم دون تحقق من صحتها كما لم يمارس المؤرخون الهنود أساليب الاستفسار والنقد وتتبع الأصول والبحث عن شهود عيان والاساليب الاخرى التي ابتكرها العرب .

فلم يكن تدوين التاريخ في عهد السلاطين بالهند إلا سلسلة من

الأحداث والأعمال والقصص والمعارك والوقائع والحملات ووصف البلاط الملكي دون أدنى إشارة الى الأسباب والأوضاع والاجراءات والدوافع الكامنة وراء الأحداث . ولم يكن الرجل العادي موضع اهتمام وانما اتجه الاهتمام الى الاعيان والأشراف واعضاء الحكومة المركزية والملوك والملاك والأمراء والمدن . والتأثير العربي الوحيد الذى استمر حتى ذلك الحين كان في الناحية الدينية . وكان يعتقد ان التاريخ هو مصدر أساسي للتربية الاخلاقية وأن الله تعالى مسئول عما حدث في التاريخ وساد الاعتقاد بان الله سبحانة وتعالى يعمل عن طريق الأفراد وليس عن طريق الجماعات أو القوى الإجتماعية أو الروح العصرية أو الحركات . ولم يتبع المؤرخون المسلمون في الهند تقاليد مذهب المعتزلة الذي كان قائما على العقل بل اتبعوا مدرسة الاشعرية التي اعتقدت ان الحاضر يتبع الماضي زمنياً لكنه ليس نتيجة الماضي وأنه ليس هناك في الطبيعة اي نظام لتتابع الأحداث وانما مجرد سلسلة من الأحداث الالهية وليس العالم إلا مجرد مجموعة من الذرات التي تم ترتيبها بطريقة خاصة لا يعرفها الا الله وكانت هذه الفلسفة أقرب إلى الفلسفة المسيحيه المثالية والجبرية الهندوسية ولم تكن قريبة الى إدراك الفعل ورد الفعل الذى هو أساس التاريخ . وإعتمدت فلسفة الاسلام على الفكرة القائلة بان جميع الأعمال والاحداث هي نتيجة المشيئة الالهية وليست نتيجة التحولات أو ردود الفعل أو التناقضات أو تأثير حدث على حدث آخر وان الله مسئول عن الوجود كله وهو المسئول عن فنائه وعلى هذا الأساس فإن تدوين التاريخ في الهند من قبل المسلمين مال الى اعتقاد العرب المبكر بالعناية الالهية وليس بنظرية ابن خلدون الذى جاء في عهد متأخر . وكان المؤرخ الهندي المسلم مثل الراكب في العربه الأخيرة من قطار ينظر من النافذة الخلفية لهذه العربة فقط مما كان يعطي له فكرة عما حوله بصفة عامة ولكن دون رؤية الجهة التي كان القطار متجهاً اليها او المنحنيات والتحولات والثنيات الواقعة في الطريق . وبكلمات أخرى كان تدوين التاريخ في الهند مخالفاً لتدوينه عند العرب إذ كان ذا طابع ديني وليس طابعاً انسانياً وذا هدف معين ومباشر وليس ذا علاقات متبادلة أو تقدمية .

ومع ذلك أصبح التاريخ في الهند خصيباً ومثمراً أكثر لدرجة استطاع معها كل من ايليوت وداوسون نشر ملخص لاعمال المؤرخين المتوافرة في ثمانية مجلدات ضخمة . ويظهر ان ضياء الدين باراني كان مثالاً ممتازاً لمؤرخ ذى طابع عربي من العهد المبكر . اذ يقول :

«قضيت حياتي في التمعن الدقيق في الكتب القديمة والحديثة على

السواء وفي دراسة العديد من الكتب في كافة العلوم بما فيها تفاسير القرآن والحديث والفقه والمذاهب الصوفية وقد شعرت بأنه لافائدة من دراسة الكتب الأخرى او في ممارسة انشطة أخرى سوى علم التاريخ». وعند باراني ، فإن التاريخ وسيلة لتقوية العقل والحكمة بواسطة دراسة خبرات الآخرين . وكان لديه بعض الأفكار عن تدوين التاريخ عند العرب وكان يعتقد بأن هناك واجبا اساسيا على المؤرخ هو ان يسجل الأحداث بصدق تام وأن يشعر مخلصاً بأن التاريخ له هدف هو إرشاد الانسانية الى الطريق المستقيم وكان يعتقد ان التاريخ يهدي الانسانية الى الله ويفيد السلطان في الحياة الدنيا والآخرة .

وذكر باراني ، سبع فوائد لدراسة التاريخ :

(١) فهو يعرفنا على سير الرجال العظام والانبياء والرسل والزعماء الروحيين والسلاطين .

(٢) ويفتح أمامنا كنوز حكمة الماضي .

(٣) يحرضنا على الاعتماد على العقل والحكمة إعتماداً على الخبرات الماضية .

(٤) يسري عنا في معاناتنا وأزماتنا ويجنبنا الانزعاج والقلق من الأخطار المجهولة والوهمية وفي نفس الوقت يحذرنا من الأخطار المتوقعة ويدفعنا للحفاظ على الثقة في النفس .

(٥) يشجع على الصبر والرضى .

(٦) يزيد احترامنا للصالحين وكراهيتنا للأشرار .

(٧) انه أساس متين للحق يرسم لنا مسرحية الصراع بين الحق والباطل والعدل والظلم والطاعة والتمرد والطهارة والرذيلة .

وخلاصة القول فإن باراني كان مؤرخاً وواعظاً جريئاً متبعاً للتقاليد العربية وكتب التاريخ كأنما كانت له رسالة في الحياة وأصر على أنه يجب على المؤرخ ان يقول كلمة الحق دون خوف او تحيز . وحاول ان يحقق هدفه هذا بواسطة الحكم على السير والسلوكيات على ضوء القرآن الكريم ثم يحكم بذلك على الشخص بأنه ناجح أو فاشل وفقاً لاعماله . والتاريخ عنده ليس مجرد تسجيل للأحداث والوقائع والشخصيات بل أيضاً للقوانين واللوائح والوصايا والمبادىء والحلول وسمى التاريخ «ملك العلوم» .

وهناك مصدر عربي هام آخر كان ذا تأثير عظيم على الهند وهو هذا الكنز الوافر من الآداب التي قدمها المتصوفون وكان هذا الفرع من الأدب معاوناً في مجال الحركات الدينية والاجتماعية وفي تنمية وجهة النظر القائلة بأنسنة الفكرة . وتلقي الرسائل والخطب والكتابات الصوفية والأخلاقية التي تتضمن نظريات عن الكون والسلوك الانساني ، ضوءاً وافراً على التاريخ الفكري وقد تسربت تلك الأفكار الي صفوف الجماهير وكان هذا الأدب بمثابة مرآة تعكس لنا

التطور الروحي لفترة محددة وتشير أيضاً الى تنشيط الحركة الدينية في المجتمع الهندي وتحتوي هذه الكتابات على ثلاثة أقسام رئيسية هي تاريخ وأخلاق وقصص وروايات .

وقد وظفت القصص والروايات لتعليم الاخلاق والسلوكيات بواسطة حكايات رمزية ذات مغزى اخلاقي وكان ذلك هو الهدف الأساسي من كتابة التاريخ الاسلامي . أما الادب فكان يتبع اسلوبا وعظيا لتبجيل وتمجيد الله سبحانه وتعالى وفي نفس الوقت يعكس أوضاع الناس المعيشية وأفكارهم والتوترات التي كانت سائدة بينهم آنئذ . وأكد هذا الأدب على أهمية الليبرالية والانسانية والكونية والانتقائية والمساواة والتعبدية . وعاش أغلب المتصوفين كرجال عاديين في المجتمع ومارسوا مهنهم العادية واذكر على سبيل المثال اسم الشيخ حامد الدين الذى كان صوفيا من درجة عالية لكنه عاش يمتهن زراعة واصلاح الأرض البور ورفض قبول أرض خصبة عرضها عليه الملك التمش . وكانت لهجة المتصوفين في تقديم نصائحهم الأخلاقية قاطعة وصارمة . فيقول احدهم موبخا :

«اذا استطعت ان تطير فى الهواء فأنت ذبابة واذا استطعت ان تمشى على الماء فأنت مجرد قشة لكن اذا كسبت قلباً فانك جدير بالاهتمام» . ويقال ان الملك «بلبن» أشار الى المؤرخ المتصوف منهاج الدين سراج قائلا بأنه لايخاف الله ولا الملك وانما يخاف ضميره فقط .

وأدخل المسلمون الى الهند مواد تاريخية من النوع المسمى «وصية نامة» أو الوصايا التي تركها الحكام البارزون ورجال الدولة لخلفائهم وهي مبنية على خبرات وحكمة القدماء ومثال ذلك إرشادات الملك بلبن لإبنه الأمير محمد ومنها :

(١) لا تستهن بممارسة الحكم لأنه يحتاج الى جدية تامة ويجب على الحاكم ان يتصرف من موقع المسئولية .

(٢) يجب ان يعكس قلب الحاكم مجد الله سبحانه وتعالى وهذا لن يكون ممكناً ان لم يكن القلب طاهراً ونقياً .

(٣) يكون الملك ملكاً «اذا وضع حداً للجور والاستبداد وحكم بالعدل والإنصاف .

(٤) يجب على الملك إلا يغضب الله بانغماسه في الترف .

(٥) الملك والشجاعة توأمان .

وكانت الوصايا تجرى على هذا المنوال لتعليم الخلفاء فن الحكم ويرجع أساسها غالباً الى مبادىء الإسلام والفكر الإسلامي السياسي .

وخلاصة القول فإن تدوين التاريخ في عهد السلطنة يأخذ أربع صيغ وهي التاريخ العام والتاريخ المواعظي والمديح نثراً والتاريخ الفني .

ويشمل التاريخ العام في إطاره تاريخ الجزيرة العربية قبل مجىء

الاسلام وتاريخ فارس وتاريخ الامبراطورية الرومانية وتاريخ الأنبياء والرسل قبل مجيء الاسلام وتاريخ بني أمية والعباسيين والأتراك في تسلسله الزمني .

وإتخذت بعض كتب التاريخ أسلوب اليعقوبي الذى استخدم المواد القديمة لكتابة تاريخ الانجيل ونقل عن الكتب الاغريقية ورفض أحداث العهد الأسطوري بفارس وفضلاً عن هذه الصيغ التاريخية توجد يوميات الرحالة ومن أشهرهم البيروني وابن بطوطة وهو من طنجة . وكان السلطان محمود الغزنوي مناصراً للبيروني (١٠٤٨م) وقد تميز بأسلوبه العلمي بين المؤلفات العربية الأخرى . وتعلم البيروني اللغة السنسكريتية وترجم عدداً من كتب الهنود الى العربية وكذلك بعض الكتب الاغريقية الى السنسكريتية . ومارس البحث في الآثار الشرقية بروح النقد التاريخي ودون نتائجه في كتابه المسمى «الآثار المتبقية من الأجيال الماضية» وكان ابن بطوطة (١٣٠٤ ـ ١٣٧٨م) يحب الأسفار والسياحة وأمضى ٢٥ عاماً في أسفاره في كل من شمال افريقيا والجزيرة العربية وفارس والهند . ووصل ابن بطوطة الى الهند في عام ١٣٣٣ وقبل وظيفة عرضها عليه السلاطين وتم إيفادة في سفارة الى الصين وسجل هذا السائح العالمي كثيرا من الأحداث في عهده وتشكل كتاباته كنزاً قيماً للمعلومات المعاصرة عن المؤسسات السياسية والاجتماعية وتختلف تماماً عن الأسلوب الذى كان سائدا آنذاك في كتابة التاريخ بالهند . وتشبه كتاباته روايات السياح الأوروبيين كما ركوبولو «وبرنير تاورنير» وهناك رحالة عربي آخر من دمشق اسمه «المرعشي» (١٢٩٧ ـ ١٣٤٨م) قام بزيارة الهند ووصف الحياة المعيشية والاجتماعية والاقتصادية فيها أما المسعودي وهو رحالة عربي آخر فإن كتاباته تلقى ضوءاً كاشفاً على الاحداث الهندية . وقد وفر لنا ابن الأثير (١١٦٠ ـ ١٢٣٤م) بعض المعلومات القيمة عن السلطان محمود الغزنوى ، وهناك مصدر خصب آخر يقدم تفاصيل هامه جدا عن غزو شهاب الدين غورى الأول للهند في عام ١١٥٢م هو كتابات كل من أبي الفداء وابن كثير. ومن بين المؤرخين العرب الذين تركوا أثراً على المؤرخين الهنود يمكن ذكر كل من الادريسى واليعقوبي وابي الفداء وابن اسحاق الفارسي والجاحظ وأبى زيد وعدد آخر من العلماء العرب الذين أثروا في المؤرخين الهنود بدرجة كبيرة :

واختلف المؤرخون الهنود كثيراً عن أسلوب العرب في بعض النواحي . فكان المؤرخون الهنود تابعين للسلاطين والملوك الذين كانوا يساعدونهم فتخلى هؤلاء المؤرخون عن الموضوعية والحيدة وحرية التعليق وتقييم الأشخاص وتحليل الأحداث

وأوضاعها وأصبح ما يوجد في كتاباتهم هو معلومات سياسية روتينية وأغلبها تثقيفية ووصفية وتصويرية وفقاً للترتيب الزمني دون ترابط وكان لهذا آثار خطيرة فقد تسبب في بعض الخراب والدمار وكان حرصهم شديدا على تصوير السلاطين بصورة مثالية في الاخلاق والتقى والورع والدفاع عن الدين والإيمان وكانت هذه الصفات بعيدة كل البعد عن الحقيقة . فلم ينتشر الاسلام في الهند بسبب جهد هؤلاء السلاطين بالعكس فقد أثار الاسلام عداءهم بسبب تصرفاتهم الظالمة وأخلاقهم السيئة .

وانما انتشر الاسلام في الهند بجهود المتصوفين الذين قدموا نماذج رائعة للإسلام في حياتهم الشخصية .

ولم يكن بالإمكان ان يحب الناس مثلا سلطانا طاغياً مثل علاء الدين او ملكا غير مؤهل مثل كيقباذ او حاكماً مترددا مثل محمد بن تغلق او ملكا متعصباً مثل فيروز شاه لكن الصوفيين من نظام الدين أوليا الى الشاه ولى الله كرسوا حياتهم للإنسانية والليبرالية وعبادة الله بعزم وثبات وهكذا اجتذبوا عامة الناس خاصة من الطبقات الفقيرة الذين كانوا يعانون بسبب النظام الطبقي السائد والذين اقبلوا على إعتناق الاسلام للتخلص من الطبقية . فمن الواضح ان مدح المؤرخين للسلاطين بأنهم عمد الاسلام ودعاته كان في غير محله بل كان مخالفاً تماماً للحقيقة .

وفي ولاية أوتار براديش حيث حكم المسلمون لمدة ٧٠٠ سنة فإن النسبة المئوية لعددهم لاتزال أقل من ٣٠٪ وهذا اكبر دليل يثبت زيف بعض المؤرخين الفرس .

فقد كان لدى هؤلاء المؤرخين ثلاثة أهداف ،

أولًا : كانت هناك ضرورة سياسية لكسب تأييد الجالية الاسلامية الصغيرة في ذلك الوقت . وكانت هذه الأقلية متدينة للغاية واقتضى ذلك محاولة اقناعهم بأن السلطان كان يبذل كل ما في وسعه وفقاً لتعاليم القرآن الكريم .

وثانياً : كانت هناك حاجة عسكرية لان الانتصارات العسكرية في الماضي تحققت باسم الاسلام ونظراً لحساسية موضوع الاسلام فقد استغله القادة العسكريون الهنود المسلمون لمصلحتهم .

وثالثا : كانت هناك حاجة قانونية ودستورية لان الفقه الاسلامي تطلب من رئيس الدولة ان يكون مسلماً متديناً تقيا يقوم بتطبيق احكام الاسلام .

ومع مجيء المغول الى الهند تبدأ المرحلة الثانية في تدوين التاريخ بالسند ففي هذه المرحلة نشهد تغييراً جذرياً في معالجة التاريخ من حيث وجهة النظر والأسلوب والموضوع . وأصبحت كتابة التاريخ في عصر المغول أكثر نضجاً وموضوعية وإتخذ

التاريخ صيغة جديدة بتناوله موضوع المؤسسات الاجتماعية ونمو الحضارة ونشوء الأفكار المتنوعة كما مارس الكتابة أشخاص من طبقات مختلفة وليس فقط من المؤرخين المحترفين بل ساهم في ذلك صانعو التاريخ أيضاً والأباطرة أنفسهم وكان إنتاجهم مكوناً من كتابات تاريخية جديدة متضمنة سيرتهم الذاتية وهكذا أصبحت مصدراً هاماً لمعلومات يوثق بها ولا يوجد في المؤلفات التركية بأكملها كتاب ما يقارن بـ «تزك بابري» من حيث روعة الانشاء والمادة العلمية والحكم على الأشخاص والأحداث . وكان الإمبراطور جيهان جير صادقاً ومخلصاً في مؤلفه المسمى «تزك جيهان جيري» لدرجة الاعتراف بأخطائه وعيوبه وسلبياته . وكان المناخ الذهني والفكري منفتحاً لدرجة ان احد الملاوات مثل عبدالقادر البدايوني انتقد تصرفات الامبراطور اكبر نقداً شديداً دون ان يترتب على ذلك عواقب وخيمة ولا يوجد كتاب في العالم كله من بين الكتب التي أرخت لذلك العهد أحسن وأجود من كتاب «ابو الفضل» الذى دون تاريخاً شاملاً لمؤسسات الامبراطور اكبر بما فيها المؤسسات السياسية والدينية والاجتماعية والتجارية والزراعية للشعب الهندي كله . وقد بلغت كتابة التاريخ في ذلك العهد ذروة الكمال والروعة .

وتتسم كتابة التاريخ لذلك العهد بالوفرة كيفاً وكماً ليس في السير الذاتية والمذكرات اليومية فحسب بل في التاريخ العام والمتخصص أيضاً . وتتوفر لدينا عن ذلك العهد كميات كبيرة من السجلات والوثائق الرسمية والمسكوكات والنقوش والرسائل الخاصة والمستندات والأحكام القضائية وروايات الرحالة التي تتضمن كنوزاً قيمة من المعلومات وهكذا نجد الحصاد التاريخي لعهد المغول مثمراً للغاية . ومن ناحية المجالات التي تمت تغطيتها فهي تشمل النواحي الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والدينية بكافة تفاصيلها مما جعل التاريخ ذا ارتباط حميم بالحياة وأقرب الى الحقيقة ومتسما بالانسانية كما استخدم المؤرخون أساليب جديدة غير تقليدية كالمذكرات واليوميات والملخصات ... الخ ونشهد تحسناً ملموساً في كتابة التاريخ كأنما عاد ابن رشد وابن خلدون من جديد ليلهما كتابات المؤرخين روحاً جديداً . وأغلب المؤرخين في عهد المغول جمعوا المواد التاريخية بعد عناء شديد واستخدموها بصورة منطقية وترك لنا اكبرهم شأناً وهو أبو الفضل كتاباً يشبه موسوعة شاملة . وقد بدأ الإمبراطور بابر عهد كتابة المذكرات الشخصية وتبعته حتى بعض الأميرات مثل غلبدن بيجوم وهي بنت بابر وكتبت «همايون نامه» الذى يعطى لنا فرصة للتأمل في الحالات النفسية

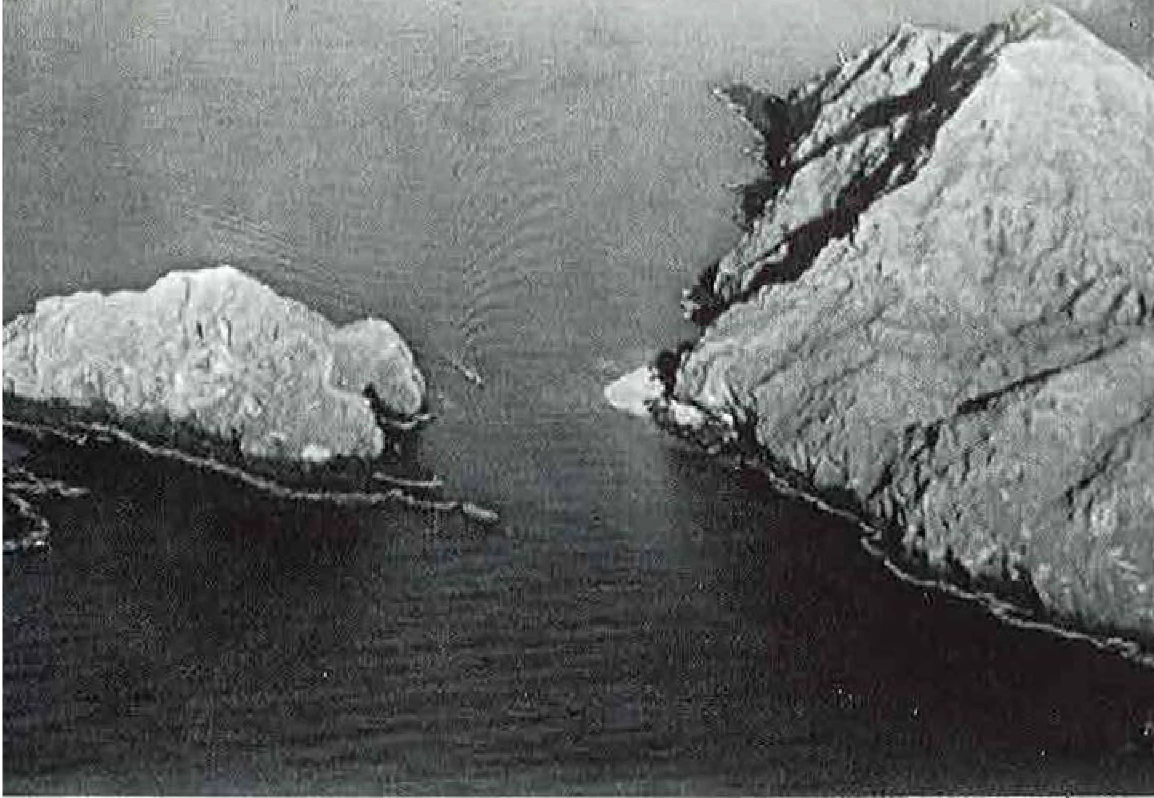
للشخصيات البارزة في الامبراطورية . ويعتبر كتاب «مذكرات» جيهانجير كتاباً نادرا يجدر أن يقلده الآخرون ، وتشبه رسائل «اورنك زيب» شاشة رادار تعكس ملامح شخصية الإمبراطور بصورة دقيقة وكذلك نجد السجلات الادارية والأحكام الملكية والمستندات والمسكوكات والأختام والجرائد الرسمية والموجزات والرسائل والنقوش وأشياء أخرى بالاضافة الى التاريخ الخاص الشخصي والبيانات المتعلقة بالحكومات المركزية وحكومات الولايات وكلها تشكل مصدراً وافراً ضخماً لم تستطع أجيال الباحثين الاستفادة منه كلية حتى الآن .

وختاماً نستطيع ان نقول ان الشموع التي انارها المؤرخون العرب اشعلت مصباح العلم والمعرفة في الهند فانتشرت اضواؤه على كافة مجالات الحياة الانسانية . وقد استخدم التاريخ كأداة لنشر الخير .

وأصبح التاريخ مقياساً لتقييم التقدم الانساني كالفلسفة وعلم النفس فيما بعد لأنه شبه الحياة بالمسرحية يشاهدها الانسان كمتفرج إلا أن هذه المسرحية كانت مقلقة ومتعبة وأثارت في الانسان الدهشة . وكان الغرض الالهي منها ان يعلم الانسان ما يجب ان يعلمه ويفهم ما يجب ان يفعله ويعرف ما يجب ان يقدره ويدرك ما يجب ان يحترس منه وكان الهدف هو تعليم الانسانية كيف تقوم بتقييم الماضي لتحسين الحاضر والتنبؤ بالمستقبل .

والقى الانسان نظرة على وحشيته الماضية لكنه تطلع في نفس الوقت الى إمكان تحويل الغابة الى جنة وأن على الانسان ألا ينظر فقط الى القمم العالية بل ينظر أيضاً الى المنخفضات تحت قدميه كي يمهد الطريق ليجعل السير على درب الحياة هادفاً وآمناً . إن رؤية الاسلام للتاريخ تجعله جهازاً تربوياً ينظم ويفسر من جديد حصيلة الخبرات الانسانية بصورة مفيدة وتكشف عن معان وأفكار جديدة ناجمة عن تلك الخبرات وتزيد من قدراته على تسيير إتجاهات التجارب المقبلة . وتعرض هذه الرؤية على الانسانية إنضباطاً فكرياً مما يساعدها على مواجهة المشاكل الجديدة بالتوازن والحكمة لا بالعاطفة والسطحية . واذا فهم الانسان كيف تعرض للمعاناة في الماضي بسبب أخطائه فيمكن له ان يصحح مساره .

البروفيسور الشيخ علي
رئيس جامعة جوا بالهند

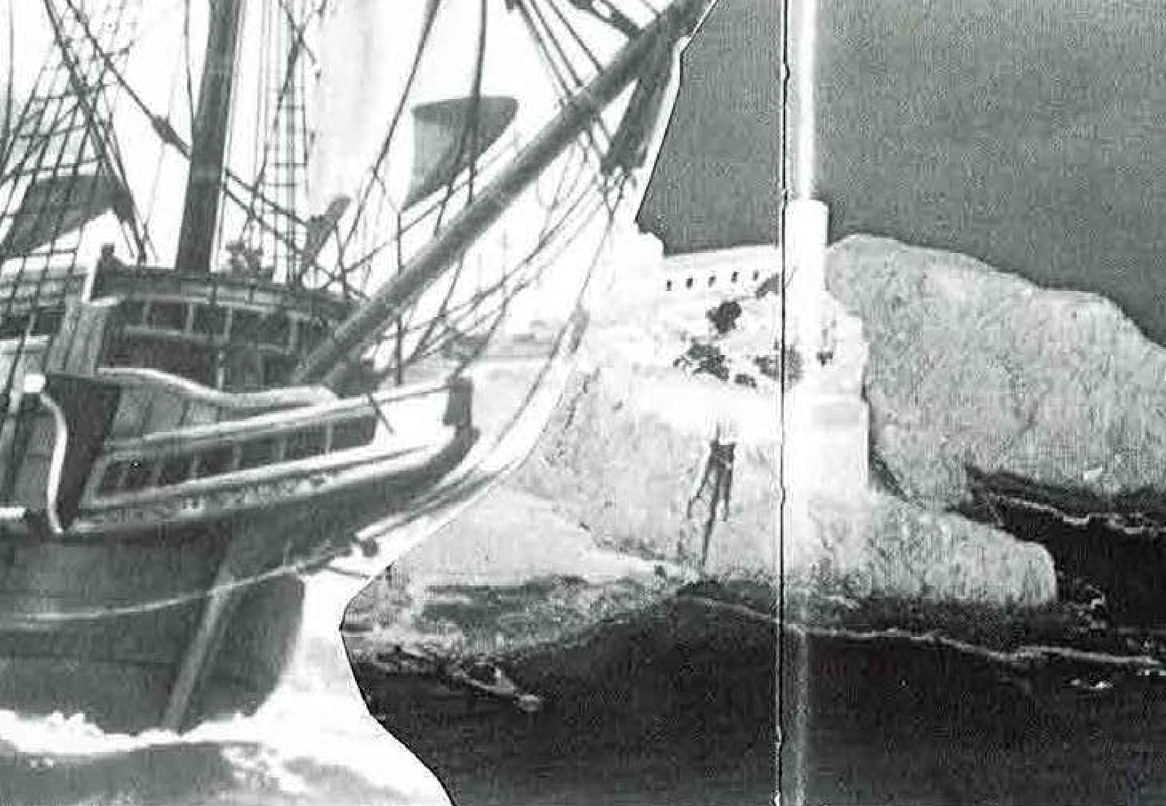


عوامل سقوط الحكم البرتغالي

كان الحكم البرتغالي للخليج العربي ، بداية الاستعمار الأوروبي ، وتدهور التجارة العربية ، ولكن نهاية الحكم البرتغالي ، كانت بداية ظهور القوة الاستعمارية الاوروبية الجديدة والمتمثلة في «هولندا» و «بريطانيا» .

والذي يهمنا هو قيام دولة قوية في تاريخ الخليج العربي وهى دولة اليعاربة التي كانت من عوامل سقوط الحكم البرتغالي في الجانب العربي بعدما سقط الحكم البرتغالي في الجانب الشرقي من مدخل الخليج العربي ..

ولم تحرر دولة اليعاربة عمان والامارات وغيرها على الساحل العربي



● حصن مراني بناه البرتغاليون ١٥٨٨

في الخليج العربي ١٦٢٢-١٦٥٠

للدكتور محمد حسن العيدروس

من الخليج ومنطقة «كونك» في الساحل الفارسي من الخليج «فحسب» من النفوذ البرتغالي وإنما بدأت تلاحقه الى الهند وشرق أفريقيا ، وحاولت معالجة هذا الموضوع بشكل متكامل ومتوافق من الأسباب ونتائجها .

وكان فشل السياسة البرتغالية في المنطقة قد أدى الى سقوط حكمها ، وكان من نتائجها تدهور النظام الاقتصادي القديم ، وظهور الثورة الصناعية والنظام الرأسمالي الجديد في غرب أوروبا لتراكم رؤوس الأموال .

ونهاية الوجود السياسي والعسكري بدأ من هرمز عام ١٦٢٢ وانتهى في مسقط عام ١٦٥٠ .

فشل السياسة البرتغالية :

بدأت عوامل سقوط الحكم البرتغالي مع قيامها في المنطقة ، لاتباعها سياسة فاشلة من البداية ، ولكن نظرا للتفوق العسكري ، مقابل ضعف المقاومة العربية الوطنية ، فقد تأخر سقوطها .

ولا ننس التنافس الأوروبي وخاصة الانجلو - هولندي ضد البرتغال والأسبان ، والذي جاء متأخرا أيضا مع نهاية القرن السادس عشر بعد تحرر هولندا من الأسبان ومحاولة نهوض بريطانيا بكيانها .

ولهذا سوف ندرس فشل السياسة البرتغالية التي حملت بذور الاخفاق منذ مجيئها الى المنطقة .

أدى تعارض المصالح الاقتصادية التجارية بين الأوروبيين المسيحيين الكاثوليك البرتغال «والبنادقة» ، الى الصراع والعداء في شرق البحر المتوسط ، في الوقت الذي أدى التقاء المصالح الاقتصادية التجارية بين مسلمي «المماليك» ومسيحي «البنادقة» الى التحالف فيما بينهما ، ولهذا فإن العامل الديني قد لا يكون سببا في بداية الصراع ، بقدر ما هو عامل اقتصادي تجاري ، برغم اندفاع البرتغاليين بالروح الصليبية ظاهريا ، ولكن في الحقيقة كان اندفاعا اقتصاديا وتجاريا ، والتمسك بالروح الصليبية انما كان القصد من ورائه هو كسب العالم المسيحي الأوروبي وبابا «الفاتيكان» ورفع معنويات الجنود بالدافع والحماس الصليبي لكسب المعارك وتحقيق السيطرة والهيمنة الاستعمارية .

ومع هذا يصعب الفصل بين العامل الاقتصادي والديني ، وقد يكون في البداية صليبيا دينيا ثم تحول بعد السيطرة واستغلال الشعوب في آسيا وأفريقيا الى العامل الاقتصادي التجاري ، ونلاحظ أيضا في الفترة المتأخرة قلة التعصب الديني .

أما بالنسبة للأعمال غير الانسانية من البطش والتنكيل والتعصب الديني ومحاولة الوصول الى الأماكن المقدسة في الحجاز لتدميرها في بداية الحكم البرتغالي للمنطقة . فيرجع هذا الى حب الانتقام وامتداد حروب الاسترداد ضد العرب حكام شبه جزيرة «ايبريا» بالأمس ، ولهذا يمكن القول بأنه من الصعب جدا الفصل بين الدافع الصليبي والدافع التجاري الاقتصادي أو تفضيل احدهما على الآخر .

كان الوصول الى الشرق للسيطرة على التجارة دون الحاجة الى الوسطاء العرب والبنادقة من الأهداف الأساسية للسياسة البرتغالية ، وبرغم أنهم حققوا هذا الهدف ، واحتلوا سواحل الهند الغربية في «غوا» عام ١٥٠٥ ، إلا أن السياسة البرتغالية اتجهت الى الجزيرة العربية التي لا تحتوي على أية موارد

اقتصادية قد تغري بالاحتلال ؟

ويرجع ذلك الى فشل البرتغال في تحقيق السيطرة الكاملة على التجارة التي ظلت تحت أيدي العرب ، وكذلك موانئها المزدهرة بتجارة اعادة التصدير المعروفة اليوم «بالترانزيت» مثل «البحرين» و «مسقط» و «شحر» و «ومكلا» و «عدن» و «مخا» ... الخ .

واستمرت التجارة في التسرب الى «القاهرة» و «البصرة» [١] ، برغم الحصار الذي فرضه الأسطول البرتغالي القوي في المحيط الهندي على الموانيء والسفن التجارية العربية ، وكان هذا التسرب عن طريق الخليج العربي بعامة والبحر الأحمر بخاصة ، وبدأت التجارة تنشط من جديد [٢] .

ويقول المؤرخ «عبدالقادر عبدالله العيدروس» الذي عاصر تلك الفترة في مخطوطته المعروفة بـ «النور السافر» [٣] .

بأن التجارة استمرت برغم القمع البرتغالي بين سلطنة كجرات الاسلامية في الهند ومدن حضرموت ومنها الى مصر .

وهذا ما دفع السياسة البرتغالية الى السماح لبعض قادتها العسكريين بممارسة القرصنة البحرية ضد حركة التجارة العربية ، وقاموا باحتلال المصادر الرئيسية لتجارة التوابل في ملقا بماليزيا [٤] وجزر اندونيسيا لمنع العرب الحضارمة من الوصول الى تلك المصادر الرئيسية ، اضافة الى القضاء على الاسلام والمسلمين [٥] .

وهذا ما دفع «الحضارمة» الى التعاون مع السكان المحليين في ايجاد مقاومة وطنية واقامة حكم اسلامي في جزيرتي « سومطرة » و «جاوة » بأندونيسيا والتي استطاعت الصمود أمام الاستعمار البرتغالي حتى مجيء الهولنديين ، الذين جاءوا في البداية كحلفاء ومساعدين ضد البرتغاليين وسرعان ما تحولوا الى غزاة مستعمرين «لأندونيسيا» .

وتدل الشواهد التاريخية على ان البرتغاليين برغم سيطرتهم على حركة التجارة الرئيسية في «هرمز» وموانيء غرب الهند ومسقط والبحرين في القرن السادس عشر ، إلا أنهم فشلوا في السيطرة على موانيء حضرموت مثل «شحر» و «مكلا» ثم على «عدن» و «جدة» ، وبالتالي في الحصار التجاري للبحر الأحمر ، وبعدها خسروا «ملقا» التي سقطت في أيدي الهولنديين» .

هذا الفشل جعل التجارة العربية في «حضرموت» و «عدن» و «جدة» و «السويس» لا تتأثر بالعمليات البرتغالية إلا جزئيا ، ونظر التجار العرب للوجود البرتغالي على أنه مجرد ازعاج عابر ، ولم يعتبروه مرحلة تاريخية جديدة ، وبذلك لم يكن تأثير البرتغال حاسما على التجارة العربية [٦] .

مما جعل «سواريز» الذي خلف

«البوكيرك» كنائب للملك في الهند ، يتبع سياسة جديدة تختلف تماما عن السياسة البرتغالية السابقة التي اتبعها «البوكيرك» نتجت عنها تطورات سياسية واقتصادية أدت الى انعاش التجارة البرتغالية ، كالتجارة العربية السائدة قبل مجيء البرتغال والتوقف عن السياسة السابقة التي لجأت الى أساليب العنف المسلح .

ولتنفيذ هذه السياسة الجديدة ، تم تعيين ضباط جدد لجمع الضرائب من المناطق البرتغالية مثل «هرمز» . مما أدى الى تحول القادة العسكريين الى تجار ، لأن السياسة الجديدة استهدفت اعطاء الحرية للحركة التجارية التقليدية ، ولكن تحت السيطرة البرتغالية وإشرافها المباشر للحصول على أكبر قدر من العوائد المادية (٧) .

لم تتغير التجارة التقليدية أي تجارة «المضاربة» التي استمرت السياسة البرتغالية تتبع فيها نفس الأساليب التي كانت موجودة قبل مجيئهم وهي (٨) :

أ) كميات التجارة قليلة إذا ما قورنت بالتجارة المضاربة .

ب) استهدفت السياسة فرض السيطرة لضمان المتاجرة كمشروع خاص .

جـ) اتباع سياسة فرض السيطرة لضمان الاستغلال المالي للتجارة كفرض الرسوم السنوية والجمركية على مختلف النشاط التجاري من الشحن والتفريغ والتخزين في الموانيء .

د) كانت التجارة تحت سيطرة وإشراف القادة العسكريين وكبار الموظفين ورجال الدين ورجال الطبقة الارستقراطية الاقطاعية .

ولم تدخل السياسة البرتغالية أي عنصر جديد في التجارة التقليدية ، ولم يكن البرتغاليون سوى جامعي ضرائب ولم تكن الاستادوا انديا Esta-doa-India» سوى مؤسسة لتوزيع العنف المنظم مقابل رسوم الحماية ، في حين كانت «الكارتازة» أي «الورقة» ، الأداة التي تجمع «الاستادوا انديا» الرسوم والضرائب بوساطتها ، أي ببيعها الى التجار وأصحاب السفن .

ويمكن القول بأنها مصاريف الحماية التي تقدمها «الاستادوا انديا» للسماح للتجار والسفن بالمتاجرة في المحيط الهندي ، وكل من لا يحصل عليها يكون عرضة للسلب والقرصنة من قبل الأسطول البرتغالي ، كما لا يسمح للسفن بمغادرة الموانيء البرتغالية إلا بعد حصولها عليها .

وتقوم السلطات بجانب «الكارتازة» بتحصيل الرسوم الجمركية على البضائع بما لا يقل عن ١٠٪ ولهذا الغرض كان الأسطول البرتغالي يجبر السفن التجارية على التوجه الى ميناء «هرمز» أو «مسقط» .

وقد سوغ البرتغاليون مؤسسة «الكارتازة» بأنها تعمل على نشر المسيحية ودورها التنصيري لقطع العلاقات

والاتصالات فيما بين المسلمين في الشرق ، وللضغط الاقتصادي على العثمانيين . اما علاقة «الكارتازة» بالحكام المحليين فعبارة عن الضرائب الجمركية والرسوم التي تتصل بتنظيم عمليات الشحن البحري بين موانىء المنطقة (٩) .

عوامل فشل السياسة البرتغالية :

هناك عدة عوامل أدت الى فشل السياسة البرتغالية في المنطقة وأهمها :

أولا : الروح الصليبية :

قيام السياسة البرتغالية على الروح الصليبية وعقلية الاسترداد ، وحول فشل تلك السياسة يقول «يوركا» في كتابه الذي يعتبر من أهم المصادر البرتغالية في يومنا هذا ، لأنه كتب عن الوجود البرتغالي وكان شاهدا على نهاية السيطرة البرتغالية ان فشل السياسة البرتغالية يرجع الى الفشل الكامل الذي منيت به أية محاولة لتحويل الناس الى المسيحية» (١٠) .

وجاء البرتغاليون بروح متحمسة لنشر المسيحية في كل مكان سيطروا عليه ، ومنها مسقط ، فقاموا ببناء ثلاث كنائس ،ولا تزال الكنيسة الصغيرة التي بناها البرتغاليون باقية حتى الآن في قلعة «الميراني» في حين تهدمت الكنيستان (١١) ، الاخريان او أن العمانيين انفسهم قاموا بهدمهما بعد تحرير مسقط .

ثانيا : الابتزاز والاضطهاد :

اتجهت السياسة البرتغالية الى ابتزاز التجار والأمراء المحليين ، واتبعت اساليب البطش والقهر في معاملة السكان ، وسوف نورد مثالا لسياسة البطش لأحد الضباط البرتغاليين ويدعى «روي فرير» الذي كان يصر على تنفيذ اوامره بالكامل وذات مرة ، أعدم أحد قادة الجنود المحليين لأنه أبقى على حياة فتاة ايرانية جميلة بعد أن أمر «روي فرير» بقتل الايرانيين بغض النظر عن أعمارهم أو أنواعهم (١٢) .

ولذا كان البرتغاليون غير محبوبين من سكان المنطقة الذين يحتقرونهم ويمقتونهم لاحتكارهم التجارة ولأنظمتهم التعسفية ، وكانوا يتحينون الفرص للتخلص من حكمهم وسيطرتهم (١٣) .

ثالثا : المقاومة العربية :

اعتمدت السياسة البرتغالية على القوة العسكرية والتعصب والجشع في المناطق المفتوحة ، وليس التعامل التجاري السلمي في النشاط الاقتصادي فحملت بذلك معها عوامل فشلها . خاصة عندما أعلن الحكام وشعوب المنطقة التمرد والثورات ضد وجودها العسكري نتيجة للسياسة الوحشية التي اتبعها البرتغاليون مع العرب (١٤)مما أدى الى قيام المقاومة الوطنية .

وثارت روح الثورة لدى السكان المحليين الذين أخذوا يتحينون الفرصة المناسبة للانقضاض على البرتغاليين والتحرر منهم (١٥) علما بأن المقاومة

العربية كانت قد بدأت منذ مجيء البرتغال ابتداء من عام ١٥١٥ ، الذي اخضع فيه «البوكيرك» «رئيس حامد» في هرمز ، مرورا بمقاومة عام ١٥٢٢ التي أدت الى تدمير صحار ، ثم عودة هرمز للحكم البرتغالي بعد القضاء على المقاومة الوطنية ، مرورا بالانتفاضات الوطنية ضد الاستعمار البرتغالي في «مسقط» و «قلهات» و «البحرين» عام ١٥٢٩ ، وكذلك المقاومة العربية الوطنية عام ١٥٨٠ في عمان [١٦] .

ولم يهدأ كفاح العرب ضد الاستعمار البرتغالي ، فانتهز عرب الخليج العربي الفرصة التي هيأها الصراع العثماني ـ البرتغالي للتخلص من الحكم الاستعماري ، وبدأت المقاومة العربية في البحرين عام ١٦٠٢ ، ثم في قريات بعمان عام ١٦١٩ . وبرغم نجاح الاستعمار البرتغالي في اخمادها ، إلا أن عرب الخليج اتفقوا على قيام ثورة شاملة في المنطقة ضد الوجود البرتغالي لمهاجمة جميع المراكز والقلاع والحصون البرتغالية في يوم واحد هو الحادي والعشرين من أكتوبر عام ١٦٢١ .

وهاجم العرب في ذلك اليوم جميع المراكز والسفن البرتغالية في «البحرين» و «صحار» و «قريات» و «مسقط» و «خورفكان» و «قلهات» ، واستمر القتال أكثر من ستة اشهر استولى أثناءها عرب المنطقة على عدد من الموانيء والمراكز برغم النجدات البرتغالية المتلاحقة .

لقد دل هذا التلاحم الثوري في النضال ضد الاستعمار لدى عرب المنطقة على روح الوحدة التي تربط بين أبنائها ، برغم عدم نجاح المقاومة لحدوث بعض الانشقاقات بين زعمائها .

واندلعت ثورة أخرى في عمان عام ١٦٢٥ ، وبعث قادتها برسائل الى اخوانهم العرب في المنطقة لتوحيد الكفاح ضد الاستعمار ، وأوشكت الثورة أن تشمل المنطقة بأكملها ، لولا أن أسرع نائب الملك البرتغالي في الهند بارسال أحد قواده ومعه خمس بوارج حربية لاقناع زعماء العرب بعدم جدوى ثورتهم كما أقال «ديا جوري ملو» الحاكم البرتغالي في عمان [١٧] .

في حين قام الشعب البحريني باقفال الطريق أمام السفن البرتغالية وهاجم مراكز وأماكن اقامتهم في المنامة ، واجبرهم على الرحيل عنها ، واستمرت الاشتباكات بين الطرفين بحرا وبرا لعدة أشهر [١٨] ، ولكنها أيضا انتهت بدون تحقيق نتائج ايجابية، لعدم التكافؤ وقلة السلاح الحديث أو عدم وجوده أصلا وكذلك السفن الحربية الحديثة ، والأهم من هذا عدم وجود كيان عربي موحد وقوي ، ولكن العرب لم ييأسوا أو يستسلموا للحكم الاستعماري البرتغالي واستمروا في المقاومة والكفاح .

وقد أعطى فشل المقاومات العربية المتلاحقة ، درسا لزعماء القبائل في

عمان وعلمهم بأن نجاح المقاومة رهن باتحادهم ، وبانشاء دولة عمان الموحدة ، ولذا اختاروا نظام الامامة (١٩) .

وتزعمت عمان تحت قيادة أسرة اليعاربة المقاومة العربية ، واستطاع الامام ناصر بن مرشد اليعربي عام ١٦٢٤ أن يطرد البرتغاليين ويحرر مدن ساحل عمان «دولة الامارات العربية المتحدة اليوم» مثل «رأس الخيمة» و «خورفكان» ، وحقق «اليعاربة» بعثا جديدا للمقاومة الوطنية العربية ، وللسيطرة العمانية على المقدرات السياسية في شرقي الجزيرة العربية (٢٠) .

رابعا : تركز الوجود البرتغالي في النقاط الاستراتيجية والتجارية :

لا يمكن تسمية الوجود الاستعماري البرتغالي بالامبراطورية ، كدولة كبيرة مترامية الأطراف والحدود ، وانما كانت البرتغال دولة استعمارية يتركز وجودها في النقاط الاستراتيجية والتجارية والممرات المائية ، وفيها المؤسسات التجارية والادارية والعسكرية ، أي كقواعد عسكرية تعمل للتجارة باستخدام العنف المسلح ، وتحتفظ في تلك النقاط بسفن حربية محددة بشكل دائم ، وخاصة في المقر الرئيسي بـ «غوا» .

وتقوم بقية السفن الحربية بأعمال الدورية بشكل منتظم في البحار والمحيط الهندي لمراقبة السفن والحركة التجارية واخضاعها تحت السيطرة المباشرة .

خامسا : قلة العنصر البشري :

قلة العنصر البشري في المراكز والقواعد البرتغالية ، وهذا يرجع الى قلة عدد سكان البرتغال الذي لم يتجاوز المليون خلال القرن السادس عشر ، وقد أدى هذا الى فشل تحقيق السياسة البرتغالية ، التي لم تتمكن من الاحتفاظ بالمراكز والنقاط والقواعد البرتغالية المترامية المواقع والأطراف لقلة الجنود البرتغاليين وتوزعهم على مختلف المراكز للحماية.

وقلة العنصر البشري في تلك المراكز والنقاط جعلهم يعتمدون على المرتزقة من الهنود وغيرهم ، مما جعلهم يضطرون لاقامة علاقات ومعاهدات مع بعض الدول والامارات لتجنيد بعض أفرادها كمرتزقة ، وخاصة من «الهندوس» .

كما لم يصادفوا صعوبات في تجنيد «الايرانيين» و «البلوش» ، حيث كان معظم المرتزقة من المجندين «البلوش» . ومن الطبيعي ان لا يكون دفاع هؤلاء المرتزقة مثل دفاع البرتغاليين أنفسهم (٢١) .

وتقول المصادر البرتغالية ، أن هذه القوات الثانوية المرتزقة كانت تؤدي واجباتها بولاء مثالي طالما كانت تتلقى رواتبها بانتظام وبشكل كامل (٢٢) .

وحاول البرتغاليون الابتعاد وعدم التعاون مع البحارة المسلمين من الهند خاصة ، لفترة طويلة ، ولكنهم في نهاية القرن السادس عشر ، تعاونوا معهم بشكل مطلق محاولين تنصيرهم ونشر الدين المسيحي بينهم ، ولكنهم اخفقوا في ذلك ولم ينجحوا .

واعتمدوا أيضا على العناصر الأخرى مثل الرقيق والمرتزقة من بعض الأوروبيين والهنود من مسيحيي «الرز» أي الذين تنصروا من أجل المال ، وليس دفاعا عن المصالح القومية للبرتغال ، مما يعني عدم حماسهم للقتال ، وهذا ما أدى الى قلاقل ومشاكل في البحرية البرتغالية اضافة الى حوادث التمرد لكبار الضباط البرتغاليين (٢٣) .

سادسا : انتشار الرشوة والفساد :

انتشرت الرشوة والفساد بين البرتغاليين حتى أصبحت السمة البارزة فيهم ، وأصبحت مؤسسة شبه رسمية ، حيث تباع المناصب العليا في الدولة والمراكز القيادية والادارية من قبل التاج البرتغالي .

سابعا : ضم البرتغال لأسبانيا :

تم ضم البرتغال لاسبانيا عام ١٥٨٠ بقيادة فيليب الثاني (٢٤) ولم تستقل البرتغال حتى عام ١٦٤٠ تحت قيادة أسرة «براغزا» ويرى معظم المؤرخين بأن هذا الضم أو توحيد اسبانيا والبرتغال ، أضعف الادارة الاستعمارية في «الهند» و «هرمز» و «مسقط» نتيجة لفقدان الدعم الآتي من الوطن الأم .

ولكننا نرى عكس ذلك ونعتبر هذه وجهة نظر أوروبية مسيحية للتقليل من أهمية المقاومة الوطنية العربية ، وخاصة حكم أئمة «اليعاربة» .

واستمرت السياسة البرتغالية تجاه الخليج العربي بصفة عامة ، وتجاه التجارة العربية في المحيط الهندي بصفة خاصة ، كما هي أثناء



الوحدة الاسبانية ـ البرتغالية ، تحت حكم التاج الاسباني ، وان لم تكن أقوى من ذي قبل .

نظرا لأن هذا الاتحاد قد أثر في قوة البرتغاليين ، مما جعلهم يتعرضون للسفن التجارية الهولندية وغيرها ومنعها من التوجه الى ميناء لشبونة ، بغية تصدير المنتجات التجارية مباشرة الى مختلف انحاء أوروبا من لشبونة وعلى سفنهم فقط ، لجني الأرباح كاملة ، ورفعوا أسعار تلك المنتجات الشرقية مثل التوابل والبهارات ، وهذا ما دفع هولندا لتسعى للوصول الى مصادرها (٢٥) .

وشدد الاسبان قبضتهم على المستعمرات والمراكز البرتغالية ، وقدموا لها كل الدعم المطلوب ، وقاموا بزيادة التحصينات العسكرية ، ويكفي ان نلاحظ القلعتين الكبيرتين وهما «الميراني» و «الجلالي» واسمهما القديم «كابيتان» و «سان جوا» ، في مسقط ، وتم بناؤهما من قبل الاسبان عام ١٥٨٦ (٢٦) .

وهما من الحصانة والمنعة بما يكفي للدفاع ضد أي اعتداء خارجي ، ولا زالتا موجودتين الى يومنا هذا ، ولكن الضعف والفشل بدأ مع بداية الممارسات الخاطئة للسياسة البرتغالية منذ مجيئها الى المنطقة في بداية القرن السادس عشر ، واستمر حتى النهايه ، أو حتى ما بعد الانفصال أو الاستقلال عن اسبانيا .

ثامنا : احتكار السلع :

اعتمدت السياسة البرتغالية على الاحتكار «البيروقراطي» للسلع المربحة بطريقة تقليدية ساهمت في فرض الهيمنة البورجوازية التجارية الحكومية ، نتيجة للتعبئة الاقتصادية .

واحدثت التجارة البرتغالية التراكم الرأسمالي الذي يوفق بين التجار والادارة الارستقراطية كما حدث في هولندا وبريطانيا فيما بعد (٢٧) .

واتبعت الحكومة البرتغالية سياسة مركزية ومتحيزة وغير رشيدة وكانت على حد تعبير النظريات الاقتصادية السائدة في ذلك الوقت ، تنزع الى التضحية بكل شيء في سبيل تكديس التوابل (٢٨) .

هذا الاحتكار الحكومي البرتغالي للسلع المربحة ، لم يترك المجال مفتوحا للتجار البرتغاليين لتأسيس شركات احتكارية على غرار الشركات التي أنشأها الهولنديون والبريطانيون ، لربط مصالح الطبقة الرأسمالية والأفراد بحركة الاستعمار البرتغالي كما حدث للاستعمار الهولندي والبريطاني بالنسبة للشركات في الهند الشرقية .

تاسعا : عدم الاهتمام بالتطور الصناعي :

أدت سياسة الارهاب والتسلط على القوى المحلية الضعيفة الى عدم

الاهتمام من قبل البرتغاليين بالتطور الصناعي السريع للدول الأوروبية البحرية الأخرى التي بدأت تنافس الوجود البرتغالي في أواخر القرن السادس عشر مثل هولندا وبريطانيا وفرنسا .

ويرجع ذلك لامتداد السياسة البرتغالية الاستعمارية التوسعية الى الامريكتين والمحيط الهندي على الطريقة التي اتبعتها والتي ذكرناها سابقا .

مما جعل من البرتغاليين جامعي ضرائب ومصدري عنف منظم مقابل الحماية من الدرجة الأولى ، كل ذلك أدى الى تدفق الأموال والذهب والفضة ، والأرباح الناتجة من السلع الاحتكارية على البرتغال واسبانيا ، والتي لم يتم استثمارها لتطوير النظام الاقتصادي والاداري والصناعي ، وانما ذهبت الى دول وسط وغرب أوروبا ، وخاصة الى «جنوة» في ايطاليا و «بافاريا» في المانيا وهولندا وفرنسا وبريطانيا ، مما نتج عنه تطور النظام الاقتصادي الرأسمالي الأوروبي الغربي في تلك الدول ، اضافة الى التقدم الصناعي والتقني .

نتائج اخفاق وفشل السياسة البرتغالية :

كان من أهم نتائج اخفاق وفشل السياسة البرتغالية ، تدهور النظام الاقتصادي القديم والتجاري التقليدي المتمثل في تجارة المضاربة ، وبداية ظهور النظام الاقتصادي الجديد والمتمثل في الرأسمالية الصناعية ، التي بدأت تنشأ في وسط وغرب أوروبا نظرا لتدفق الأموال البرتغالية والاسبانية .

أما على الصعيد المحلي ، فإن تراكم أخطاء واخفاق وفشل السياسة البرتغالية أدى الى ظهور المقاومة الوطنية العربية المتمثلة في «اليعاربة» بعمان ، إضافة الى التنافس الهولندي ـ البريطاني . مما كان له الدور الرئيسي في انهاء الوجود السياسي والعسكري وبالتالي سقوط الحكم البرتغالي في الخليج العربي .

أولا : تدهور النظام الاقتصادي القديم وظهور الرأسمالية الصناعية في غرب أوروبا :

التطور والتقدم الاقتصادي والصناعي لأوروبا الغربية ، ساعد على ظهور صناعات جيدة ومتنوعة مما خلق لها أسواقا كبيرة وكثيرة في مختلف أنحاء المستعمرات والأسواق العالمية ، وساعد على تبادل المنتجات المحلية والمواد الخام والحصول على أموال كثيرة .

كل ذلك كان على حساب البرتغال واسبانيا ، اللتين كان همهما منحصرا في تجارة السلع المربحة مثل البهارات والتوابل واحتكارها تحت سيطرتهم (٢٩) في المحيط الهندي ، وعدم استثمار الأموال الفائضة في الصناعة ، مما أدى الى تدفقها الى



● حصن الجلالي بناه فيليب الثاني ملك اسبانيا ١٥٨٨ اثناء حكمه للبرتغال

أسواق أوروبا الغربية لشراء الكماليات والاستثمار هناك .

كما هو حادث اليوم لدول البترول العربية التي لا تستطيع أن تستثمر أموال النفط في الصناعة سواء في دولها أو الدول العربية الشقيقة لضمان المستقبل ، وانما تذهب تلك الأموال الى أسواق غرب أوروبا والولايات المتحدة ، كما حدث لأموال البرتغال واسبانيا اللتين تخلفتا عن التطور الصناعي .

وأدى استمرار تدفق الذهب والفضة من المستعمرات نتيجة لسياسة التوسع الاستعماري البرتغالي والاسباني في آسيا وأفريقيا وأمريكا ، لاجتياز محنة الاقطاع وظهور أزمة النظام الاقتصادي ما قبل الرأسمالية ، حتى وصل الى ثورة الأسعار في منتصف القرن السابع عشر ، ونتج عنه فيما بعد كساد واسع النطاق في الدولة العثمانية والمشرق العربي لتدفق الذهب والفضة .

ومن نتائجها كان نشوء وتطور الرأسمالية بقيام الثورة الصناعية لتدفق الأموال على دول غرب أوروبا ، وهذا ما دفع تلك الدول للبحث والاستحواذ على أسواق جديدة لمنتجاتها ثم الاستيلاء على موارد المستعمرات والمناطق الجديدة والسيطرة على طاقاتها البشرية والطبيعية من المواد الأولية والخامات

اللازمة للصناعة ، وتحويلها لخدمة النظام الرأسمالي الاحتكاري (٣٠) .

وبالتالي ظهور الاستعمار والنظام الرأسمالي لدى أوروبا الغربية ، ولهذا لم تكن البرتغال واسبانيا إلا وسيلتين لمجيء وتطور الاستعمار الحديث والنظام الاقتصادي الرأسمالي ، وتحقق ذلك عن طريق شركات الهند الشرقية الأوروبية لكل من هولندا وبريطانيا وفرنسا ، والتي جاءت عن طريق التجارة ثم احتكارها واستعمار دول المنطقة في النهاية .

في حين استمرت تجارة المضاربة التقليدية وأساليبها التي تكيف معها الاستعمار البرتغالي ، والتي كانت سائدة قبل مجيئه ، فقد وصلت الى حدود التشبع ، مما أحدث مواجهة بين التجارة التقليدية المحلية والبرتغالية وبداية النظام الرأسمالي في نهاية القرن السادس عشر مع ظهور شركتى الهند الشرقية الهولندية والبريطانية منذ أوائل القرن السابع عشر .

ودخلت هاتان الشركتان كمنافستين للبرتغاليين ، للسيطرة وبسط النفوذ تحت ستار التجارة ، ونجحتا في زحزحة البرتغاليين عن مكانتهم التي حصلوا عليها ، واشتبكتا معهم في معارك أسفرت عن سقوط الحكم البرتغالي في «هرمز» .

وذلك كان من أكثر الأوضاع حسما نظرا لعدم وجود شركة تجارية للبرتغال ، كما هو الحال للهولنديين والبريطانيين ، لنظرتهم للتجارة على انها احتكار ملكي (٣١) وبدون اية كفاءة في مجال التجارة.

ونظرا لأن «هرمز» لم تكن إلا قاعدة ومركزا للتجارة التقليدية في أوج توسعها ومعقل الامبريالية التقليدية قبل الرأسمالية ، فلم تكن مهيئة لهذه المواجهة ، وبعيدة عن تطور النظام الاقتصادي التجاري الذي بدأ في دول غرب أوروبا ، وخاصة هولندا ثم بريطانيا ، وبذلك فشلت تلك السياسة والنظام الاقتصادي والتجاري التقليدي مع سقوط «هرمز» نهائيا .

والفرق الوحيد بين التجارة التقليدية وبين ما أدخله البرتغال في المنطقة ، هو أن التجار المحليين أصبحوا يتعاملون مع ممثلي أو وكلاء دولة استعمارية عسكرية تستخدم العنف المنظم ، وأسعار السلع ثابتة بالاتفاقيات الرسمية مع الدول في البر ، وفي البحر أصبحت تضمنه عن طريق «الكارتازة» ، ودون ان تغير من واقع العلاقات الاقتصادية والسياسية على المستوى المحلي (٣٢) .

ثانيا : نهاية الوجود السياسي والعسكري البرتغالي في الخليج العربي :

أ) نهاية الوجود البرتغالي في «هرمز» عام ١٦٢٢ :

عندما وصل الأسطول البريطاني

الى ميناء «جاسك» على ساحل «مكران» في «بلوشستان» ، في مهمة تجارية عادية ، طلب امام «قولي خان» حاكم «شيراز» في عام ١٦٢٢ ، من الوكيل البريطاني في ميناء «جاسك» ومن أسطوله طرد البرتغاليين من جزيرة ««هرمز» ، وفي حالة رفض طلبه فإن ذلك قد يؤدي الى الغاء الامتيازات البريطانية .

ووجد ممثلو الشركة البريطانية أنفسهم في ورطة حقيقية لعدم وجود رغبة لمحاربة البرتغاليين المسيحيين من جانب ، ومن جانب آخر لعدم وجود رغبة في فقدان مصالحهم التجارية الرابحة في فارس ، ففضلوا الخيار الأخير ، ولكنهم حددوا شروطا معينة مقابل قيامهم بتحرير «هرمز» من البرتغال وتسليمها لفارس ، وفيما يلي تلك الشروط (٣٣) :

١ ـ تقسيم غنائم «هرمز» بالتساوي بينهم وبين الفرس .
٢ ـ تقسيم الرسوم الجمركية العائدة من مرور التجارة في هرمز بين الجانبين مستقبلا .
٣ ـ يقوم البريطانيون بتجارتهم في هرمز بدون رسوم جمركية الى الأبد .

تجمعت السفن البريطانية وعدد كبير من السفن المحلية مع القوات الفارسية المرابطة في «جمبرون» (بندر عباس حاليا) وتوجهوا الى جزيرة «قشم» واستولوا عليها ثم الى «هرمز» وطردوا البرتغاليين منها في عام ١٦٢٢ (٣٤) .

وبعد طرد البرتغاليين من هرمز ، تعزز مركز البريطانيين في المنطقة ، وحصلوا على ميناء هو أكثر أهمية من ميناء «جاسك» وتم التصديق على فرمان لعام ١٦١٧ ينص على امتيازات خاصة لبريطانيا في فارس ، كما حصلوا على امتيازات جديدة تمنحهم الحق في شراء أية كمية بدون حدود معينة من الحرير الفارسي في أي ميناء من موانىء فارس دون أي رسوم جمركية (٣٥) .

بعد سقوط «هرمز» أقام البرتغاليون وكالة لهم في ميناء «كنج» على الساحل الفارسي وعقدوا اتفاقا مع الفرس عام ١٦٢٥ ، اعترفوا فيه بسيادة الفرس على «هرمز» و «قشم» ، وانتهز الشاه عباس هذه الفرصة واقام ميناء جديدا في مواجهة هرمز محل قرية قديمة واطلق عليه اسم (بندر عباس) واكتسب هذا الميناء أهمية خاصة في الخليج العربي منذ ذلك الحين وحتى اليوم (٣٦) .

ب ـ تحرير عمان من الاستعمار البرتغالي :

لعبت الممارسات اللانسانية للاستعمار البرتغالي من تقتيل وتخريب وتدمير وحرق المدن واغراق السفن ، وتحطيم الاقتصاد وانتزاع المراكز والأسواق ، دورا في نفوس العمانيين (٣٧) ، مما دفعهم الى جمع

الكلمة وتوحيد الصفوف .

تشاور علماء المسلمين على ان ينصبوا لهم اماما ، واجتمع العلماء والبالغ عددهم واحدا وسبعين [٣٨] عالما وبايعوا الامام «ناصر بن مرشد اليعربي» اماما على عمان في عام ١٦٢٤ ، وبعد انتخابه قام الامام ناصر بن مرشد بتوحيد البلاد أولا وذلك باخضاع حكام المناطق العمانية .

وكان الوضع في عمان قبل مبايعة «ناصر بن مرشد» يتمثل في وجود جزء تحت الاحتلال البرتغالي مثل «صحار» ، «مسقط» ، «قريات» ، «صور» ، إضافة الى «خورفكان» و «رأس الخيمة» (وهما الآن ضمن حدود دولة الامارات العربية المتحدة) أما في الداخل فكان لكل منطقة حاكم مستقل ، مثل «الرستاق» ، «نخل» ، «سمائل» ، «سمد» ، «ابرا» ، «ازكى» ، «نزوى» ، «منح» ، «حصن بلاد سبت» ، «حصن الغبي» و «حصن مقنيات» و «يسات» ، و «حصن توام» ، و «حصن لوى» [٣٩] .

ساهمت العوامل التي ذكرناها سابقا ، في اضعاف البرتغاليين وتقليص نفوذهم ، ولكن نمو قوة عرب عمان كان العامل الحاسم في سقوط الحكم البرتغالي نهائيا من الخليج العربي . نعم لقد عوض البرتغاليون خسارتهم «لهرمز» بزيادة نشاطهم وقدراتهم التجارية والعسكرية في مسقط [٤٠] ، كما عززوا وجودهم في «رأس الخيمة» و «خورفكان» ، في الوقت الذي كان العمانيون فيه يتحفزون للظهور كقوة فعالة في المنطقة .

غير أن قيام حكم الأئمة أو الامامة في عمان كان فاتحة خير لمرحلة مهمة ليس لعمان فحسب ، وانما للخليج العربي ، لقد تمتعت عمان في تلك الفترة بالرفاه والقوة والمجد بشكل لم يسبق له مثيل [٤١] ، والفضل يعود في ذلك لمؤسسها الامام ناصر بن مرشد اليعربي .

فقد اخضع هذا الامام مع بداية حكمه ، جميع القبائل العمانية التي رفضت الاعتراف به ، وما أن تم له هذا ، حتى أعلن جهاده المقدس ضد البرتغاليين وشن عليهم حربا بلا هوادة .

وارسل الامام ناصر بن مرشد جيشا بقيادة الشيخ مسعود بن رمضان ، ودارت معركة ضد البرتغال في منطقة «طوى الرولة» بالقرب من مسقط لكنها انتهت بعقد اتفاق كانت شروطه في صالح العمانيين وهي [٤٢] :

١ ـ يتنازل المسيحيون عن كل الأراضي والمباني التابعة لهم في منطقة صحار .
٢ ـ يدفع البرتغاليون جزية سنوية للامام ، (وجمع الشيخ مسعود الضريبة قبل مغادرته مسقط) .
٣ ـ يعامل البرتغاليون المسلمين

معاملة حسنة في مسقط ومطرح . بالرغم من ان تلك المعركة لم تنه الوجود البرتغالي في مسقط إلا أنه ترتب عليها نتائج عديدة منها :

١ ـ مثلت شروطها ضربة قوية للبرتغاليين وتدميرا تجاريا وعسكريا لهم ، كما شكلت خطرا على مستقبلهم في عمان ، وكانت بمثابة التمهيد الحقيقي لسقوط حكمهم في المنطقة .

٢ ـ تغير وضع البرتغاليين من الهجوم الى الدفاع ، وقبولهم الجزية يعني الاستسلام ضمنيا للامام ، وهذا النصر دفع العمانيين الى تصفية باقي الوجود البرتغالي في عمان [٤٣] .

٣ ـ هزت تلك الاتفاقية الحكومة البرتغالية في «لشبونة» ، فعزلت القائد البرتغالي المسؤول عن توقيعها ، وأعطت أوامر مؤكدة بضرورة الحفاظ على مسقط وان ترابط فيها سفن حربية بشكل دائم وعدم السماح للعرب بالاقامة بمسقط ، وان يعزز ما تبقى من القلاع ، ولكن هذه الاجراءات لم تحمها من مصيرها المحتوم .

عززت هذه الاتفاقية جهود التحرير ، وأرسل الامام ناصر الجيش العماني لتحرير «رأس الخيمة» التي كان فيها قلعتان احداهما للبرتغال والأخرى لفارس ، وشن القائد العماني «علي بن أحمد بن عثمان النزوي» هجوما ناجحا على حصن ناصر الدين الفارسي .

وبرغم مساعدة البرتغاليين للفرس ، إلا أن العمانيين تمكنوا من الاستيلاء عليه وبعدها حاصروا الحصن البرتغالي واستولوا عليه [٤٤] . وبذلك كانت رأس الخيمة أول مدينة يتم تحريرها من الاستعمار البرتغالي .

وتوجه الجيش العماني من رأس الخيمة الى «دبا» وعلى رأسه «خميس بن محزم» ونجح في تحريرها من الاستعمار البرتغالي ، وهى المدينة الثانية التي يتم تحريرها .

وقد جاء في كتاب «عبدالله بن خلفان بن قيصر» الذي كتب عن «الامام ناصر بن مرشد» في منتصف القرن السابع عشر [٤٥] ، وبالتالي فهو من أهم وأقدر المصادر العمانية وأقربها للأحداث المعاصرة للامام ناصر بن مرشد ، وكان قد كتب ما كتبه في حياته وبناء على طلب الوالي [٤٦] ، حيث يقول :

«كان خميس بن محزم مجدا مجتهدا مشمرا في سبيل الله أذياله، باذلا في الجهاد حينئذ نفسه وماله ، وكان بقرية «دبا» حصن بساحل البحر للنصارى (البرتغال) فدخل جيش المسلمين البلد ليلا أو نهارا ، واستولى على جميع اهلها ، ونخلها جهارا ، فاستذلت له دولة المشركين غاية الاستذلال» [٤٧] .

وبعد تحرير مدن «رأس الخيمة»

و «خور فكان» و «دبا» «دولة الامارات العربية المتحدة حاليا» ، وجه الامام ناصر بن مرشد كافة امكانياته لتحرير «صحار» و «مسقط» ، وحشد أعدادا كبيرة من الجنود ، فحرر «صحار» ولكنه لم يتمكن من تحرير مسقط ، وذلك نظرا لوفاته عام ١٦٤٩ .

وبذلك صفى الوجود البرتغالي من جميع أنحاء عمان ما عدا مسقط ، وجعل منها دولة موحدة قوية ، وتمت مبايعة سلطان بن سيف خلفا للامام ناصر بن مرشد اليعربي» .

وحاصر الامام سلطان بن سيف ، مسقط عام ١٦٥٠ وباغتت مجموعة صغيرة من المهاجمين العمانيين المدينة أثناء الليل فانتشر الرعب بين صفوف البرتغاليين الذين فروا الى سفنهم الراسية في الميناء ، وتمكن العمانيون من أسر سفينتين مع من كان على ظهرهما وحوصرت القلعة ، وعندما وصلت الأنباء المفزعة الى الهند سارعت السلطات البرتغالية بارسال أسطول بحري الى مسقط ، ولكنه جاء متأخرا بعدما استسلمت الحامية البرتغالية الباقية في القلعة بتاريخ ٢٣ يناير من نفس العام أي عام ١٦٥٠ (٤٨) .

تحرير مسقط وجه ضربة قوية للحكم البرتغالي في الخليج العربي وفي نفس الوقت حرر العمانيون مدينة «خصب» في شبه جزيرة «مسندم» وبذلك تم تحرير جميع الأراضي العمانية بما فيها ساحل عمان وكان ذلك ايذانا بسقوط الحكم البرتغالي في عمان والخليج العربي بعد أن دمروا مدينة «كنج» آخر معقل للبرتغاليين في الخليج العربي على الساحل الفارسي عام ١٦٩٥ .

قيام دولة اليعاربة أدى الى سقوط الحكم البرتغالي وعزز استقلالية وسيادة الأراضي العربية في شرق الجزيرة مما نتج عنه هجرة العديد من القبائل العربية ، من غرب ووسط الجزيرة العربية واستقرارها على سواحلها الشرقية وقيام دويلات وقوى بحرية ، وبسقوط مسقط خسر البرتغاليون أهم وأقوى معقل لهم في الخليج العربي (٤٩) .

وكتب البرتغالي «انطونيو بوكارو» الذي عاصر تلك الأحداث يقول :

كان قد حدث تغييران مهمان وهما تولى اليعاربة الحكم وتصميم البرتغال على تقوية أوضاعهم العسكرية في عمان ، واحتلال المزيد من القلاع والحصون بعدما فقدوا مراكزهم في «هرمز» على أيدي البريطانيين والهولنديين .

وكان «بوكارو» متأثرا بقوة الامام ناصر بن مرشد ، ويقول عنه :

انه كان قد جعل نفسه قبلها بسبع سنوات أعظم حكام الجزيرة العربية شأنا ، وكان تحت أمرته خمسة عشر ألفا من الفرسان ، وكان بمقدوره ان يحصل على المزيد بسهولة ، وكانت لديه أيضا فرقة من الجمال التي لم تكن تقل عن الجياد في سرعتها

وتحملها ، ولم تكن هذه القوات الراكبة تستطيع مهاجمة مسقط التي كانت تحميها السلسلة الجبلية ، ولكن مشاته كانوا قادرين تماما على تسلقها والهبوط منها [٥٠] .

ويقول : «وكانت الصداقة مع الامام محفوفة بالمخاطر دائما . فقد كان مصلحا (مسلما دينيا) ويرى ان الاسلام يفرض الحرب الدائمة ضد المسيحية ، وكان يبرم الاتفاقيات ولكنه لا يحفظها الا طالما كانت تناسبه ، وحتى ذلك الوقت لم يكن قد تعامل مع البريطانيين والهولنديين ، وكان يجمع بيده بين السلطتين الزمنية والروحية ، وكانت سلطته تجعله محترما ومطاعا مثل أي حاكم عظيم في العالم [٥١] .

وأصبحت عمان في عهد اليعاربة تحت حكم مركزي قوى بعد ان كانت امارات مجزأة ومتفرقة ، ثم بعد الاتحاد استطاعت طرد الاستعمار البرتغالي من عمان والخليج العربي وشرق افريقيا جميعها ما عدا «موزمبيق» ، وتكوين أول دولة آسيوية ـ افريقية تضم عمان في آسيا وشرق افريقيا ، وذلك بعدما حولوا الصراع مع البرتغاليين من البر الى البحر [٥٢] .

وأسسوا ترسانة للسلاح ولبناء السفن الحربية ، وانشاء أقوى وأول أسطول عربي تجاري وحربي في التاريخ الحديث ، وكان من أقوى الأساطيل في المحيط الهندي وبمثابة أداة ردع للأساطيل الأوروبية التي كانت تخشى منه .

واهتمت دولة اليعاربة بالاقتصاد والتجارة والصناعة وخاصة السفن والأسلحة وبناء الحصون والقلاع التي لا زالت تشهد بروعة وقوة فن العمارة العمانية الى يومنا هذا .

الخـــاتمـة :

بهذه الدراسة نكون قد درسنا عوامل سقوط الحكم البرتغالي ، وهي العوامل نفسها التي لعبت دورا في قيامها ، كسياسة البطش والقهر والتنكيل ، مما جعلها تحمل معها نهايتها وأثارت روح المقاومة الوطنية والجهاد .

وكذلك السيطرة التجارية الاحتكارية وعدم الاهتمام بالتطور الصناعي ، وعدم مسايرة التغيير نحو الاقتصاد الرأسمالي وقيام الشركات الاحتكارية .

كل ذلك اضافة الى التعاون الانجلو ـ هولندي أدى لتقليص النفوذ البرتغالي، والهزائم التي منيت بها الأساطيل البرتغالية من الأسطول الهولندي في المحيط الهندي والبريطاني في جزيرة «هرمز».

وأخيرا سقوط الحكم البرتغالي نهائيا على أيدي «اليعاربة» الذين اهتموا ببناء السفن وصناعة الأسلحة وتطوير الاقتصاد في آن واحد، برغم الامكانيات الذاتية المتواضعة ، ولكن بعزيمة وإرادة قوية ذللت الصعاب مع

ثبات الحكم السياسي الديمقراطي القائم على الانتخاب ، مع الالتزام بشرعية الاسلام وحكم الامامة الذي

يجمع السلطة الزمنية والروحية أي السياسة والدين معا كما كان في عهد الخلفاء الراشدين .

كل ذلك كان من أسباب نجاح وقوة دولة اليعاربة ، ونحن اليوم ما أحوجنا الى مثل ذلك ، وخاصة بناء الاقتصاد الاسلامي والصناعة العسكرية الحديثة .

الدكتور محمد حسن العيدروس
جامعة الامارات العربية المتحدة
كلية الآداب ـ قسم التاريخ

الهوامش

١) د. احمد بوشرب ـ مجلة الخليج العربي ـ العدد (١) عام ١٩٨٩ ص ١٤٠ .
٢) د. جلال يحيى ـ العالم الاسلامي الحديث والمعاصر ـ ص ٤٠٥ .
٣) عبدالقادر عبدالله العيدروس ـ النور السافر ـ ٢٧٢ .
٤) د. صلاح العقاد ـ التيارات السياسية في الخليج العربي ـ ص ١٤ .
٥) د. بدالدين عباس الخصوصى ـ دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ـ جـ ١ ـ ص ١٤ .
٦) د. خلدون النقيب ـ المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية ـ ص ٦٤ ـ ٦٦ .
٧) د. جمال زكريا قاسم ـ الخليج العربي عصر التوسع الأوروبي الأول ـ ص ٧٣ .
٨) د. خلدون النقيب ـ المرجع السابق ـ ص ٦٦ .
٩) د. خلدون النقيب ـ نفس المرجع ـ ص ٦٦ .
١٠) بكنجهام ـ بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان «حصاد» ندوة الدراسات العمانية جـ ٦ ـ ص ٢٠١ .
١١) د. جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص ٩١ .
١٢) س. بوكسر ـ «حصاد» . ندوة الدراسات العمانية ـ ص ٢١١ ـ جـ ٦ .
١٣) د. عبدالأمير محمد أمين المصالح البريطانية في الخليج العربي ـ ص ١٠ .
١٤) د. خالد العربي ـ الخليج العربي في ماضيه وحاضره ـ ص ٢٧ .
١٥) د. بدر الدين عباس الخصوصي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٨ .
١٦) د. حسن ابراهيم ـ ندوة تاريخ شرق الجزيرة العربية ـ ص ٨٨٩ .
١٧) عباس العصفور ـ بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ـ ص ١٣٣ .
١٨) عباس العصفور ـ نفس المرجع ـ ص ١٣٣ .
١٩) سليم طه التكريتي ـ المقاومة العربية في الخليج العربي ـ ص ٥٥ .
٢٠) جون ـ بي ـ كيلي ـ تاريخ الخليج ـ ص ١٨ .
٢١) د. بدر الدين عباس الخصوصي ـ ص ٢٨ .
٢٢) سي ـ بوكسر ـ المرجع السابق ـ ص ٢٠٦ .
٢٣) د. خلدون النقيب ـ المرجع السابق ـ ص ٦٦ .
٢٤) Bernarda Grun - The Timetable of History - P. 256 .

٢٥) د. هيفاء عبدالعزيز الربعي ـ غزاة في الخليج العربي ـ ص ٢١ .
٢٦) ج. ـ ج ـ لوريمر ـ دليل الخليج ـ جـ ١ ـ ص ٢٠ .
٢٧) د. خلدون النقيب ـ المرجع السابق ـ ص ٦٧ .
٢٨) ج. ـ ج ـ لوريمر ـ المرجع السابق ـ ص ٢٢ .
٢٩) محمد عدنان مراد ـ صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي ـ ص ١٣٥ .
٣٠) سليم طه التكريتي ـ المرجع السابق ـ ص ٥٥ .
٣١) د. عبدالأمير محمد أمين ـ المرجع السابق ـ ص ١٠ .
٣٢) د. خلدون النقيب ـ المرجع السابق ـ ص ٦٨ .
٣٣) د. عبدالأمير محمد أمين المرجع السابق ـ ص ١٦ .
٣٤) Lawrence Lockhart - Famous Cities of Iran . P. 106
٣٥) د. عبدالأمير محمد أمين ـ المرجع السابق ـ ص ١٦ .
٣٦) د. بدر الدين عباس الخصوصي ـ المرجع السابق ـ ص ٣٢ .
٣٧) أمين سعيد ـ الخليج العربي ـ ص ٣٠ .
٣٨) حميد بن محمد بن رزيق ـ الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيدين ـ ص ٢٦٣ .
٣٩) حميد بن محمد بن رزيق ـ نفس المرجع ـ ص ٢٦٣ .
٤٠) د. عبدالأمير محمد أمين ـ بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ـ ص ٦٥٢ .
٤١) د. عبدالأمير محمد أمين ـ نفس المرجع ـ ص ٦٥٢ .
٤٢) عائشة السيار ـ دولة اليعاربة ـ ص ٥٤ .
٤٣) عائشة السيار ـ نفس المرجع ـ ص ٥٤ .
٤٤) عبدالله بن خلفان بن قيصر ـ سيرة الامام ناصر بن مرشد ـ ص ٦٣ .
٤٥) سليمان محمد الغنام ـ ندوة مصادر تاريخ الجزيرة العربية ـ حـ ٢ ـ ص ١١٨ .
٤٦) سليمان محمد الغنام ـ نفس المرجع ـ ص ١١٨ .
٤٧) عبدالله بن خلفان بن قيصر ـ المرجع السابق ـ ص ٦٦ .
٤٨) د. عبدالأمير محمد أمين ـ بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ـ ص ٦٥٤ .
٤٩) بكنجهام ـ المرجع السابق ـ ص ٢٠١ .
٥٠) بكنجهام ـ نفس المرجع ـ ص ٢٠١ .
٥١) Charles Belgrave - The Pirate Coast - P. 14.
٥٢) عائشة السيار ـ المرجع السابق ـ ص ٥٨ .

المراجع

أولا : المصــادر :

١) حميد بن محمد بن رزيق ـ الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيدين ـ وزارة التراث القومي والثقافة ـ مسقط ١٩٨٠ .

٢) عبدالله بن خلفان بن قيصر ـ سيرة الامام ناصر بن مرشد ـ وزارة التراث القومي والثقافة ـ مسقط ١٩٨٠ .

٣) عبدالقادر عبدالله العيدروس ـ النور السافر ـ القاهرة ـ ١٠١٣هـ .

ثانيا : المراجع :

١) أمين سعيد ـ الخليج العربي ـ دار الكاتب العربي ـ بيروت .

٢) بدر الدين عباس الخصوصي (دكتور) ـ دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ـ ذات السلاسل ـ الكويت ١٩٨٤ .

٣) جون ـ ب ـ كيلي ـ بريطانيا والخليج ـ وزارة التراث القومي والثقافة ـ مسقط .

٤) ج ـ ج ـ لوريمر ـ دليل الخليج ـ القسم التاريخي ـ ترجمة وطباعة دولة قطر ـ الدوحة .

٥) جمال زكريا قاسم ـ (دكتور) ـ الخليج العربي عصر التوسع الأوروبي الأول ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٨٥ .

٦) جلال يحيى ـ (دكتور) ـ العالم الاسلامي الحديث والمعاصر ـ المكتب الجامعي الحديث ـ الاسكندرية ١٩٨٢ .

٧) خالد العربي (دكتور) ـ الخليج العربي في ماضيه وحاضره ـ دار الجاحظ ـ بغداد ١٩٧٢ .

٨) خلدون النقيب ـ (دكتور) ـ المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ١٩٨٧ .

٩) سليم طه التكريتي ـ المقاومة العربية في الخليج العربي ـ وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الرشيد ـ بغداد ١٩٨٢ .

١٠) صلاح العقاد ـ (دكتور) التيارات السياسية في الخليج العربي ـ مكتبة الانجلو ـ المصرية ـ القاهرة ١٩٧٤ .

١١) عبدالأمير محمد أمين (دكتور) ـ المصالح البريطانية في الخليج العربي ـ مركز

دراسات الخليج العربي - روي - مسقط ١٩٨٣ .
١٢) عائشة السيار - دولة اليعاربة - وزارة الاعلام - دولة الامارات العربية المتحدة - ابوظبي ١٩٧٥ .
١٣) محمد عدنان مراد - صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي دار دمشق ١٩٨٤ .
١٤) مصطفى عقيل الخطيب - التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٢٢ - ١٧٦٣ - المكتبة العربية - بيروت ١٩٨١ .
١٥) هيفاء عبدالعزيز الربيعي - (دكتور) - غزاة في الخليج - دار الكتب للطباعة والنشر - جامعة الموصل ١٩٨٩ .

ثالثا : الدوريات العربية وبحوث الندوات :

١) احمد بو شرب - (دكتور) - مجلة الخليج العربي - العدد (١) - السنة ١٩٨٤ .
٢) بكنجهام - بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان - ندوة الدراسات العمانية «حصاد» جـ ٦ وزارة التراث القومي والثقافة - مسقط ١٩٨٠ .
٣) حسن ابراهيم - (دكتور) - ندوة تاريخ شرق الجزيرة العربية - لجنة التاريخ - الدوحة ١٩٧٦ .
٤) س. بوكسر - ملاحظات جديدة عن الصلات العمانية والبرتغال - ندوة الدراسات العمانية - حصاد - جـ ٦ - وزارة التراث القومي والثقافة - مسقط ١٩٨٠ .
٥) سليمان محمد الغنام - (دكتور) - بحوث مقدمة الى ندوة مصادر تاريخ الجزيرة العربية - الجزء الثاني - قسم التاريخ - جامعة الرياض ١٩٧٩ .
٦) عباس العصفور - بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ١٩٧٣/٣/٢٥ - منشورات وزارة الاعلام - العراق - بغداد ١٩٧٩ .
٧) عبد الامير محمد أمين (دكتور) بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ١٩٧٣/٣/٢٥ منشورات وزارة الاعلام - العراق - بغداد ١٩٧٩ .

رابعا : المراجع باللغة الانجليزية :

(1) Bernarda Grun - The Timetable of History - A Touchstone Book - New York 1979
(2) Charles Belgrave - The Pirate Coast - Librairie De Liban - Beirut, 1972
(3) Lawrence Lockhart - Famous Cities of Iran - Published Walter Pearce & Co. Brentford - Middlesex 1939

طريقُ الشام

إلى مَكة المكرّمة

مُنذ قرنٍ ونصف قرن

حرصا من «الوثيقة» على تقديم المادة الخام التي تفيد الباحثين فإننا نقدم على الصفحات التالية الوثيقة رقم ٢٧ من محفظة بحر برا بتاريخ ٢٧ صفر ١٢٥١هـ ـ ١٨٣٥م وهي من وثائق أرشيف محمد علي . وتتضمن تقريرا كاملا عن القلاع وآبار المياه التي كانت موجودة على الطريق بين دمشق ومكة المكرمة . وقد حرصنا على تقديم الوثيقة دون أي تدخل أو تعليق أو حتى تصحيح لغوي ليستفيد منها الباحثون الذي يعالجون موضوعات قريبة من هذا المجال وان كان هذا لا يمنعنا من الاشارة الى ان الوثيقة تقدم صورة لواقع عمره اكثر من قرن ونصف القرن هذا الواقع تغير اليوم تماما فأصبح الطريق أو الطرق الى مكة المكرمة من أحدث الطرق في العالم وأصبحت الخدمات التي تقدمها المملكة العربية السعودية بتوجيهات خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز مضرب المثل في البذل والانفاق .

الوثيقة

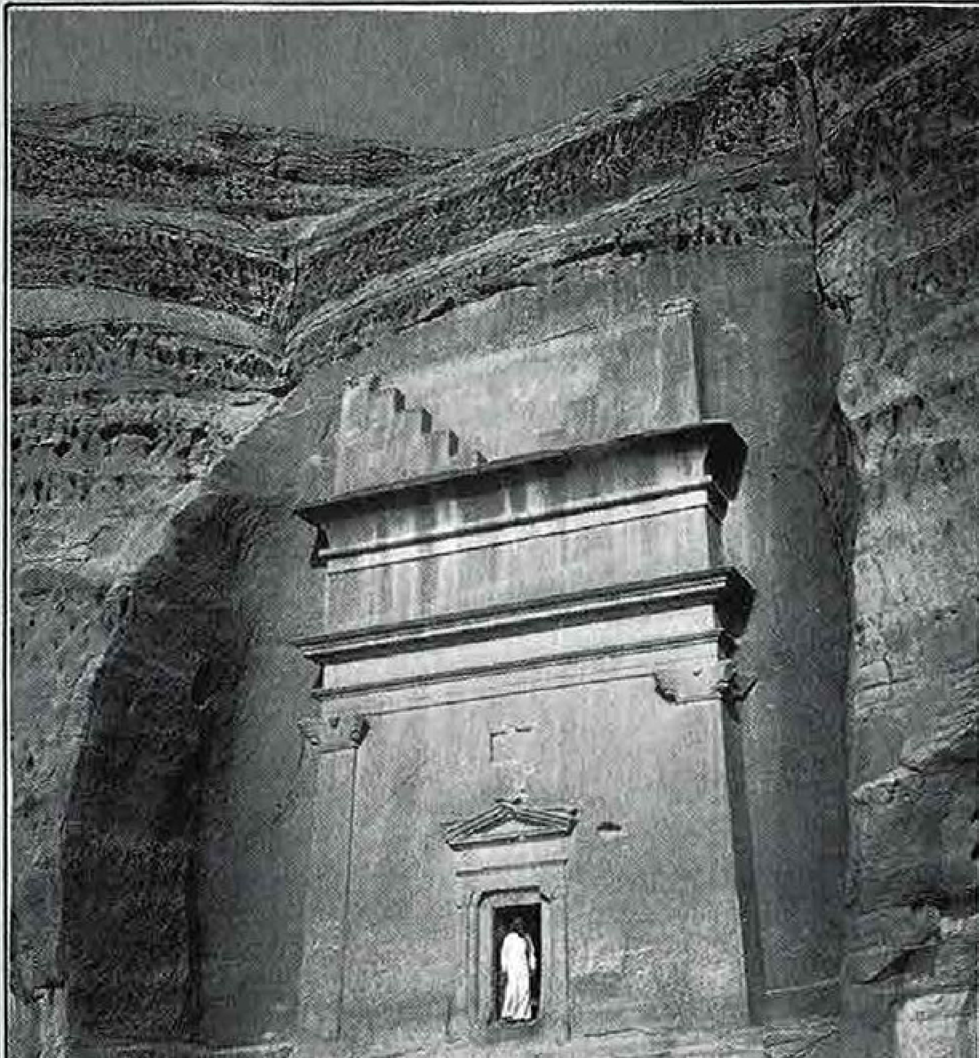


تقرير ناطق بالاصلاحات والترميمات اللازمة للقلاع وبرك المياه الموجودة في المراحل والمنازل الواقعة في الطريق بين «دمشق الشام» و«مكة المكرمة» التي تمت معاينتها على قدر المستطاع نزولا على ارادة حضرة الباشا السر عسكر وامتثالا لأمره .

إن المياه الموجودة في مرحلة المزيرب ، هي عبارة عن بحيرة متجمعة في خمسة أو عشرة ينابيع والمياه فيها متوفرة ، وليس ثمة أي ضيق من ناحية الماء هناك وجميع جهات البحيرة في غنى عن الترميم .

مرحلة الرمثة

هذه المرحلة على مسافة أربع ساعات من المزيرب . وهناك على بعد ربع ساعة منها بركة مربعة الشكل مبنية بالحجر مكانها في بطن وادٍ ، وهي حديثة



مدائن صالح

البناء ولا تحتاج الى ترميم ما . وبجوار هذه البركه فجوة محفورة في الصخر على شكل بركة تحفظ فيها المياه ومن البداهة ان الأمطار متى هطلت تسربت الى هذه الفجوة ولم تذهب سدى على أن هاتين البركتين قد غمرهما الوحل ، والتراب الى نصفيهما . وعلى ما يُظن ان الأمطار لم تهطل بكثرة في هذه السنة حول هذه المرحلة أو ان الأمطار نزلت قليلا ولكن التراب الذي طمر نصفيهما قد امتص الماء الذي تسرب اليهما فكان سببا في انعدامه فيهما . ولما كانت هذه المرحلة على بعد أربع ساعات من المزيرب وحولها قرى أخرى غيرها فإنه لمن الممكن تطهيرها من الوحل والتراب في مدة يوم أو يومين بواسطة مائتي عامل ومتى كُشف قعراهما بعد عملية التطهير واتضح ان فيهما أي خلل أمكن اصلاحه بسهولة وقد حملنا الماء معنا من المزيرب حتى عين الزرقاء نظرا لانعدام الماء هنا .

عين الزرقاء

هذه المرحلة تبعد مسافة ٢٤ ساعة عن المزيرب وهي كثيرة المياه ويمر فيها مجرى نهر عين الزرقاء ، وماؤها طيب للغاية وقد نبتت حوله أشجار الزقوم والغابة بكثرة . وهذه المرحلة تقع بين جبلين وفيها قلعة أشرفت على الانهدام وقد رُفع لأعتاب الحكمدار أمر اصلاحها .

البلقاء

على بُعد ١٤ ساعة من عين الزرقاء تقوم على الطريق قلعة تسمى البلقاء وهذه القلعة مربعة الشكل مبنية بالحجر طول كل ضلعة من أضلاعها ٣٥ ذراعا معماريا وهي جيدة البناء وقد أنشىء بداخلها بعض الغرف إلا أن واحدة أو اثنتين منها قد تهدمت كليا بينما بقية الغرف في حاجة الى الترميم أيضا ، كما أن ركنا من أركان هذه القلعة قد انشق عن البناء وأشرف على السقوط حيث يقتضي ترميم هذا الركن أيضا . وقد حفر بئر بداخل القلعة لتوفير الماء لشروب المأمور الذي يعين للمحافظة عليها . ويؤتى بالماء لهذه البئر بواسطة القرب من البركة الموجودة خارج القلعة . بيد أنه يقال ان قعر البئر قد أصيب بتلف حيث أخذت المياه التي تصب فيه تضيع سدى .. وبما أن هذه البئر ضرورية لحياة محافظيها فلا بد والحالة هذه من ترميم قعرها وقد بنيت بركتان خارج هذه القلعة ليشرب منهما الحجاج ولكن أسفلهما قد تشقق وأصبحت المياه التي تتجمع فيهما من الأمطار تغور في الأرض وقد تطرقت الوحول بكثرة الى هاتين البركتين وأصبح لا مندوحة عن تطهيرهما . وقد كان في هاتين البركتين عند مرورنا بهما نحو ذراعين من الماء ، ولما عدنا

اليهما ، وكانت الأمطار قد هطلت بكثرة وامتلأت البركتان حتى حافتيهما بالماء ، لم نجد فيهما سوى ثلاثة أذرع ، وذلك يرجع الى ما فيهما من خلل . وخلاصة القول ان هاتين البركتين لا تحتاجان لغير الترميم إذ ان بناءهما متين ، فإذا ما أزيلت الوحول المتراكمة فيهما ، وتم اصلاحهما جيدا بحيث لا تغور المياه التي تتجمع فيهما ، فسوف لا تكون هناك أية مشقة من ناحية الماء في تلك المرحلة ، ويتوفر الماء للحجاج فيهما مدة سنتين . وهناك بركة أخرى طولها ٥٠ ذراعا معماريا وعرضها ١٠ أذرع وعمقها ٥ أذرع وهي مستطيلة الشكل وليس في بنائها أي خلل ولكنها تحتاج الى تطهيرها من الوحول ، وترميمها والخلاصة ان الأمر يستدعي تخصيص أوسطة ماهر لهذه القلعة يتولى ترميم واصلاح بعض نواحيها ، حتى اذا ما تم ذلك وطهرت البرك من الوحول ورُممت ، توفر الماء للحجاج وسواهم وكان ذلك سببا في توفير الراحة والرفاهية للناس .

القطـــرانة

اسم يطلق على قلعة قائمة في الطريق على بعد ١٢ ساعة من البلقاء . وهذه القلعة مربعة الشكل طول كل ضلع من ضلوعها ٣٥ ذراعا معماريا . وليس في بنائها أي خلل إلا أن العنبر الموجود بداخلها ، المخصص لخزن المؤنة قد تخرب ولا بد من اصلاحه كما ان الغرف التي يقيم فيها المحافظ قد تهدمت وهي أيضا في حاجة الى الأصلاح ، والحجارة اللازمة لهذه العملية متوفرة ولا تحتاج لغير الجير وهذا ممكن جلبه من معان ، وفي خارج القلعة ، بركة كبيرة ، مربعة الشكل طول كل ضلع من أضلاعها ١٠٠ ذراع معماري وعمقها ٢٠ ذراعا وهي سليمة البناء وانما في حاجة الى «التلييس» بعد تطهيرها مما تجمع بها من الوحول .. وقد فهم من كلام محافظ القلعة انه لا ينقص ماء هذه البركة ، في مدة شهر سوى شبرين فهي والحالة هذه كبيرة جدا وعند عودتنا ألفينا مياه هذه البركة لم تنقص سوى شبر واحد ، على الرغم مما صرف منها من الماء الكثير للحجاج والحيوانات ، وقد ظلت فيها مقادير عظيمة من المياه فإذا ما تم «تلييسها» جيدا فإن ماؤها سيفي بالحاجة لمدة بضع سنين . وبما ان قسما من مجرى السيل الذي يصب في هذه البركة يمر بمحاذاة حافة البركة فقد أقيم هناك سد من الحجارة طوله ٣٠٠ ذراع . كما حفر بئران الواحد خلف الآخر في طريق قناة الماء ، حتى لا تتسرب الوحول التي تحملها السيول الى البركة وحتى يصفى الماء فيهما قبل وصوله الى البركة . فإذا ما نزلت السيول انحدرت في بادىء الأمر الى البئر الأول وبعد أن يمتلىء هذا البئر تسيل المياه الى البئر الثاني حيث يصفى الماء فيهما

ثم ينحدر الى البركة. على أن السيول التي انحدرت قديما كانت من الشدة بحيث اجتاحت نحو ٣٠ ذراعا من السد الأنف الذكر وهدمته . وبما ان السد الذي تهدم من جراء السيول ابان المطر ، يقع على حافة البركة فإن المياه أخذت تتسرب الى خارجها حيث يضيع أكثرها سدى ولذا فإن البركة لا تمتلىء تماما فإذا لم يشرع في اعادة بناء السد الذي تهدم ، في الوقت المناسب وحدث أن انحدرت سيول شديدة - حفظنا الله تعالى - فمن المحتمل ان تهدم السيول ما تبقى من أجزاء السد . إذ ان انهدام بقية السد سيعطل البركة ويضر بالحجاج سيما وان عودة الحجاج ستكون في ابان الصيف فيضطر الناس الى حمل الماء والحرص عليه مسافة ٣٠ أو ٤٠ ساعة فلابد والحالة هذه من اصلاح السد لوقاية الحجاج من هذه التهلكة .

الحســـا

اسم يطلق على قلعة تقع في الطريق على مسافة ١٥ ساعة من القطرانه وهذه القلعة مربعة الشكل مبنية بالحجر طول كل ضلع من اضلاعها ٥٠ ذراعا معماريا وقد انشق ركنان من اركانها بتأثير الزلزال الذي وقع قديما وأشرفا على السقوط ولئن تم «تلبيسهما» في السنة الماضية فإن ذلك لم يجد نفعا فإذا أهمل أمرهما ووقعا فإن اعادتهما الى حالتهما الأصلية تتطلب مصروفات كثيرة . وقد حفر بئر لتوفير الماء للبركة الموجودة داخل القلعة ، تجاه المكان الذي خصص لاقامة قلعة أخرى هناك وأقيمت على هذا البئر ساقية تدار بواسطة البغال والى جانبي البئر نصب عمودان من الحجارة لترتكز عوارض الساقية عليهما وقد أشرفا على الخراب ولا بد من اصلاحهما تفاديا لتعطل البركة ، وهناك خارج القلعة بركة مربعة الشكل طول كل ضلع من أضلاعها ٤٠ ذراعا ، وهي تغذي بالماء من الساقية الموجودة داخل القلعة وهذه البركة سليمة البناء ويقع بجوار القلعة ، في الطريق ، وادٍ عظيم تسيل فيه المياه إبان المطر ، ولا يمكن بأي حال اجتياز هذا الوادي عند جريان السيول فيه وقد أقام عليه فاعل خير قنطرة ضخمة إلا ان السيول الشديدة قد خربت من المباني الجانبية لهذه القنطرة نحو ٤٠ ذراعا فإذا ما صادف مرور الحجاج في هذه الجهة ، حين انحدار السيول فلا يتاح لهم اجتياز الوادي بأية صورة ولما كان لابد من اصلاح هذه القنطرة فقد عرض أمرها على أعتاب الحكمدارية فأوفدت العمال والاسطوات الى هناك حيث رمموا وأصلحوا النواحى التي كانت في حاجة الى الاصلاح في القلعة ، والقنطرة . بيد ان الطريق المارة من امام القلعة والتي تكتنف القنطرة من جانبها أي التي يسلكها الحجاج وطولها نحو ١٥٠٠ ذراعا ، أديمها عبارة عن تراب

ناعم كالدقيق في بياضه ونعومته ومن البداهة ان الحجاج إذا ما مروا في هذه المنطقة إبان هطول الأمطار سيعانون متاعب جمة ويتضررون كثيرا ، وقد فهمت مما سمعته من أهل الخبرة ان الحجاج قد وصلوا في احدى السنين الى هذه الرقعة من الأرض ابان نزول الأمطار ولم يتمكنوا من اجتيازها إلا بعد ان لاقوا من المشاق الشي الكثير ومنوا بأضرار فادحة ومات من جمالهم عدد وفير ، وبعد ان قضوا في اجتياز هذه الرقعة من الأرض التي لا يبلغ طولها أكثر من ١٥٠٠ ذراعا ، يوما كاملا . ومن الملحوظ في حالة ما اذا كان هطول المطر شديدا ان يتعذر مرور الحجاج في هذه الرقعة كليا ، إذ ان هطول الأمطار على هذه الطبقة الناعمة من التراب تجعل قوائم الجمال تغوص حتى الركب ، فلو رصفت هذه الرقعة من الأرض التي هي عبارة عن ١٥٠٠ خطوة ، حفظا للحجاج من التهلكة لكان في ذلك نعم العمل الخيري ، وللهجت ألسن الحجاج بخير الدعاء ولوازم هذا المشروع متوفرة لأن الحجارة مبذولة في مكان قريب من هذه الرقعة ومن الميسور أيضا أن يؤتى باللوازم الأخرى من معان .

ظهـــر العنيـزة

اسم لقلعة تقع في الطريق على بعد ١٠ ساعات من قلعة الحسا وهي مربعة الشكل مبنية بالحجر طول كل ضلع من أضلاعها ٥٠ ذراعا معماريا . وقد تهدم بابها ، والغرف التي بداخلها كما تهدم البناء العلوي منها ولذا فإن محافظها لا يقيم فيها وقد علمت من التحقيقات التي قمت بها أن هذه القلعة قد ظلت متهدمة كما هي منذ مدة طويلة وعلى مسافة مرمى الرصاص من القلعة توجد بركة مربعة الشكل طول كل ضلع من أضلاعها ٥٠ ذراعا معماريا وقد كان بها نحو ثلاثة أذرع من الماء وهي مغمورة بالوحول الى نصفها وقد تآكلت «مونتها» من الداخل ولذا فإن مياه الأمطار التي تتسرب اليها سرعان ما تتلاشى وعلى ما أظن ان هذا المكان [القلعة] لم يتخذ منزلا من منازل الطريق وان المسافر يسير حتى معان ، وهذا ما أدى الى عدم اصلاح هذه القلعة حتى الآن على ان اصلاح حالة هذه القلعة لا يخلو من الفائدة إذ قد يصادف أن يعود الحجاج في وقت الصيف وتكون حاجتهم الى الماء شديدة كما ان ترك هذه القلعة على ما هي عليه من الخراب سيؤدي الى اضمحلالها كليا .

معـــان

اسم لمرحلة تقع على مسافة ١٠ ساعات من قلعة ظهر العنيزة وتقوم على

هضبتين هناك قريتان الواحدة تجاه الأخرى مبنيتان بالطوب النيء على شكل القلاع وهذه المرحلة ، بالنسبة الى البادية ، معمورة وينتج فيها من أنواع الفاكهة الرمان ، والسفرجل ، والتين . وتوجد بجوار احدى هاتين القريتين في بطن وادٍ هناك عدة ينابيع صغيرة كما يوجد في القرية الثانية عدة آبار تقع بينها بركة ماء طولها ٣٥ ذراعا معماريا وعرضها ٢٥ ذراعا وعمقها ١٥ ذراعا تغذى بالماء من الآبار بواسطة الشواديف وليس ثمة أية ضايقة والحمد لله من ناحية الماء في هذه المرحلة .

قلعة العقبة

هذه القلعة تقع على مسافة ١٥ ساعة من معان ، وهي بعيدة عن الطريق مبنية بالحجر ، مربعة الشكل طول كل ضلع من أضلاعها ٣٥ ذراعا معماريا ونظرا لأن بابها قد تهدم فقد كتب الى شيوخ معان بشأن ارسال العمال والجير اللازم لاصلاحه ، وفي عودتنا الى هذه القلعة كان قد تم اصلاح الباب . وليس ثمة أي تهدم في بناء القلعة السفلي ولكن البناء العلوي في حاجة الى الاصلاح وتقوم الى جانب هذه القلعة بركتان طول كل منهما ٤٠ ذراعا والعرض ٣٠ ذراعا ، والعمق ١٠ أذرع معمارية ، وعلي ما قيل ، لم يكن فيهما ماء في السنة الماضية ولكن في هذه السنة المباركة قد تجمع فيهما نحو ذراع ونصف من الماء بيد اننا عندما عدنا اليهما لم نجد فيهما أي كمية من الماء إذ ان [التجريدة] قد نزلت في هذه الجهة واستنفدت ما فيهما من الماء .

وهاتان البركتان لا تحتاجان الى اصلاح ما ، ونظرا لأن الوحول قد غمرتهما الى نصفيهما وكان ذلك (سببا) في ضياع الماء فيهما فإنه يقتضي تطهيرهما من الوحول وذلك ميسور إذ من الممكن جلب العمال من معان لهذه العملية .

قلعة المدورة

تقع هذه القلعة على مسافة ١٤ ساعة من قلعة العقبة ومكانها في الطريق وهي مربعة الشكل مبنية بالحجر طول كل ضلع من أضلاعها ٣٠ ذراعا معماريا وليس فيها ما يحتاج الى الترميم وقد بني تجاهها بركة مستطيلة الشكل طولها ٥٠ ذراعا معماريا وعرضها ٣٠ ذراعا ، وبداخل هذه البركة عدة ينابيع صغيرة وقد جعل لهذه البركة قناة يسيل فيها الماء من هذه البركة الى البركة الأخرى القائمة الى جانب الناحية الثانية من القلعة وهذه البركة مستطيلة الشكل ، طولها ٤٠ ذراعا وعرضها ٢٥ ذراعا معماريا وقد القينا فيها ثلاثة أذرع من الماء عند وصولنا الى هناك . وبما ان المنطقة الواقعة فيها

البركة ذات الينابيع تكتنفها الرمال ، فإن الرياح عندما تعصف تحمل الرمال الى هذه البركة وتسد ينابيعها فيقل الماء فيها .. حتى اننا عندما عدنا الى هذه المرحلة عانينا بعض الضيق من ناحية عدم كفاية الماء الموجود في البركة الثانية إذ ان الرمال غمرت الينابيع وقل نبع الماء منها . وقد كلفنا عمال مجاري الماء الذين أتوا مع الحملة لترميم بركة مداين صالح بالكشف على هذه البركة فقرروا ان قناة الماء التي بين البركتين ـ والمسافة بينهما نحو ٤٠٠ خطوة ـ قد تهدمت فحال تهدمها دون جريان الماء اليها من البركة الأولى وان القناة برمتها تحتاج الى الترميم والاصلاح وانه ربما أمكن اصلاحها في خلال شهر واحد بواسطة أربعة أنفار من عمال مجاري الماء وعشرة كلاسين وخمسين عاملا وخلاصة القول اننا عانينا الضيق الشديد من ناحية الماء عند عودتنا الى هذه المرحلة ولا بد والحالة هذه من الشروع في اصلاح وترميم هذه البركة وتفرعاتها في الوقت المناسب حيث يقتضي تخصيص [عمال مجاري الماء] لهذه العملية من الشام وارسال العمال الآخرين من معان ، كما ان الأمر يستدعي اقامة سور حول البركة ارتفاعه ذراعا للحيلولة دون الرمال التي تحملها الرياح الى البركة .

قلعة دار الحج

اسم يطلق على قلعة تقع على مسافة ١٤ ساعة من قلعة المدورة وهي مبنية بالحجر ، مربعة الشكل ، طول كل ضلع من أضلاعها ٤٠ ذراعا معماريا وليس فيها ما يحتاج الى الاصلاح والترميم ، وخارج هذه القلعة ، بركة مستطيلة الشكل طولها ٦٠ ذراعا وعرضها ٣٥ ذراعا وعمقها ١٠ أذرع معمارية وقد كان فيها عند وصولنا اليها ثلاثة أزرع من الماء ، وهي سليمة البناء ولا تحتاج الى الترميم بيد أن الرمال التي تحيط بالبركة قد تسربت مع الرياح اليها وغمرتها الى نصفها .. حيث يقتضي تطهيرها من هذه الرمال فلو أقيم حول هذه البركة سور بارتفاع ذراع ليحول دون تسرب الرمال اليها لتوفر الماء فيها بكثرة . لأن الماء لا يتجمع في هذه البركة من الأمطار وانما من ماء ينبوعين ، أحدهما ينبع من حافة هضبة تبعد مسافة نصف ساعة عن القلعة ، وتجري مياهها في قناة حتى تصب في هذه البركة وماء هذا النبع ليس بالكثير، والنبع الآخر ينبع من مكان داخل القلعة ، وماء هذا النبع ليس بالكثير أيضا وهو يصب في البركة كالنبع الأول . ولو سالا الى البركة بطريقة حسنة لتوفر الماء في البركة . إذ ان البركة قد غمرت الى نصفها بالرمال وهذا قد أدى الى قلة وجود الماء فيها والماء المنحدر في القناة عندما يصل الى البركة يصطدم بهذه الرمال التي تغمر نصف البركة فيتحول مجراه الى خارجها

فلو طهرت البركة والقناة مما تسرب اليهما من الرمال وأقيم سور حول البركة لمنع تسرب الرمال اليها ، بارتفاع ذراع لتوفر الماء في البركة وهان أمر الماء للحجاج .

قلعـة تبـوك

هي قلعة تقع على مسافة ٢٤ ساعة من ذات الحج ويطلق عليها ايضا اسم : [النخل العاصي] وقد بنيت بالحجر على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعها ٤٠ ذراعا معماريا وبجوارها قرية صغيرة مبنية بالطوب النيء ، وتجاهها ثلاث برك طول كل منها ٢٠ ذراعا وعرضها ١٠ أذرع معمارية وفي احدى هذه البرك نبع يسيل الماء منه الى البركتين الآخريين بعد فيضان الماء فيها . وتقوم حول القلعة الكروم والبساتين وقد غرس بداخلها أشجار الليمون والنخيل والتين والرمان والمشمش والخوخ كما تزرع فيها البامية والباذنجان وما اليهما من الخضر . وهذه البساتين تروى بماء البرك بعد أن تمتلىء . والماء مبذول في هذه المرحلة ولله الحمد .

قلعـة الأخضـر

هي قلعة تقع على مسافة ١٨ ساعة من قلعة تبوك وقد بنيت بالحجر على شكل مربع طول كل ضلع من اضلاعه ٤٠ ذراعا معماريا وهي سليمة البناء ولا تحتاج الى ترميم ما وقد بني في ماضي الأيام ، داخل القلعة بئر فوق نبع عمقه ٢٤ باعا والماء متوفر في هذا البئر ولا ينقص عمقه عن قامة الانسان ، على مر الأيام وماؤه طيب وقد سمعنا من سكان القلعة ان الماء يجري في هذا البئر وأنهم حين ينزلون فيه يشعرون بجريانه ، وقد اقيمت على البئر ساقية تدار بالبغال وكان عدد البغال ثلاثة ولكنها نفقت قبل ثلاثة أشهر ولذا فإن البركة لم تملأ كلها . وقد كتبنا الى حضرة صاحب الدولة «شريف باشا» بشأن شراء ثلاثة بغال وارسالها الى محافظ القلعة وموافاته ببغل على عجل مع الحملة حتى لا نعاني الضيق من ناحية الماء عند عودتنا الى هذه المرحلة .. فأرسلت البغال مع الحملة ، وهناك باتصال القلعة ، من الخارج بركة مستطيلة الشكل طولها ٣٠ ذراعا ، وعرضها ١٠ أذرع وعمقها ١٠ أذرع معمارية وهذه البركة لم تملأ بالماء نظرا لنفق البغال وهناك أيضا بركتان غير هذه البركة طول كل منهما ٣٠ ذراعا وعرضها ٢٠ ذراعا وعمقها ١٠ أذرع معمارية وهاتان البركتان قد ملئتا . بيد انه تجمع فيهما كمية من الرمال ولابد من تطهيرها . هذا ونظرا لوقوع البرك والقلعة في منطقة رملية ويكتنفها الجبل من الناحيتين ومكانها هناك في مضيق مسدود فإن الرمال

التي تحملها الرياح تتسرب الى البرك وقد أقيم سور حول البرك على ارتفاع ذراع ليحول دون تسرب الرمال اليها إلا أن بعض اجزاء هذا السور قد تخرب وأصبح في حاجة الى الترميم ولو لرفع علو هذا السور ذراعا آخر لحال دون تجمع الرمال في البرك كليا . إذ لو ظل هذا السور على ارتفاعه الحالي لاستمرت الحاجة الى تطهير البرك من الرمال التي تتسرب اليها . وقد تم تطهير هذه البرك من الرمال قبل بضع سنين وأزيلت الرمال منها والقيت خارجها ولكن الرياح حملتها مرة أخرى الى البرك من غير ان تضيع ذرة واحدة منها وربما اعادتها الى البرك مزودة بمقادير أخرى . وهذا ما يوجب التفكير في أمر هذا السور ، في الوقت المناسب ، وإيفاد أحد الاسطوات مع العمال لتعليته استدرارا لخير الدعاء من حجاج المسلمين . سيما وان الماء لم يصل الى البركة الكبيرة منذ بعض سنين ـ بحكمة الله ـ كما انها قد خلت من الماء في هذه السنة أيضا وقد احتفظنا بما لدينا من الماء ، الى حين وصولنا الى الغدير المسمى غدير أبو جنيد الكائن في الطريق على مسافة ٣٠ ساعة من هذه القلعة حيث تحقق لنا ان مياه الأمطار قد تجمعت في هذا الغدير، ولولا وجود الماء في هذا الغدير لاضطررنا الى الاحتفاظ بالماء حتى مداين صالح ، على بعد ٦٠ ساعة من الأخضر . وبما ان العودة ستكون في ابان الصيف حيث يحتاج المرء الى الماء الكثير فإن الماء الموجود في هذه البرك يكاد لا يزيد عن الحاجة . وهناك بركة أخرى غير هذه البرك الثلاث وهي مستطيلة الشكل طولها ٣٥ ذراعا وعرضها ١٥ ذراعا وعمقها ١٠ أذرع ولكنها متهدمة وفي حاجة الى الترميم .

قلعة بركة المعظم

هذه القلعة تقع في الطريق على مسافة ١٧ ساعة من قلعة الاخضر وقد بنيت بالحجر على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعها ٤٠ ذراعا معماريا ، وهي لا تحتاج الى ترميم ما وقد عمد محافظها الى طمر بابها بالتراب مخافة ان يخربه العربان اذ ان انعدام الماء هناك ادى الى عدم اقامة أحد فيها . وقد فهم من كلام المحافظ انه ابتاع في السنة الماضية قربة من الماء (بقبازية) وبما ان هذه الحالة لا تطاق فإن محافظ القلعة يقيم الآن بالأخضر .. فإذا ما تأخرت السيول في السنين القادمة فإن هذه القلعة ستضمحل نهائيا . وفي خارج هذه القلعة بركة مربعة الشكل متينة البناء طول كل ضلع من أضلاعها ١٠٠ ذراعا معماريا وهي متصلة بالقلعة وقد طمرت الى نصفها بالوحول ، ويظن ان عمقها نحو ٢٠ ذراعا إذ ان ارتفاعها أو عمقها من حافتها الى مستوى الوحول المتراكمة فيها نحو ١٠ أذرع وهي

سليمة من الخلل في الظاهر ، ولا بد من تطهيرها من الوحول حيث يكشف قعرها ويرمم بسهولة فيما لو كان فيه أي خلل . وقد فهم مما قاله المحافظ ان في قعرها بعض الخلل . وعليه اذا ما تم تطهيرها وترميمها وامتلأت بالماء بعناية الله تعالى فإنها تفي بحاجة الحجاج عدة سنين . وقد عمد أحد امراء الحج في السنين السابقة الى تطهير هذه البركة من الوحول والقى بالوحول الى جوانبها فكانت هذه الوحول المتراكمة على جوانب البركة سببا في منع السيول من تسربها الى البركة ، فلا بد والحالة هذه من ازالة الوحول المتراكمة بداخلها ، والقائمة على جوانبها ، وتثبيت الحجارة المتغلغلة فيها . هذا ولو أمطرت السماء مطرا شديدا وانحدرت السيول بكثرة فإنها تتطرق الى البركة . بيد ان السد الذي اقيم بمحاذاة مجرى السيل منعا لتسربه الى الخارج وطوله ٢٠٠ ذراعا قد تهدم في بعض نواحيه حيث يقتضي ترميمه هو الآخر .

الدار الحمـراء

هي قلعة دار الحمراء القائمة في الطريق على بعد ١٦ ساعة من البركة المعظمة وهي قلعة جيدة مربعة الشكل مبنية بالحجر طول كل ضلع من اضلاعها ٣٠ ذراعا . ونظرا لأن ماء الأمطار لم يصل الى البركة الموجودة هناك منذ عدة سنوات فإن محافظها يقيم بمداين صالح من جراء فقدان الماء وقد طمر بابها بالتراب حتى لا يسرقه العربان .. وهذا الباب يمكن تركيبه في مكانه بسهولة عند الحاجة والقلعة لا تحتاج الى الترميم وهناك باتصالها بركة ماء مربعة الشكل طول أضلاعها الأربعة ٩٠ زراعا معماريا [كل ضلع] وعمقها ٢٠ ذراعا ، تخمينا وهي متينة البناء وقد غمرت بالوحول الى نصفها ، واحيطت احدى زواياها بجدار ولكنه قد تهدم وتراكمت انقاضه في البركة ولابد من رفع هذه الأنقاض ، والوحول وتثبيت حجارتها المتقلقلة ، والمتهدمة . هذا وقد عمد أحد امراء الحج السابقين ـ بقصد نوال خير الدعاء من الحجاج في هذه الطريق ـ الى تطهير هذه البركة من الوحول ولكنه لم يدر حين القى بالوحول حول البركة انها ستكون سببا في صد السيول من الوصول الى البركة فينال اللعنة بدلا من خير الدعاء . إذ كان عليه أن يقذف الوحول الى مكان بعيد عن مجرى السيل . وقد عمد سواه من امراء الحج الى نفس الطريقة تخلصا من المضروفات الجمة التي يستلزمها نقل الوحول الى مكان بعيد ، وراح الخلف منهم يتبع السلف في هذه الطريقة حتى تراكمت الوحول حول البركة وتكون منها هضبات وقفت سدا دون وصول السيول الى البركة ،

ولا يوجد في هذه البركة سوى ركنان قد تتسرب منهما مياه السيول اليها فيما اذا كانت السيول قوية أما اذا كانت قليلة فلا تصل الى البركة ، فلا بد والحالة هذه من ازالة الوحول المتراكمة داخل البركة وخارجها واصلاح بعض نواحيها وقد شاءت حكمة الله ان لا تمطر السماء منذ عدة سنوات حول بركة المعظم . وهذه البركة ولئن كانت قد أمطرت فإن الموانع الآنفة الذكر قد حالت دون الانتفاع من المطر . ولو كان المطر قد انهمر مدرارا لما ضاعت الفائدة من السيول لأن مكان البركة يقع بين جبلين في مضيق . هذا والطريق بين قلعة الأخضر ومداين صالح يحدها من الناحيتين جبل صخوره سوداء ولما كانت هذه الطريق غير متسعة ، وكانت عودة الحجاج في ابان الحر ووهج الشمس ، فإن الماء اذا لم يكن متوفرا في هاتين البركتين فمن .. الملحوظ ان يعاني الحجاج الضيق والآلام من ناحية الماء وتنفق دوابهم ، وقد تصادف ان كان الجو رطبا ابان عودتنا حتى اننا لم نستنفد الماء الذي حملناه معنا .

مدائن صالح

قلعة مدائن صالح تقع على مسافة ٢٠ ساعة من الدار الحمراء وهي مبنية بالحجر على شكل مربع طول كل ضلع من اضلاعها ٢٥ ذراعا معماريا وليس بها ما يحتاج الى الترميم وبداخل القلعة نبع أقيمت عليه ساقية تدار بالبغال وتغذي البركة الموجودة خارج القلعة بالماء والقناة التي يجري فيها الماء الى البركة كانت قد تهدمت فحضر مع الحملة أحد عمال مجاري الماء ، وأصلحها . وقد رتب لتدوير هذه الساقية بغلان نفق أحدهما ، والآخر لا يصلح للعمل الآن وقد اتضح لنا من التحقيق الذي أجريناه ان [الأوطة باشية] يبيعون الشعير المخصص لهذين البغلين الأمر الذي أدى الى اضمحلالهما ، والبغل الموجود الآن لم يصل الى هذه الحالة إلا من جراء الجوع على ان [الأوطة باشية] لم يجدوا سبيلا الى نفي ذلك وهم يعتذرون ، بأنهم يتسلمون من الشام المئونة وعليق الدواب ، لمدة سنة ثم يقومون بها بعد ان تحمل من قبل الميري كما هو المعتاد وعند وصولها الى القلاع لا يتولى الميري توزيعها وانما تنقل بواسطة العربان من قلعة الى أخرى [الأصل هنا مضطرب] حيث تنقص مقاديرها في الطريق ونظرا لأن القلاع تقع في البيداء ولا يتيسر شراء أي شيء بدلا عما نقص من المئونة والعليق فإن الدواب تفتقر الى العليق ومن ثم تنفق والواقع انهم محقون في قولهم هذا كما هو ظاهر لأننا نحن أيضا قد جربنا ذلك فلو تولت الحكومة نقل المئونة المرتبة للقلاع

وسلمتها لأصحابها بنفسها لوضعت حداً لقيل وقال [الأوطة باشية] ولما ضاعت المؤونة وتلفت الدواب . هذا وقد اشترى بغلا بدل البغل النافق وترك في القلعة أما البغل الهزيل فقد أعطى [للأوطة باشي] وأخذ منه ، بدلا عنه بغلا قويا ، عقابا له على تجويعه لذاك البغل وحتى لا يعود الى مثل ذلك ، وعبرة لسواه ، حيث أصبح في القلعة بغلان كالسابق. وقد شاهدنا خارج القلعة . وباتصالها بركة ماء مربعة الشكل طول كل ضلع من أضلاعها ٣٠ ذراعا معماريا وعمقها ١٠ أذرع وهي تغذى بالماء بواسطة تلك الساقية ، وحول البركة توجد ٧ آبار للماء يستعمل ماؤها عند الحاجة وليس ثمة أي ضيق من ناحية الماء في هذه المرحلة ولله الحمد ولا يوجد أي بناء سوى القلعة هنا . إلا انه نظرا لقرب هذه المرحلة من [العلى] فإن الأهالي يأتون اليها بالليمون الحلو والحاذق والطرنج وبلح بالجق وبعض أنواع المأكولات الأخرى المعروفة هناك ويبيعونها للحجاج .

بئـــر الزمـــرد

قلعة بئر الزمرد تقع على مسافة ٣٠ ساعة من مداين صالح وهي مربعة الشكل مبنية بالحجر ، وبداخلها بئر يُرفع منه الماء بواسطة البغال على ان حكمة الله شاءت ان ينفد ماء هذا البئر منذ عدة سنين حيث تعطلت القلعة وانقطع الحجاج عن النزول في هذه المرحلة . وقد اتضح لنا ان قعر هذا البئر عبارة عن صخر وان الماء ينبع من هذا الصخر وانه لو تم فلق الصخر لعادت المياه الى التفجر - حسبما فهمناه - وقد عمد أحد امراء الحج الى استقدام أحد الخبراء من الشام وحطم هذا الصخر إلا أن ذلك لم يجد نفعا ولم ينفجر الماء على انه من المناسب ان يعهد الى أحد الخبراء بمجاري المياه بالكشف على هذا البئر وعلى ما أظن ان هذا البئر لا يحتوي على نبع وانما نظرا لأن الأرض التي تحيط به رملية والرمل يتشرب مياه الأمطار التي تتساقط وتتسرب الى هذا البئر بالنسبة لبعد غوره . فهناك بجوار القلعة بئر عميق حفر في وسط الرمال ، قد تجمعت فيه المياه وبما ان البئر المحفور خارج القلعة بعيد الغور فإن مياه البئر الموجود بداخل القلعة قد تسربت اليه فإذا ما انتدب أحد الخبراء لاقامة ساقية على البئر الخارجي وأحيط البئر بسور وألحق بالقلعة فإن المياه تتسرب اليه ابان المطر حيث تغذي البركة بمائه . أما اذا ترك على حاله فإن مياه الأمطار المتجمعة فيه ستغور وبمجرد ان يشتد الحر ينقطع الماء عن البركة ونظرا لعدم وجود من يتولى حراسته فمن المحتمل أن يتلفه العربان . ومن الضروري جدا أن يعالج أمر الماء في هذه المرحلة لأن

الماء الذي وجدناه في المرحلة الثانية وهي البئر الجديد كان لا يفي بحاجة دوابنا .. فلابد والحالة هذه من تعيين أحد الخبراء بمجاري المياه ليعمل على تكثير الماء في مرحلتي بئر الزمرد ، والبئر الجديد التي سنتكلم عنها توطئة لأحياء هذه الطريق واستدرارا لخير الدعاء من الحجاج . وهناك بجوار هذه القلعة بركة للماء ، مربعة الشكل طول كل ضلع من اضلاعها ٢٠ ذراعا وعمقها ١٠ أذرع معمارية ولا يوجد فيه نقطة واحدة من الماء ولا بد من تجديد [مونتها] من الداخل . ومحافظ هذه القلعة يقيم بمداين صالح .

بئـــر الوالـدة

هي قلعة تسمى البئر الجديد ، أو بئر الوالدة تقع على مسافة ٨ ساعات من قلعة بئر الزمرد وقد بنيت بالحجر على شكل مربع طول كل ضلع من اضلاعها ٣٠ ذراعا معماريا ، وهي ليست في حاجة الى الترميم ، وبداخلها بئر على عمق ٢٨ باعا عليه ساقية تدار بالبغال وباتصال القلعة بركة ماء مربعة الشكل طول كل ضلع من أضلاعها ٢٥ ذراعا معماريا وعمقها ١٠ أذرع تغذيها الساقية المذكورة بالماء ولا يوجد في هذه البركة أي خلل انما تحتاج الى [التلييس] وباتصال القلعة من الخارج يوجد بئر أخر سعته ٥ أذرع وعمقه ٢٤ باعا وقد فهم ان هذا البئر لا يحتوي على نبع وانما تتسرب اليه المياه من الأمطار التي تتشربها الأرض وتنفذ اليه ومن سيول الأمطار التي تصب فيه والقول ان الامطار اذا نزلت بكثرة امتلأ البئر حتى حافته وأربى على حاجة الحجاج وقد شاءت حكمة الله ان تتسرب المياه الموجودة في هذا البئر الى البئر الموجود داخل القلعة اذ ان المطر كان قليلا والبئر الداخلي أبعد غورا من الخارجي فتصفى الماء فيه وانحدر اليه وانعدم في ذاك البئر ، الخارجي وإذا كان البئر الموجود بداخل القلعة تدار عليه ساقية إلا ان الماء فيه ينضب فيقف دوران الساقية عدة ساعات ريثما تعود المياه وتتجمع فيه وقد عانينا بعض الضيق من ناحية الماء عند عودتنا الى هذه المرحلة .

مرحلة الهديـة

هذه المرحلة تقع على مسافة ٢٠ ساعة من بئرة الوالدة وهي في فرجة من الأرض تقع حول جوانبها الأربعة هضاب ، وقد بنيت فيها قلعة وهي صغيرة الحجم ، وقد تخربت منذ عدة سنين ، وسقط أحد اركانها ولا يوجد لها برك ونظرا لعدم لزوم هذه القلعة ، أهملت ، وتخربت . وبما ان هذه المرحلة تقع في منطقة رملية تجرى فيها السيول ابان المطر فإن الماء يظهر هناك على عمق ذراع فيما لو أريد الوصول اليه . والماء مبذول في حافة الجبال ، مما تجمع

هناك من مياه السيول ، غير ان الماء هناك مسهل ، وثقيل نظرا للمواد الغريبة المتكونة منها تربة الأرض .

النخلـتين

قلعة النخلتين أو قلعة بئر السجوا تقع على مسافة ٢٠ ساعة من مرحة الهدية وهي مبنية بالحجر طول كل ضلع من أضلاعها ٤٠ ذراعا معماريا وبداخلها نبع بنى فوقه بئر نصبت عليه ساقية تدار بالبغال . وقد رتب لتدويرها بغلان وقد قتل البدو الذين يخدمون في القلعة أحدهما وأكلوا عليق البغل الآخر المسكين وأماتوه جوعا وصفعوا المحافظ بسبب عدم صرف مخصصاتهم في الصرة في السنة الماضية . وقد ارسل محافظ المدينة أحد البغال الى هذه القلعة حتى لا تتعطل الساقية ولكنه لم يف بالحاجة ، وأقنع خدم القلعة بوجوب احتساب ثمن البغل الذي قتلوه من مخصصاتهم في السنة الماضية وصرف مخصصاتهم في الصرة عن هذه السنة فقط ، على ان يقوموا بالخدم المطلوبة منهم بالصدق والأمانة ، ثم اشترى بغل آخر بمبلغ ٨٥٠ قرشا وسلم الى اوطه باشي القلعة وهذه القلعة لا تحتاج الى الترميم ، وهناك باتصالها ، من الخارج بركة ماء طولها ٥٠ ذراعا ، وعرضها ٣٥ ذراعا وعمقها ١٠ أذرع معمارية . وبما ان هذه البركة تقع في أرض رملية فإن الرياح حملت اليها الرمال حتى غمرتها الى نصفها حيث يقتضي تطهيرها من الرمال واحاطتها بسور ارتفاعه ذراع ليحول دون تسرب الرمال اليها ، وإذا لم تسور فإن الحالة تتطلب تطهيرها من الرمال في كل سنة كما ان [مونة] البركة من الداخل قد تآكلت ولا بد من تجديدها ، ومن السهل تدبير المواد والعمال لهذه العملية نظرا لقرب هذه المرحلة من المدينة وهناك خارج القلعة ثلاثة آبار عدا البئر الذي بداخل القلعة .

بيار نظيـف

مرحلة بيار نظيف تقع على مسافة ١٢ ساعة من مرحلة النخلتين وليس ثمة أية قلعة هناك وقد حفر في ارضها الرملية عدة آبار . وبما ان هذه المنطقة من المناطق التي تجرى فيها السيول ابان المطر فإن الماء فيها قريب الغور وبمجرد حفر مقدار ذراع واحد يظهر الماء فهي والحالة هذه كثيرة المياه .

المدينة المنورة نور الله تعالى الى يوم القيامة

حي ـ على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام ـ على بعد ٢٠ ساعة من بيار نظيف . ولا يوجد في الطريق اليها أي ماء ، ولذا يحمل المسافر اليها ما يحتاجه من الماء من بيار نظيف .

بيـار علـي

هذه المرحلة تقع على مسافة ساعتين من البلدة الطيبة وهي مشجرة والماء فيها مبذول .

الشـــهداء

مرحلة تقع على مسافة ١٤ ساعة من بيار علي ونظرا لعدم وجود آبار في الطريق في هذه المرحلة فإنهم يعملون الآن في حفر بئر من جديد وقد وصلوا الى غور ٢٥ ذراعا ولما يظهر الماء بعد والمأمول ان يظهر الماء فيما اذا حفروا خمسة أذرع آخر وعلى ما فهمناه ان الماء قد يظهر بعد الوصول الى ٣٠ ذراعا . والماء هناك موجود ولكنه على بعد ساعة أو أكثر من الطريق ، من الناحية اليمنى ولذا فإن الحجاج يعانون بعض المشاق في سبيل الحصول عليه ، ولو بُذلت الهمة في اتمام حفر البئر الذى يعملون فيه الآن ونصبت عليه ساقية تدار بالبغال وبنيت بجواره بركة مربعة الشكل طول كل ضلع من اضلاعها ٥٠ ذراعا وعمقها ١٠ أذرع وأقيم الى جانبها بناء بهيئة برج يقيم فيه من يحافظ على البئر والساقية لأدى ذلك الى رفاهية الحجاج وراحتهم . وهناك بين هذه المرحلة ، والجديدة البئر المسمى [ذات العلم] ولكن ماؤه لا يفي بحاجة الحجاج ولذا يُحمل الماء من بيار علي الى الجديدة .

الجديـــدة

مرحلة الجديدة تقع على مسافة ١٢ ساعة من الشهداء . وفي هذه المرحلة نبعان وقد بنيت بركة عظيمة الى جانب أحدهما قيل لنا انه متى قرب مرور الحجاج من هناك تُملأ حتى حافتها والماء في هذه المرحلة مبذول جدا ومتوفر .

بـدر حنيـن

هذه المرحلة تقع على مسافة ١٠ ساعات من الجديدة ويسيل اليها من حنين ماء نبع ، ويدير في جريانه طاحونة قائمة هناك، وبجوار هذه البلدة بركة طولها ٣٠ ذراعا وعرضها ٢٥ ذراعا ولكن ماء هذه البركة لا يستعمل نظرا لعدم صلاحية ماؤها الذي اتسخ من جراء ما بها من أنقاض اجزاء البركة المتهدم وانما يستعملون ماء مجرى العين النابعة ، المذكورة آنفا وبذلك لا يحتاجون الى مياه البركة وهناك على مسافة ٢٤ ساعة من هذه البلدة البئر المسمى بئر المستورة وهذا البئر يقع على طريق رابق إلا ان هذا البئر في حاجة الى التطهير اذ ان ماؤه سرعان ما ينضب فيرجأ رفع الماء منه عدة ساعات ريثما تتجمع المياه فيه ، ولا يفي بحاجة الحجاج، وهناك على يسار الطريق ،

ويمينها عدة أبار غير هذا البئر ولكن الرمال التي تحيط بها قد تسربت اليها وغمرتها فانعدم نفعها فإذا ما صدرت الارادة لمحافظ مكة المكرمة ، كان من السهل تطهيرها من الرمال ومن المستحسن أيضا ان تحاط هذه الآبار بسور يمنع تسرب الرمال اليها . فإذا ما تم تطهير بئر المستور الآنف الذكر ونصبت عليه ساقية وأقيمت بجواره قلعة صغيرة وبنى خارجها بركة للماء لا يبقى ثمة أي ضائقة من ناحية الماء في هذه المرحلة.

رابـــق

هذه المرحلة تقع على مسافة ٣٦ ساعة من بدر حنين والماء في هذه المرحلة يظهر لطالبه بمجرد حفر ذراع أو ذراعين .

الخليـــص

مرحلة تقع على مسافة ٢٥ ساعة من رابق وهناك بجوار الجبل القائم الى شمال هذه البلدة نبع ماء يسيل ماؤها الى البلدة في قناة صنعت لهذا الغرض وبالقرب من هذه البلدة بركة ماء مربعة الشكل طول كل ضلع من أضلاعها ٨٠ ذراعا يصب فيها مجرى العين النابعة وبعد ان يفيض الماء عنها يأخذ طريقه الى خارجها بيد ان بعض اجزاء البركة قد تهدم ولا بد من اصلاح المتهدم منها . على ان الماء متوفر جدا في هذه المرحلة .

مكـة المكرمـــة

لقد نزلنا في المرحلة المسماة الشيخ محمود التي تقع على مسافة ٣٦ ساعة من الخليص وعلى بعد خمس أو عشر دقائق من مكة ونظرا لوجود الماء في بئر التفل ووادي فاطمة فليس ثمة أي ضيق في ناحية الماء في الطريق المؤدية الى هذه المرحلة .

التتمـــة

عملا بالارادة الصادرة من قبل ولي النعم قد تمت معاينة برك المياه التي تقدم الكلام عنها في هذا التقرير ، واحدة واحدة ، فإذا ما شمل ولي النعم هذا المشروع بالعطف واصدار ارادته الصائبة ، بالاصلاح والترميم وأضاف مولانا الخديوي الأعظم وولي نعم كافة الأمم ، هذا الأثر العظيم الى ماله من الخيرات والحسنات التي لا عداد لها ، نال الثواب العظيم الجزيل والفخر الذي ما وراءه فخر الى آخر دوران الأرض وجعل ألسنة الحجاج تلهج بالدعاء وبدوام بقائه واستمرار دولته كما هو جلي ظاهر .. إذ ان الماء في طريق الحج من أعظم الضروريات للحجاج الذين يسلكون هذه الطريق في كل

سنة . وانه لمن المعلوم لدى الخاص والعام ان ولي النعم صاحب العطف والكرم الخديوي الأعظم الذي يحاكي اسكندر في قدرته قد وفق منذ القدم الى مثل هذه المشروعات الخيرية . وفقه الله الى هذا الأثر الخيري أيضا وحفظ ذاته الكريمة من الآفات وآمنه منها وسر قلوب حجاج المسلمين بتوفقه لهذا العمل الجليل ، آمين .

في ٢٧ صفر ١٢٥١ هـ





البروفيسور انطونيو دياز فارينها استاذ بجامعة لشبونة واستاذ بمعهد الدراسات الشرقية والافريقية بلشبونة أيضا وهو أحد العلماء البرتغاليين المهتمين بالدراسات الشرقية وهو يقدم في هذه الدراسة وجهة نظر برتغالية عن عصر الاكتشافات البرتغالية في الخليج والمحيط الهندي وقد حرصنا على نشر هذه الدراسة في اطار مجموعة البحوث التي نشرتها الوثيقة وتنشرها حول الموضوع حتى تكتمل بذلك وجهات النظر حول هذا العصر .

«الوثيقة»

تسكن الشعوب التى تعتبر عربية فى ايامنا هذه على مسافة واسعة من الاراضي تمتد من شاطىء المحيط الاطلسي الى حدود ايران الغربية ومن جبال طوروس الى مناطق السودان الوسطى والجنوبية . وتتسم

العرب والمسلمون ..

في عصر الاستكشاف البرتغالي

للبروفيسور : انطونيو دياز فارينها - البرتغال



● جزء من خريطة رسمها ديجو ريبر عام ١٥٢٩ خلال فترة الاستكشافات التي سبقت غزو اوربا لافريقيا وجنوب آسيا

هذه الاراضي بفوارق شاسعة : فمن جهة هناك اكبر الصحاري القاحلة المعروفة على وجه الارض ، ومن جهة اخرى ثمة مناطق خصبة غاية الخصب بما فيها سهول المغرب الغربية ووادي النيل والاقطار ما بين النهرين (دجلة والفرات) وبعض الاودية التي تقع في لبنان وسوريا وواحات مشهورة متناثرة في الصحاري جعلت الشعراء العرب يقارنونها بالجنة سواء في الدنيا او في الآخرة ..

وتعتبر شعوبا عربية الشعوب التي لغتها الأم هي اللغة العربية وتنتسب الى الثقافة ذات التعبير العربي . اما حياتها الدينية المتخذة اعتبارا من القرن السابع فكانت اسلامية عادة وهذا بعد نزول القرآن على النبي محمد ﷺ وبعد انتشار الاسلام والثقافة العربية بشكل سريع مما ادى الى تكوين منطقة واسعة لاقت تعبيرها الثقافي الخاص - اي العالم العربي الحالي - ومنطقة اخرى اوسع من هذه تسترشد في حياتها الدينية بنصوص الشريعة حيث يمتد تأثير الاسلام على العادات والقيم الخلقية واللغة واحيانا على التضامن السياسي الذي يذكر بهذا الصدد - وهذا كله في العالم الاسلامي المعاصر ..

وكثيرا ما يسمى العصر التاريخي الاول للعرب بحضارة الاسلام التقليدي (الكلاسيكي) او حضارة الاسلام او الاسلام فحسب ، حيث يمكن ان تشير هذه الكلمة الى الواقع الديني - وهو الاسلام - او الحضارة ذات التعبير العربي التي استغرقت من القرن السابع الى القرن الرابع عشر حينما حلت محلها حضارة فضلت التعبير التركي وتبعت تطور هذا الشعب سياسيا وعسكريا فهي جوهر الحضارة التركية الاسلامية التي عاشت تحت رعايتها الاقطار المذكورة اعلاه حتى انهزام تركيا في الحرب العالمية الاولى وانتصار وعي العرب القومي مما شكل الكيانين العربي والاسلامي على حالهما الراهن ..

غير ان حضارة الاسلام التقليدي او الهيمنة العربية الاسلامية اصبحت تمر بمرحلة من الانحدار في وقت بدأت فيه اوروبا الغربية حملة توسعية نشيطة ارتدت شكلها الاوضح في الاستكشاف البرتغالي كما لاقت تكريسها في الاستعمار الاوروبي المعاصر . وعند اختتام ذلك العصر التاريخي اعطت طاقة العرب الابداعية صورة لعظمتها في شخصية جوهرية هي - ابن خلدون - . وفي مؤلفاته المتعلقة بتاريخ العالم وتاريخ البرابرة (كتاب العبر) قام ابن خلدون بأحد التحاليل الاكثر واقعية التي كتبت حول سلوك البشر وعقائدهم واختياراتهم وصيرورة الانسانية ..

في اوائل القرن الخامس عشر استولت على حكم العرب أسر ملكية

مستقلة وفى المغرب على الاخص يذكر بنو مرين من اصل بربرى واضح . كما شهدت المغرب تجزؤ السلطة المركزية وتكاثر الطوائف والاولياء - الصوفية والجمعيات الدينية والمرابطين - حيث لعب الجميع دورا مزدوجا : من جهة وفى الامد القريب حدث انحطاط في السلطة وسقوط الاسرة الحاكمة ، وفى الامد الأبعد تم ابدالها فى الحكم وتقوى الدين بشكل خاص مع تكاثر الزوايا والمعابد مما كان دليلا على اشتداد التمسك بالدين واعادة ازدهاره ، الشيء الذي كان من شأنه ان يؤدى الى الوحدة السياسية من خلال الجهاد او اثبات الكيان الحضارى المغربي ..

وفى القرن الخامس عشر كان المماليك يمثلون السلطة العربية فى الشرق خاصة وعاصمتهم القاهرة ، رغم ذلك لم تزل اراضيهم تتجزأ اكثر فأكثر امام توسع القوات التركية ..

ومن الجدير بالذكر ان سلطنة عمان وغيرها من السلطنات الصغيرة كانت تقوم بتجارة وسياسة نشيطتين تجاه الاقطار الغنية بما فيها افريقيا الشرقية . وكان الكثير من العرب يرحلون عبر مناطق المحيط الهندى كلها منسجمين انسجاما متزايدا مع السلطات السياسية الاسلامية فى الاقطار الاسلامية مشجعين تشجيعا دائما على اقرار الثقافة ذات التعبير العربي وعلى تنميتها فى الاقطار المذكورة .

وفى القرن الخامس عشر كان العالم الاسلامي يعيش فترة من التوسع هي مرحلة التوسع التركي الاسلامي . ومن الجدير بالذكر تطور حركة الشيعة فى بلاد الفرس مع فقدانها التعبير العربى وانفصالها النهائي عن العالم العربى مؤكدة على اصلها الهند اوروبى الذى يعود الى ما قبل الاسلام وقد ظلت تحتفظ به طوال العصور اللاحقة . وفى القرنين الخامس عشر و السادس عشر قويت تبعية العرب للاتراك مع سقوط المماليك سقوطا نهائيا عام ١٥١٧م وانفصال الفرس القطعى عن القيم العربية حيث ساهم الشيعة مساهمة قيمة فى ثقافة ولغة وتقاليد بلاد الفرس القديمة .

فى هذه الفترة نفسها اضطر العرب الى التنازل عن قيادتهم للعالم الاسلامي سياسيا وثقافيا مما أدى الى نشوء حركات دينية وسياسية ذات طابع وطني وقومى واضح وكثيرا ما كانت معادية للاجانب وحريصة على الاحتفاظ بخصائصها مطبقة الدين الاسلامى على هويتها الخاصة ، كما تتميز هذه الحركات باسترجاع الطقوس القديمة والقدرة الابداعية والابتعاد عن المذاهب التقليدية . يعني بتعبير آخر ان النظم الدينية الوطنية والاولياء والعقائد المحلية اصبحت كلها تمثل اهمية كبرى مطلقة تعكس القيم العليا . وبدأ الاسلام ينتشر فى الشرق الاقصى

والسند قبل القرن الخامس عشر بقليل واعتنقه ابناء المناطق المذكورة على الفور مع اتخاذه شكلا خاصا بها ولائقا لها ، ولذلك عندما وصل البرتغاليون اليها في القرن التالي ناقلين دينا غريبا اجنبيا ومعاديا نوعا ما بطبيعه الحال تحول البرتغاليون الى عوامل تدعم نشر الاسلام كرد للفعل وذلك على الرغم من رغبتهم فى ادخال المسيحية هناك . وكانت الدولة الاسلامية الكبرى فى هذه المناطق وفى الايام التى نعرض لها هنا هى اندونيسيا .

تكونت البرتغال باعتبارها كيانا سياسيا وثقافيا يتمتع بالحكم الذاتي والاستقلال فى القرن الثانى عشر نتيجة لحركة معقدة قامت بها اقوام اوروبا الغربية التى اصبحت تتنظم بقيادة زعمائها وذلك فى نفس الفترة ، فكانت سلطتهم الشرعية تقوم على مبدأ الوراثة معتمدين في قوتهم على حاشية من الاصحاب الاقطاعيين كان امتلاكهم الارض وراثيا ايضا وهم الذين كانوا يقودون الجيوش بهدف الحصول على اراض جديدة لتوسيع عقاراتهم فى صالح انفسهم وذريتهم وأتباعهم . وكانوا يسترشدون بالمذهب المسيحي ويشكلون عاداتهم على ضوء الاخلاقية المسيحية أيضا ويطبقون المبادىء الادارية والسياسية المتينة التى كانت قد تبلورت خلال عصر السلم الروماني الذى كان احد المثل العليا التى تطمح اليها اغلب البلاد الاوروبية . وكانت حياة اوروبا الدينية فى القرون الوسطى تتميز بمختلف اشكال التدين المسيحي بما فيها نظاما (كلونى) و (سيستير) الرهبانيين اضافة الى فصائل الفرسان الرهبان التى نشأت وازدهرت خلال الحروب الصليبية التى استهدفت فتح الارض المقدسة بدعم من سلطة روما البابوية كما تميزت بعبادة الشهداء المقدسين ورحلات الحج الى الاماكن المقدسة بما فيها (سانت ياغو دى كومبوستيلا) التى أصبحت حبلا سريا يربط بين الشمال الغربي من شبه جزيرة ايبيريا واوروبا الوسطى الكاثوليكية . وخلال القرون الطويلة من احتلال المسلمين لاراضي شبه الجزيرة كانت طريق (سانت ياغو) تغذي وفاء اهل هذه الاقطار لمذهب المسيح ..

ولما جاء (دون افونسو انريكش) واعيانه من النبلاء البرتغاليين يؤسسون مملكة لهم ولاهلهم ويضمون اليها اراضى اخرى باستمرار فإنهم فعلوا ذلك باسم المسيحية الغربية ضد المسلمين ذوى الثقافة العربية المتلكين لاكثر اراضي شبه الجزيرة وكان هذا قبل كل شيء نضالا بين الفصائل التى كانت تستهدف الحصول على الاراضى والثراء والنفوذ لانفسها ولاتباعها أكثر منه نضالا من أجل المسيح ، ولا يرتدي هذا الصراع شكل الخلاف الفكرى الا عندما تحاول الاطراف

الإكتشافات البرتغالية حوّلت لشبونة

إلى متجر ضخم لأوروبا القرن الخامس عشر

استعمال تنظيم الدولة تأييدا للنصر وتبريرا له وضمانا لتحقيقه . وتكونت روابط التعايش المتميزة خاصة باحترام الـ (موروش) وهى تسمية اطلقها البرتغاليون على جميع المسلمين الايبيريين والافريقيين الذين تعاملوا معهم . وعند وصولهم الى المحيط الهندى وآسيا اخترع البرتغاليون تسميات اخرى اطلقوها على المسلمين المقيمين هناك مثل الروم (رومشى) اى الاتراك والفرس (برسيوش) ..

غير ان الممالك الايبيرية اخذت تقسم بينها حقوق ملكية الاراضي



المسترجعة من المسلمين وكان هذا التقسيم عامة يتبع الخطوط الهاجرية وفرض عليه احترام صارم كما يدل عليه هجوم (دوم افونسو انريكش) على مدينة بطليوس واجراء مفاوضات معقدة بين ملك البرتغال (دوم دينيش) وملك قشتاليا (افونسو العاشر) بخصوص حرمة الحدود بين المملكتين . وتجدر الاشارة هنا الى تقسيم أراضى شمال افريقيا بين ملكي اراغون وقشتاليا : فكان لاولهما الاراضي شرق وادى ملوية ولقشتاليا اراضي غرب النهر المذكور الى سبتة . والمهم ان الاراضي المسترجعة الواقعة فى غرب سبتة وباتجاه الخطوط الهاجرية دائما اصبحت ملك البرتغال بشكل تلقائي .. كما ظهر الاحترام لحقوق المسيحية الغربية وواجبات استرجاع الاراضى والتبشير بالدين المسيحي فى مراسلة دون افونسو العاشر الى البابا بخصوص جزر كناريا ..

ادى الاستكشاف البرتغالى الى معرفة الكرة الارضية باسرها والى نشوء الحضارة العالمية على نطاق الكوكب والى تأسيس ما يسمى عادة بالعالم العصرى وحدث ذلك فى فترة كانت فيها اوروبا تمر بمرحلة من التوسع .. ونشب اول صراع بين البرتغال وأول بلد عربي اسلامي على ارض افريقيا وهو المغرب .. وكان من الممكن فى القرن الخامس عشر ان تبدأ البرتغال أولى حملاتها لمحاربة مملكة غرناطة الاسلامية ولكن الشروط والحقوق المذكورة أعلاه بخصوص الاراضى المسترجعة اعترضت هذا السبيل ودفعت البرتغال دفعا حاسما الى افريقيا .

ويمكن القول بأن اول حضور للبرتغاليين الى سبتة وفشلهم فى محاولة فتح طنجه عام ١٤٣٧م ، ثم فتحهم القصر الصغير عام ١٤٥٨م واصيلة عام ١٤٧١م واحتلال طنجة عام ١٤٧١م انما تعبر كلها عن رغبة الاسرة الملكية البرتغالية الجديدة - وهى اسرة (افيش) - في تعزيز موقفها السياسي بعد أن كانت قد استولت على السلطة إثر أحداث ١٣٨٣ - ٨٥ بدعم من النبلاء الجدد الذين تولوا الحكم والمناصب العليا في القصر الملكي . اما العلاقات مع «المغاربة» فكانت عدوانية في أغلب الاحوال وخصوصا بعد موت احد ابناء الملك واسمه (دون فيرناندو) فى الأسر المغربى اذ بقي رهينة بعد هزيمة ١٤٣٧م .. والحقيقة ان مملكة البرتغال ضمت العديد من الاراضي الى ممتلكاتها بعد التاريخ المذكور نتيجة الاستكشاف وعلى سبيل المثال جزر ماديرا والآزور والرأس الاخضر ، مما فتح مجالا واسعا للتعمير (جزيرة ماديرا على الاخص) ، حيث اخذت لشبونة تحصل على الكثير من المواد القيمة بما فيها السكر ومواد الصباغة .. وعلاوة على الجزر المذكورة فقد اعتبر اكتشاف ساحل

افريقيا الغربى ، ذا أهمية كبرى من حيث الايرادات الناتجة من شراء الذهب والرقيق الواردين من منطقة ما فى غرب « ارغيم » فى موريتانيا الحالية ومن غينيا وساحل مينا كله .. واعتبارا من ١٤٥٠م اصبح الاستكشاف عملية مربحة لم يزل عائدها يزداد عبر النصف الثانى من القرن الخامس عشر عندما أضيف الى المواد المذكورة اى الذهب ومواد الصباغة وتجارة الرقيق بعض المواد الاخرى مثل بهارات ساحل غينيا اى الفلفل الاحمر (المسمى بحبة الجنة) والفلفل الحلو والعاج والريش وزيت عجل البحر . واتسم النصف الثاني من القرن الخامس عشر بالاهتمام بتنمية النشاط التجارى وازدهار الاقتصاد وتنظيم الفتوحات مما حول لشبونة الى متجر ضخم فى عالم تلك الازمنة .

قبل عام ١٤٧١م كانت البرتغال قد اقامت علاقات سلمية مع منطقة جنوب المغرب ـ اسفي وازمور واكادير وماسة ـ وهى مناطق مشهورة بصنع الأقمشة والمشغولات النحاسية التى كان لا بد منها فى التبادلات التجارية للحصول على الذهب والرقيق من غينيا ومينا .. ولكن اقامة العلاقات المتينة الدائمة مع المغرب بناء على الاعتراف المتبادل بقيمة كل من الشعبين لم تتم الا عام ١٤٧١م اثر عقد الصلح مع الشيخ محمد وهو اول ملك وطاسي . واستمر السلام فترة طويلة ولم ينقطع الا عام ١٥٠٨م مع فتح اسفى اذ كان دون منويل ملك البرتغال يتبع سياسة استعماريه كانت ترى أن من الممكن السيطرة العسكرية على المملكة المغربية . وكان اهم احتلال فى الفترة المذكورة هو احتلال أزمور عام ١٥١٣م وقد بطل مفعوله بعد سنتين إثر هزيمه ما مورة (حاليا القنيطرة) عندما طرد البرتغاليون ومنعوا من انشاء حصن فى مصب وادى سبو .

وينبغي هنا ابراز اهم ملامح العلاقات البحرية مع المغرب . من المعروف ان افريقيا عامة وشاطىء المغرب الاطلسي خاصة كانا يفتقران الى موانىء صالحة للملاحة حيث تسد الرمال والصخور مصاب الاودية ومياه الخليج قليلة العمق وتبقى الموانىء مكشوفة أمام الرياح السائدة مما يجعلها غير صالحة لضمان مدخل دائم للسفن القادمة وقد يكون السبب هو قلة النشاط الملاحى على هذا الساحل فى ذلك العصر وان كان قدتم حاليا انشاء المرافىء الصناعية للتغلب على هذه المشكلة . اما فى العصر المذكور فكانت اهم مدن المراكز التجارية فى داخل البلد مثل فاس ومراكش ومكناس . لذلك واجه البرتغاليون صعوبة كبيرة فى ارساء سفنهم وكان هذا احد اسباب انصرافهم عن الحملة المغربية فى عهد الملك دون جوان الثالث ..

ويعود تغير الموقف البرتغالي خاصة نتيجة رد فعل المغرب نفسها اذ عجز

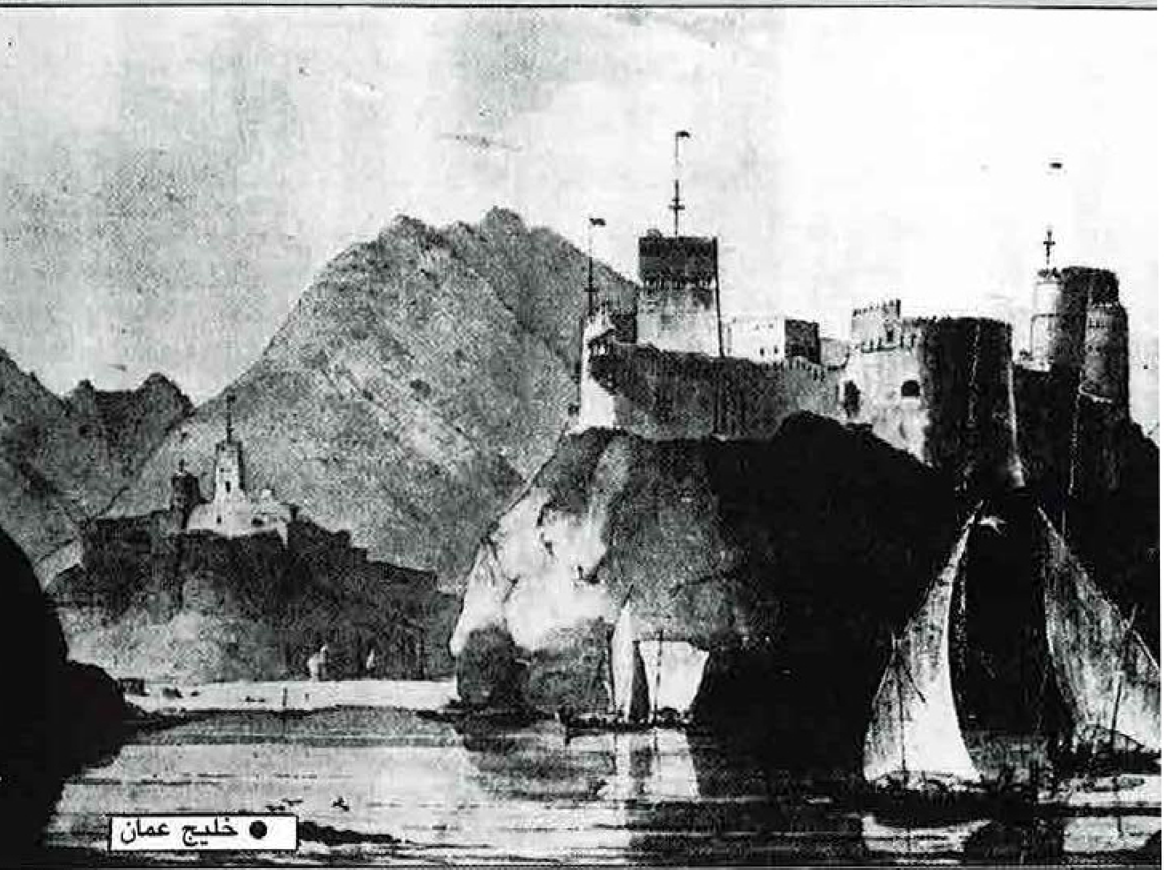
البحث عن الثراء والأرض كان الدافع

وراء الحملات البرتغالية على الشرق

بنو مرين والملوك الوطاسيون عن اعتراض سبيل البرتغاليين وتأسيس دولة موحّدة وكان الكثير من الاقاليم تتجاهل سلطة الملك المقيم فى فاس مطالبة بالدفاع عن نفسها وحكمها الذاتي من خلال رد فعل دينى يتركز على الاولياء او المرابطين بحيث اصبح نشاطهم يرتدى زيا سياسيا وعسكريا اوضح فاوضح . وكانت هنالك طائفة دينية اخرى جعلت عائلة من الشرفاء تؤسس حركة سياسية اجلست على العرش اسرة ملكية جديدة هى الاسرة السعدية . وتعني كلمة « شريف » الشخص الذى ينتمى بنسبة الى رسول الاسلام اما الحركة المسماة بالشريفية فكان هدفها الاحتفاظ بالسلطة السياسية داخل هذه العائلة مما جعل المعارضين يتحدون بقيادة شرفاء سوس الذين نظموا جيشا وفتحوا به مراكش كما حاصروا الحصن البرتغالى فى اكادير حصارا عنيفا ثم احتلوه عنوة وادت هذه الهزيمة الى انسحاب البرتغاليين من اسفى وازمور فى نفس العام ثم الى مغادرتهم القصر الصغير وأصيلة عام ١٥٥٠م . وينبغي هنا ابراز حادث غريب وبليغ المعنى : فإن مولاى محمد الشيخ المهدى المنتصر فى اكادير لم يقاوم جمال الدونه ماسية ابنة القبطان البرتغالى ، وتزوج منها وعندما ماتت أعلن عليها الحداد مدة اربعة اشهر .. والواقع ان انتصار الشريف على البرتغاليين مكّنه من تعزيز سلطته والتغلب النهائى على



● بارتلوميودياز المستكشف البرتغالي



● خليج عمان

آخر الوطاسيين وتبع ذلك توحيد المغرب عام ١٥٥١م عند انتهائه من فتح فاس . واستولى الشرفاء على السلطة فى المغرب فى التاريخ المذكور وما زالوا على العرش حتى الآن اذ تنتمي اسرة الشرفاء العلويين الحالية الى عائلة الشرفاء السعديين آنذاك ..

وفى نفس الفترة أى منتصف القرن السادس عشر نشأ فى البرتغال تياران سياسيان أو فكريان اختلفا تجاه سياسة التوسع المقبل : فاقترح احدهما فتح المغرب ولكنه انحل مع فقدان اكادير وما تبعه اذ اتبع دون جوان الثالث سياسة الانسحاب . وكان على رأس هذا التيار دون سباستيان الذى توجه الى افريقيا لسببين رئيسيين : اولهما سبب داخلي يتعلق بتعزيز السلطة الملكية والثانى سبب خارجي وهو تقدم الاتراك نحو الغرب . وبعد انهزامهم فى ليبانتو عام ١٥٧٢م سلك الاتراك الطرق البرية وكان تابعهم عبد المالك قد عزل مولاى محمد سلطان المغرب عن العرش . وانحاز دون سباستيان لمولاى محمد ضد مغتصب العرش . واسفرت معركة القصر الكبير (وادى المخازن) عن موت الملوك المتحاربين الثلاثة الأمر الذى مكن مولاى احمد المنصور الذهبى (المنصور) من اعتلاء العرش باعتباره مؤسس استقلال المغرب الوطني باعتراضه سبيل التوسع التركى ولما حققه له

انتصاره من شهرة وثراء نتيجة الاموال التى حصل عليها اضافة الى الأموال التى حصل عليها كفدية للأسرى الذين أسرهم فى معركة القصر الكبير . وهكذا ظلت هذه المملكة العربية مستقلة عن السلطة التركية حتى جاء الاستعمار الاوروبى .

ذكرنا نشوء تيارين توسعيين فى البرتغال فى منتصف القرن السادس عشر اتجه احدهما الى المغرب . اما التيار الثانى فكان يمد بصره الى الشرق منذ ان وصل فاسكو دا غاما في الى بندر كاليكوت عام ١٤٩٨م . وكانت سياسة الملك دون جوان الثاني تشجع توجيه التوسع نحو الهند اذ اصبح دون جوان ممثلا لاهداف التوسع ومثله العليا وكان قد اختار الشرق كآخر مرحلة من مراحل الاستكشاف وذلك منذ ١٤٧٤م اى قبل جلوسه على العرش . وتميز حكمه بالنمو الاقتصادى الكبير نتيجة للتجارة فى البهارات والذهب الافريقى . وكان الازدهار الاقتصادى المذكور من شأنه ان يحث الملك والعديد من فئات اهل المملكة على توسيع مجال التجارة الى الاقطار فيما وراء البحار . كان دون جوان محتاجا الى حلفاء يساعدونه على تجاوز الحاجز الاسلامي الذى كان يحول بينه وبين مخططه وظن انه وجد ذلك الحليف في القسيس جوان المسيحي ملك الحبشه الامر الذى يفسر ارسال عدة بعثات الى الشرق ـ بما فيها واحدة رأسها (بيرو دا كوفيليا) كان هدفها اعداد تقرير للملك عن انتاج البهارات وتجارتها .

وكانت تفاصيل رحله (فاسكو دا غاما) ماثلة للعيان وفيها تجربه اختلاطه من المسلمين إبان سفره الى الشرق . وابتداء من ساحل افريقيا الشرقي ذكر وجود العرب والمسلمين فى جزيرة موزامبيق وقد جاء فى يوميات سفر (الفرو فيليو) : ما يأتى:ينتمى اهل هذا البلد الى دين محمد ويتكلمون كالمغاربة (يعنى باللغة العربية) وهم تجار ويتجرون مع المسلمين البيض الذين شاهدنا لهم فى هذا المكان اربع سفن .. وكان مع (القبطان مور) ملاح يفهم حديثهم كله لانه كان اسيراً عند المغاربة ولذلك فهم حديث الذين وجدناهم هنا .. ويضيف:وكان فى هذا المكان المسمى جزيرة موزامبيق سيد يدعونه سلطان الجزيرة وهو منصب يعادل نائب الملك عندنا « وقد اقام علاقات جيدة مع البرتغاليين فقد حسبونا اتراكا او مسلمين قادمين من أى مكان أخر اذ كانوا يسألوننا هل جئنا من تركيا ويطلبون ان نطلعهم على شعارات بلادنا وكتب ديننا ، وبعد ان علموا بأننا مسيحيون أمروا بالقاء القبض علينا وقتلنا وبعد بضعة ايام كتب (الفرو فيليو) « ان ملك موزامبيق بلغنا رغبته فى عقد الصلح معنا وأنه كان بوده ان يصبح صديقا لنا » وقد بلغنا بشرى السلامة هذه مسلم ابيض

وهو شريف أى من رجال الدين .

وكانت جزيرة موزامبيق بابا إنفتح على مصراعيه امام البرتغاليين دخلوا منه الى حضارة منطقة المحيط الهندى بطوائفها الدينية المتنوعة التى كانت سببا في انتشار الاسلام فى تلك الاقطار علاوة على كثرة العطور الرائعه والتوابل النادرة المختلفة التى كانت تلبي الميل الى الترف وتتفق وذوق ابناء تلك المناطق وهى الاشياء التى بدأت تنفد فى اوروبا ، ومنذ سفر (فاسكو دا غاما) اصبح البرتغاليون ينقلون هذه السلع التى كانت علامة على التمدين .

أما فى أوائل القرن التالى - اى القرن السادس عشر - فقد طرأت تغيرات ملحوظة على اوضاع الشرق الدينية والسياسية حيث اصبح العنصر البرتغالي احد العوامل النشيطة فى هذا الاطار . كانت القاهرة مقر السلطة القديمة وهى بايدى المماليك ومنهم السلطان قنصوه الغورى الذى تولى الحكم عام ١٥٠٠م بالضبط وكانوا من اهل السنة كما كان يقيم فى القاهرة الخليفة العباسى دون ان تكون له اية سلطة حقيقيه بل كان وجوده يعتبر نوعا من الدعم الذى يعزز شرعيه حكم المماليك . وكان السلطان بايزيد الثاني يحكم في اسطنبول على رأس قوات الاتراك العثمانيين وهم من اهل السنة كذلك وكانوا قد اعدوا جيشا قويا جعلوا الاولوية فيه للمدفعية وسائر الاسلحة النارية . اما بلاد الفرس فكانت قد شهدت انتصار الصفويين واتخذ زعيمهم اسماعيل الصفوى لنفسه لقب «شاه» عام ١٥٠٠م وفى نفس الوقت فرض المذهب الشيعي على دولته . وكان الشرفاء الادريسيون يتولون حراسة اماكن الاسلام المقدسة في مكة والمدينة تحت وصاية مماليك مصر . وكانت الطائفة العبادية تزدهر فى عمان وكانت تعبيرا عن تيار معتدل نابع عن المذهب الخارجي . وكان المبدأ الانتخابي فى هذا البلد قد أخذ يختفي وترك زعماؤه لقب «الامام» وأخذوا يستعملون تسمية «سلطان» بعد أن اتبعوا المبدأ الوراثى .

ومن البديهي ان تجزؤ العالم الاسلامى كما سبق ذكره كان لا بد ان يساعد على نشوب صراعات داخلية واضعاف مختلف الاقطار فى الظروف الجديدة التى خلقها حضور البرتغاليين والاوروبيين عامة الى منطقة المحيط الهندى . وخلال حكم السلطان سليم الاول التركي حدثت بعض الاصطدامات الأساسية مما قرر مصير هذه المناطق كما حدد مستقبل الاتراك وبلاد الفرس وبعد ان تغلب الاتراك على الشاه اسماعيل الصفوى عام ١٥١٤م عقدوا الصلح معه بعد أن اعطاهم بعض الاراضي ، كما انتصر الاتراك على المماليك وضموا مصر عام ١٥١٧م واصبحوا بذلك حراس الاماكن الاسلامية

البرتغاليون لم يستطيعوا السيطرة

على الشرق وانما سيطروا على بحاره

المقدسة . وبعد هذا التاريخ تعمق تقسيم الشرق الاوسط بين الاتراك السنيين والفرس الشيعيين ..

وقد تمكن البرتغاليون من التغلب على معارضيهم فى المحيط الهندى خلال فترة وجيزة وذلك نتيجة لتفوق الاسطول ونظرا لحسن بناء السفن والمدفعية الحديثة والقيادة الموحدة وتنسيق حركات الاسطول طبقا لتسلسل عسكرى منظم . ومن الجدير بالذكر هنا ان البرتغاليين لم يسيطروا على الشرق بل على بحاره واقروا سلمهم بناء على تفوق ملاحتهم حيث كان تأثيرهم على البر غير مباشر وقائما



على الاخص على التحكم في المعاملات التجارية وبيع الاسلحة والعتاد العسكري للاطراف المتنازعة وينبغي ذكر شرائهم الخيول من جزيرة العرب لاستعمالها في الحروب الجارية في شبه القارة الهندية . كما تمكن التدخل البرتغالي من تغيير سير الاحداث الذى كان متوقعا في بعض الاماكن مثلما حدث في الحبشة التى كانت مهددة بالسقوط تحت هجوم العرب المسلمين ، فجاء (دون كريشتوفاو دا غاما) على رأس جيش لمساعدة (بريست جوان) الذى مكنته هذه المساعدة من الانتصار مما أبقى على وجود تلك المملكة المسيحية وسط منطقة نفوذ المسلمين .

وشكلت سيطرة البرتغاليين على بحار الشرق حاجزا في وجه توسع الاتراك نحو الجنوب ومن جهة أخرى قام الشاه اسماعيل الصفوى بتنظيم الدولة الفارسية رغم هزيمة ١٥١٤ ووقف في وجه توسع الاتراك نحو الشرق ومن جهة ثالثة سدت الاساطيل البرتغالية طريق الاتراك الى المحيط الهندى . اما اهل جزيرة العرب فإنهم حظوا بشبه استقلال نظرا لموقع بلادهم الحصين وبعد اندحار البرتغاليين أسرعوا يحلون محلهم على الطرق الملاحيه في بحار الجنوب وخاصة على ساحل افريقيا الشرقي مع مجيء العمانيين .

وفي المناطق الشرقية البعيدة ـ السند مثلا ـ ساعد وجود البرتغاليين على نشر الاسلام وكان عدد قليل من أبناء السند قد أسلموا قبل حضورهم ، ونذكر بهذا الصدد « ملقا » حيث بنى البرتغاليون حصنين في « ترنات » و « تبدور » ، وتعزز الاسلام في جميع هذه الاراضي بعد حضور البرتغاليين اليها . ويمكن القول بان حظ الأسبان كان احسن من وجهة النظر هذه لانهم وصلوا الى جزر الفيليبين عند بدايه انتشار الاسلام فيها ولذلك نجحوا في تمسيح أغلبية سكانها ..

كان البرتغاليون يميزون بين العرب والمسلمين تمييزا واضحا يؤكد ذلك ما جاء في « دليل سفر » وضعه « انطونيو تنريرو » سجل فيه تجارب اقامته في « هرمز » وتجاربه التى يعود تاريخها الى الربع الثاني من القرن السادس عشر ، وقد كتب عن اهل هرمز يقول : « يتدين السكان بدين محمد ومنهم الفرس ومنهم العرب ويتكلمون باللغتين العربية والفارسية . العرب سمر اللون والفرس بيض وهناك اختلاف في ملامح الخلقة والكل يحبون الترف سواء في الاكل أو في غيره من الشهوات الجسدية ويجيدون ركوب الخيل بحيث يلعبون بالكرة وهم على ظهر الحصان كما يحذقون الغناء وعزف آلات السماع ويحبون قراءة القصص القديمة وتتوافر عندهم الكثير من المواهب . ويغارون على نسائهم أشد الغيرة ومعهم الحق لانهن جميلات

للغاية »

وفى الفصل الخامس يتحدث « انطونيو تنريرو » عن أصل اسماعيل شاه الصفوى مؤسس الدولة الصفوية بنظامها الديني والسياسي يقول تنريرو :

« كان الصفوى ابن شيخ مشهور بين المسلمين وصاحب بلدة اسمها ارداويل وكانت امه ايضا بنت سيد عظيم وقد كبر هنا بصحبة الرهبان الارمن الى ان بلغ سن الرشد وتلقى على ايديهم ما كانوا يعلمونه من الامور .. ثم غادر هذه المملكة مع بعض الفرسان وأسرع بفتح مدن وقرى فارس واينما وصل منح للناس كل ما حصل عليه من غنائم وبدأ يذيع ويعلن نفسه كاحد اقرباء على بن أبى طالب ويقول ان ملوك تلك البلاد لا يتبعون دين محمد وعلي حرفيا .. ووضع على رأسه قلنسوة حمراء طويلة القمة ومزخرفة باثنتي عشرة ثنية وجعل جميع أتباعه يلبسون نفس القلنسوة ومعهم كتاب يحتوى على مذهبه » .

ومن الواضح ان الحديث يجرى هنا حول المذهب الشيعي الاثنى عشري .. اما في الفصل الثامن فيذكر الكاتب ان اهل اصفهان كانوا يعارضون مذهب الصفوى نظرا لأنهم من اهل السنة .

لقد كان « ارنولد توينبى » على حق عندما قال ان التاريخ الحديث بدأ من رحلة « فاسكو دا غاما » اى من اقرار العلاقة المباشرة بين الغرب والشرق ، او بتعبير آخر ان التاريخ الحديث بدأ بالاتصال المباشر بين البرتغاليين والعرب وغيرهم من المسلمين ، اولا فى شمال افريقيا ثم فى منطقة المحيط الهندى اى فى الشرق . وأن ذلك ترك آثاره على تطور العلاقات التاريخية اللاحقة . ورغم ان الشعوب الاخرى اتخذت بدورها بعض المبادرات الا أنه ستظل للبرتغاليين الريادة ولهم فضل القيام باللقاء الاول . ان المغاربة والبرتغاليين على وعى تام بالعلاقة القديمة بين تاريخ الشعبين . وفى الوقت الاخير وخلال الثماني السنوات الماضية اجرت جامعة نيويورك تنقيبات أثريه ودراسات انثروبولوجية فى مدينة القصر الصغير حيث تم الكشف عن مئات الهياكل مما سمح بتحديد المؤثرات الانثروبومترية للبرتغاليين الذين كانوا يعيشون فى تلك الازمنة ، كما تم اكتشاف بعض الفخار والزجاجيات وقراءة الكثير من النقوش وترميم الاسوار علاوة على اكتشاف ما يزيد على الف وخمسمائة عملة برتغالية ترجع الى النصف الثاني من القرن الخامس عشر والنصف الاول من القرن السادس عشر . وتولت الجهات الرسمية المغربية حراسة هذا التراث الحضارى القيم بالتعاون مع الجامعة الامريكية كما اجريت اعمال دقيقة لترميم بعض المدن البرتغالية السابقة مثل مزغان (الجديدة)

وازمور واسفي .

وابدى الشرق بدوره اهتماما بتمجيد تراثه الحضارى ، وعلى سبيل المثال القيام بترميم حصن عيسى فى مومباسه وترميم قلعة البحرين بمشاركة بعض الخبراء الفرنسيين فى علم الآثار ومحاولة الاحتفاظ بالحصون القديمه فى عمان بمشاركة بعض المهندسين المعماريين البرتغاليين . وهنالك قرية فى رأس الخيمة (الامارات العربية المتحدة) لم يزل اهلها حتى الآن يعلنون اصلهم البرتغالي . وتأسست جمعية مهمتها الحفاظ على الآثار التاريخية بالغة الأهمية فى جزيرة موزامبيق ، حيث لا تهتم هذه الجمعية بآثار الماضي البرتغالي فقط بل ايضا بإبراز قيمة سائر التراث الثقافى بما فيه التراث الاسلامى .

كما تشهد البرتغال حاليا اهتماما تزايدا بدراسة الماضي وتأثيره على النشاط المقبل . وجاء فى هذا الاطار انعقاد مؤتمر الدراسات العربية والاسلامية فى « ايفوره » و « فارو » قبل فترة وجيزة ، مما أثار الاهتمام بمناطق البرتغال الجنوبية . وكذلك مؤتمر التاريخ البرتغالي الهندي فى مدينة جوا الذي حظى بحضور بعض الشخصيات البرتغالية ..



عرب الصحراء

(٣)

تأليف : هارولد ديكسون
ترجمة : حمد السعيدان

الخيمة.. والأثاث

يصنع البدوي خيمته من فلجان * من القماش الأسود أو البني الخشن وهذا القماش يغزل من شعر الماعز او صوف الغنم ولا يؤخذ مطلقا من وبر الجمل . ويتوقف طول وعدد الفلجان على المركز الإجتماعي لصاحب الخيمة . فالفقير يحصل على فلجان ضيقة ورخيصة طول الواحدة منها خمسة وعشرون قدما وترتكز على عامود أو عامودين فقط ، في حين أن خيمة الشيخ العادي أعرض ستة فلجان عن خيمة البدوي الفقير ويبلغ طول الواحدة منها سبعين قدما وترتكز على اربعة أعمدة . ومن غير الممكن ان تكون الخيمة أكبر من ذلك لأنها تعوق حركة التنقل من مخيم الى آخر .

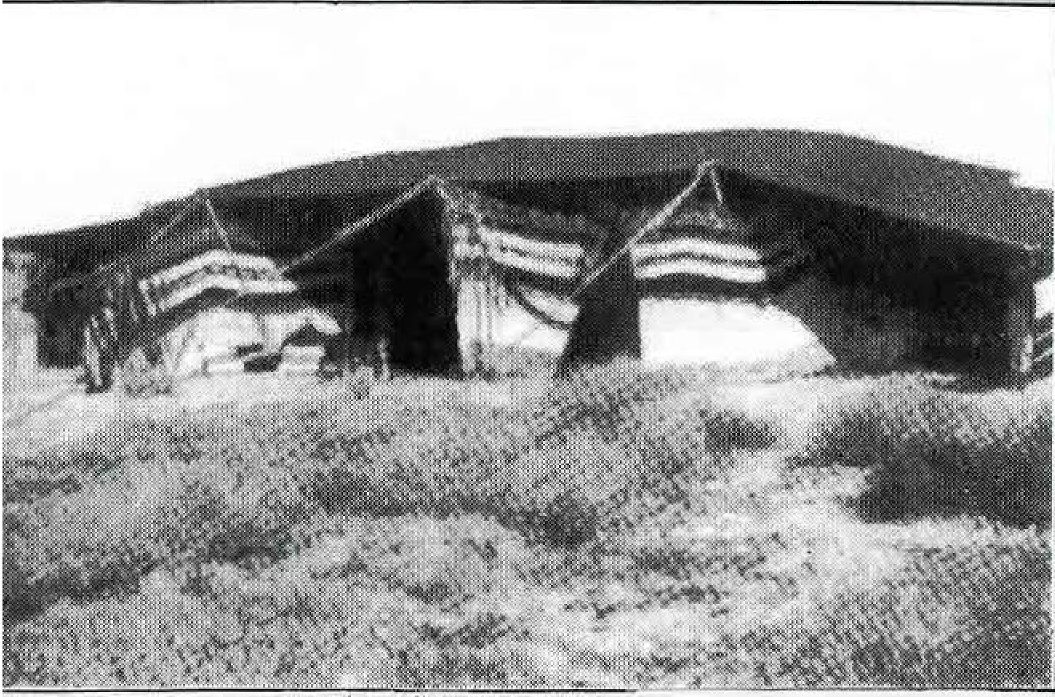
(★★) الفلج : شريط من القماش يصل عرضه الى قدمين او ثلاثة .



تواصل الوثيقة في هذا العدد نشر الحلقة الثالثة من كتاب «عرب الصحراء» وذلك لأول مرة باللغة العربية . والكتاب يعتبر مصدراً خصباً ودقيقاً وموثقاً لحياة البادية بطبيعتها وعلاقاتها وتقاليدها وسلوكياتها وتتمثل أهمية هذا الكتاب في أن المؤلف عاش بنفسه وسط البادية وسجل على الطبيعة كل ما شاهده وسمعه ومارسه

الوثيقة

تخاط الفلجان مع بعضها البعض على شكل مستطيل ثم ترفع فوق أعمدة وتشد الجوانب بإحكام بواسطة حبال الأطناب وتقسم الخيمة بقاطعين أو ثلاثة قواطع مزركشة وطويلة يبلغ طول الواحد منها حوالي ستة أقدام وترتبط أطراف هذه القواطع بالسقف خلف الخيمة وسقف وحبال الخيمة في الجانب المفتوح . ويتوقف عدد الحبال التي تدعم الخيمة من الخلف والأمام على عدد الأعمدة . مقابل كل عامود حبلان أحدهما أمام العامود والآخر خلفه ، والخيمة ذات الثلاثة الأعمدة لها ستة حبال ، ثلاثة من كل جانب . وتشد بإحكام في نهاية الخيمة بواسطة ستة حبال أخرى ثلاثة لكل جانب .



● الخيمة البيت الصحراوي

وتغلق الخيمة من كل طرف ومن الأمام في الليل بواسطة الرواق وهو عبارة عن قطعتين طويلتين كل قطعة تتألف من أربعة فلجان ضيقة ، تتصل في منتصف الجهة المقفولة من الخيمة وترتبط بجوانب الخيمة بواسطة سلسلة من الثقوب ، وتتدلى جميعها الى أسفل على شكل ستارة ثقيلة أسفلها إما مدفون في الرمل أو يبقى متهدلا اذا كانت الأرض صلبة ، وعادة ماتكون الفلجان السفلى من قماش رخيص كالخيش مثلا . لأنها تبلى بسرعة بسبب المطر والنمل الأبيض .

طرف القاطع المقابل للخارج مزركش . وتختلف أنماط الزركشة على قطع القماش الذي يصنع منه القاطع بحسب القبيلة والوقت الذي يصرف في عمل كل قطعة . ولون القطعة العليا أسود وعرضها إثنتا عشرة بوصة والقطعة التي تليها عادة ما يكون لونها ابيض بشريطين ضيقين اسودين أحدهما أعلاها والآخر اسفلها ، عرضها حوالي أربع عشرة بوصة ، وفي الوسط تتكرر نفس الزخرفة كما في القطعة الأولى . بعد ذلك تأتي القطعة الثالثة وعرضها أربع عشرة بوصة في وسطها أنموذج ثالث من الزخارف والجزء الذي يعلو الزخرفة أسود اللون والذي تحته



● شيخ
احدى القبائل

أبيض . كذلك عرض القطعة الأخيرة أربع عشرة بوصة نصفها الأعلى أبيض والنصف الأسفل فاتح اللون أو بني داكن .

ويتكون الرواق أيضا من أربعة شرائط قماش أفقية . وأروقة الأغنياء سوداء أو بيضاء أنيقة بينما يقتصر الفقير على أروقة عملية بنية أو سوداء عادة .

ويعتبر شعر الماعز أحسن نسيج لصناعة الخيمة فهو أسود وأكثر كثافة وأحسن منظرا من صوف الغنم . كذلك يستعمل في النسيج خليط من شعر الماعز وصوف الغنم المخلط

باللونين البني والأسود . وتقوم كل بدوية بصناعة وتجديد الأجـزاء المستهلكة من خيمتها . ولكن أحسن المواد وأمتنها التي تستعمل لخيام الشيوخ يؤتي بها من المدن . وهذه المواد تشكل سلعة جيدة للتجارة في الكـويت والجهـراء والقصـور .★ يشتري البدوي خيمته بالقطاعي . ويشتري الأعمدة أولا ثم القماش ثم القواطع فالحبال والأعمدة الجانبية وأخيرا القواطع الخلفية . ويعطي القماش الى نسائه اللواتي يبدأن بحياكته تحت اشراف احدى النساء الأكبر سنا والأكثر خبرة . وتحتاج الخيمة الى مهارة وعناية فائقة حتى يتم نصبها مستقيمة فلا تتمزق حول النوارات . ★★ وتحاك هذه النوارات بعناية بخيط قوى من شعر الماعز .

بعد أن يتم تجميع سقف الخيمة تحاك درايج مزركشة سوداء وبيضاء عرضها ست بوصات على طول السقف لدعم الأعمدة وتخفيف الضغط عن الحبال . تثبت خشبتان في السقف لمنع تمزق الأجزاء الواقعة مباشرة فوق رؤوس الأعمـدة من جـراء ثقـل السقف . ويوضع كل عامود تحت مركز الخشب مباشرة وبذلك لا يؤدى الى تمزق القماش . وأخيرا تثبت قطع خشبية على شكل أنصاف دوائر في نهاية القماش المزركش ، وتثبت حبال الخيمة بهذه القطع الخشبية . وهذه العملية في غاية الأهمية ويجب أن تخلو من كل ضعف . وتثبت الحبال بأوتاد خشبية في الأرض اذا كانت الأرض صلبة أما اذا كانت التربة رملية فيحفر حفرة على عمق قدمين ويربط آخر الحبل حول كومة من العرفج وتدفن في الأرض لتقوم مقام الوتد .

ويتم اختيار مكان نصب الخيمة على مقربة من الماء والمرعى . ويكون اختيار مكان التخييم من مهام الشيخ اذا هاجر البدوي مع القبيلة أو قسم منها ولكنه يعمل جاهدا لينصب خيمة عائلته على مقربة من واد رملي أو مجرى ماء حوله ربوات عالية مما يسمح لأفراد العائلة وخاصة النساء بقضاء حاجتهم الشخصية بعيدا عن الناظرين . وقرب المخيم من مصادر المياه نسبي . ففي الصيف يجب الا تزيد المسافة بين المخيم ومصادر المياه عن نصف ميل أما في الشتاء حيث لا تحتاج الجمال الى الماء ، وتشرب الأغنام والخيول مرة واحدة كل أربعة أيام فينصب المخيم على بعد عشرين أو ثلاثين ميلا من الآبار .

وينتقل البدو بخيامهم كل ثمانية أو عشرة أيام لأسباب صحية ولتوفير مراع جديـدة للجمال والأغنـام ، ويقطعون عادة من عشرة الى اثنى عشر

(★) القرى الجنوبية .

(★★) النوار : شريط بعرض بوصتين تقريبا يخاط لتماسك الفلجتين .

ميلا في انتقالهم شرط أن تكون المياه متوفرة . وينقلون أمتعتهم الثقيلة على الجمال الذكور لأنها أقوى من الإناث . أما الأمتعة الخفيفة مثل مياه الشرب فتحمل على النوق ويركب أفراد العائلة الجمال ويتصدر الرجال النساء اللواتي يسافرن داخل الهودج .

وعندما يغير البدوي الذي يملك نصف دزينة من الخيام موقعه فإنه يرأس بنفسه موكب الترحال فتتبع الخيام أغنامه وجماله الحلوب إلا في حالة إرسالها مسبقا . فإذا اقترب من المكان الجديد يتقدم بفرسه ليختار موقع الخيام ويجعل جمله يركع في الموقع الجديد . أما في حالة انتقال القبيلة بكاملها من موقعها ، ينتقل أولا المقاتلون برئاسة قائدهم على ظهور النوق مع خيولهم وأفراسهم وتكون فرقة من الكشاف قد سبقتهم لتستكشف الأرض الجديدة والمرعى والماء . فإذا تبين عدم وجود خطر أو عدو قريب تتبعهم الجمال المحملة بالأمتعة ثم النساء على أقدامهن وخلفهن يأتي الرعيان والأغنام ترعى في طريقها الى أن يصل الجميع الى مخيمهم الجديد .

وتنتشر خيام القبيلة في رقعة واسعة من الأرض كل مجموعة من الخيام التابعة لعائلة واحدة تبعد ما بين ٢٠٠ الى ٤٠٠ ياردة عن جيرانها . وينجم عن هذا الانتشار قصور في القدرة الدفاعية بحيث يصعب على المقاتلين أن يتجمعوا في حالة تعرضهم لغارة فجائية ولكن لهذا الانتشار فوائده في الدفاع السلبي بحيث تصبح كل خيمة مثل قلعة صغيرة لاطلاق النار على الغزاة .

في الموقع المختار تقوم النساء بنصب الخيام يساعدهن في ذلك الخدم والعبيد وأحيانا الابن الأكبر وهذه المهمة تعتبر من صميم عمل المرأة في الحياة ، كل نفر في العائلة يعطى مهمة يقوم بها ويوجه كل هذه المهمات والأعمال رئيس العائلة . وتقوم البنات عادة بطرق الأوتاد بينما يقوم الخدم من الرجال بتثبيت الأعمدة والدعائم . ويصدر صاحب الخيمة أوامره الى النساء والخدم كما يلي :

- أفراد الخيمة
- مدوا الحبال يا أولاد
- إنت وإنت ثبتوا الحبال في الأرض
- دق الأوتاد يا ناصر ولف الحبال حولها
- حصه ! وضحى ! شدوا الحبال
- يا مرزوق يا ناصر شدوا أطراف الحبل
- حطوا (وصلوا) المجادم
- انصبوا أعمدة الوسط . (عمل الرجال)
- انصبوا الأعمدة الخلفية والجانبية
- والآن شدوا جميع الحبال مرة أخري

ـ ووصلوا الرواق وغطوا طرفه السفلي بالرمل
ـ والآن وصلوا القاطع !
ـ وأخيرا : افردوا السجاد والفراش وجهزوا جناح الرجال والنساء
وتنصب الخيام ويجعل أحد جوانبها الطويلة مواجها لاتجاه الريح التي تهب من الشمال الغربي (الشمالي) أو من الجنوب الشرقي (كوس) . ويكون جانب الخيمة المواجه للرياح مقفلا دائما والجانب المظلل مفتوحا . فاذا تغير اتجاه الريح فجـأة ، وكثيرا ما يحدث ذلك في فصل الأمطار ، فمن الضروري تغيير اتجاه وجه الخيمة المفتوح حتى لا تنهار الخيمة . وفي هذه الحالة تهرع النساء والخدم ويلقون بالأعمدة (الأرماح) التي تدعم فتحة الخيمة ثم يفكون الستارة الخلفية لإغلاق الباب في وجه الرياح . ثم توضع الأعمدة الخيزرانية تحت أطراف السقف ، عامود تحت كل حبل . وفي النهاية تسحب القواطع وتقلب على أعقابها ثم تثبت مرة ثانية بجعل الأطراف المزركشة خـارج الخيمة ، وهذه العمليـة بأكملهـا لا تستغرق سوى وقت قصير .

أما في الصيف فيطوى القاطع الخلفي أو يفك من المشابك عدة ياردات فتتهدل أطرافها على الأرض ، واذا كانت الشمس ساطعة وحارة يوضع بساط تحت السقف لتخفيف الحرارة . بينما في الجو البارد تغلق مقـدمة الخيمـة بسحب الأطراف المزركشة التي تتدلى من القاطع عادة الى الخارج ، الى الداخل ووصل هذه الأطراف في وسط جانب الخيمة . ثم تدار أطراف الرواق فتسيج على الأجزاء المتطرفة من الخيمة وبهذه العملية يغلق مقدمة باب الخيمة بالكامل مما يبعث الاطمئنان والدفء في نفوس أهل البيت .

بعد أن يتم نصب الخيمة تضع النساء حاجاتهن ومؤونتهن في وسط الخيمة بما في ذلك هوادج السفر وأمتعة النوم والبطانيات والطعام ويضعن في أقصى الخيمة قدور وأواني الطبخ محولات ذلك الجزء الى مطبخ . وتوضع الأمتعة الثقيلة والأكياس التي تحتوي على الأرز والطحين والتمر والملح والسكر بجانب القاطع الذي يفصل جناح النساء والرجال ، وتعلق سروج الجمال وما تبقى من الأمتعة بما في ذلك بندقية صاحب الخيمة والذخيرة . وتلف الألحفة وتوضع فوق المستودع كما توضع هوادج النساء في مكان بارز في الجانب الآخرمن الخيمة بحيث تبدو على مرأى من عابر السبيل .

ويسمى الهودج الأكثر استعمالا في شمال شرق الجزيرة العربية وحول الكويت بالمقصر، * وهو عبارة عن هودج له غطاء تستعمله النساء .

(*) المقصر : كواجهة .

ويتكون من اطار على شكل سلة مغطاة بشال صوفي ملون ، تجلس فيه المرأة وطفلها مع أمتعتها الخاصة وعلى السرج يوضع فراش المرأة . ويتدلى على الجانبين جيوب السرج . ويصنع المقصر من خشب الطرفاء وشجر الرمان ، حيث يمكن للأخير أن يثني الى أشكال دائرية . وتشترى الأجزاء من المدن وتقوم النساء بصنع هوادجهن بأنفسهن فيوصلن الأجزاء ببعضها البعض ويغطينها بجلد الغزلان ويزخرفن مقدمة ومؤخرة الهودج . وهناك أنواع أخرى من الهوادج مثل ظله وهو قمرى الشكل وتستعمله نساء السعدون (الحكام السابقون لاتحاد منتفق الفرات) ونساء عنزة والظفير خلال المواكب . وهناك أيضا (جن) وهو عبارة عن هودج مربع الشكل تستعمله نساء قبائل شمر وعنزه والظفير . أما الرولة وهم بطن من عنزه فيستعملون (المركب) ولهذا المركب اطار خشبي مغطى بريش النعام . ويعرف بسفينة اسماعيل نسبة الى سيدنا اسماعيل عليه السلام تكريما له كأول نبي بدوي عربي . وعندما تكون قبيلة عنزة في حالة حرب تركب هذا المركب ابنة الشيخ وتتقدم الى وسط حلبة القتال لتثير حماس المقاتلين ليقوموا ببطولات خارقة . وأثناء القتال يقيد الجمل الذي يحمل المركب بسلسلة بحيث لا يستطيع التقهقر أو الهرب ، فإذا انهزم الرولة يتراجع مقاتلوها الى حيث المركب فقط . وهناك يجب على جميع المقاتلين أن يتجمهروا ويقاتلوا لآخر واحد فيهم اذا دعت الحاجة دفاعا عن المركب وعن المرأة القابعة في داخله . وحتى عام ١٩٣٤م كانت قبيلة العجمان ما تزال تستعمل المركب حين تخوض الحرب وتسمية المقصر أو المكسر .

ومن بين أهم ممتلكات النساء المغازل التي يستعملنها لغزل أصواف الجمال والأغنام في أوقات الفراغ . وهذه المغازل تستعمل باستمرار سواء خلال الموكب أو على ظهر الجمل وتبدو كجزء لا يتجزأ من عمل المرأة البدوية . أما طريقة الغزل فهي كما يأتي :

تحتفظ الغازلة بالصوف تحت ذراعها الأيمن أو في صدرها وتسحب بيدها اليسرى حوالي قدمين من الصوف . وتلف وتربط آخر خيط الصوف الى الجزء الأسفل من المغزل بحيث يمر بداخل ما يشبه السنارة على رأس المغزل . واذا كانت جالسة ترفع ركبتها اليسرى وتضع طرف السنارة فوقها وتبرم المغزل بكفها بخفة وسرعة . وترفع المغزل الذي يدور بيدها اليمنى بواسطة خيط الصوف . وما أن يجهز الصوف تقوم بلف الصوف المغزول حول الكوكب . ومن الأشياء الهامة الأخرى في جناح النساء قطع الخشب التي تشكل النول عندما تلقى فوق الرمال ، وبهذه المغازل تنسج قطع قماش الخيمة .

ويقفل على الأشياء القيمة مثل المال والقهوة وحب الهيل والسكر والملح والملابس الخاصة في صندوق تنك أو صندوق صغير من الخشب ، وتحتفظ المرأة بمفتاح الصندوق فتربطه بجزء من غطاء رأسها أو ملفعتها . وقد يوجد في جناح النساء أيضا (حبابه) وهي مرجيحة الطفل الصغير تنصب بين عامودين داخل الخيمة . وتحمل النساء أطفالهن عند الخروج على أكتافهن أو أوراكهن ، وفي الحسا في مهد يسمى (مزبع) تحمل المرأة طفلها على ظهرها .

وتوجد خارج جناح النساء قرب الماء التي توضع فوق شجرة العرفج الذي يحتفظ بالماء باردا . وبالقرب من ذلك يوجد جردل جلدي صغير وحبل لسحب الماء من الآبار كذلك يوجد حوض جلدي مثبت على ثلاثة أرجل خشبية تشرب منه الجمال والغنم . كذلك يوجد مرجل (شناقه) تعلق عليه قربة خض اللبن ويستعمل هذا المرجل أيضا لتعليق الخروف المذبوح عند سلخ جلده .

ويحتل جناح الرجال ـ في شرق وشمال الجزيرة العربية ـ الطرف الشرقي من الخيمة ، ويفرش في هذا الجناح سجادة أو سجادتان وفراش للجلوس وسرج جمل صاحب البيت مغطى بجلد الغنم الأبيض أو الأسود . ويتحول هذا الجناح الى غرفة نظيفة للضيوف عند حلولهم . ويجلس الضيف على الفرشة ويتكيء بكوعه على السرج . وتوضع المساند فوق الفراش ، كل اثنتين توضعان كفواصل بين الضيوف لتوفير متكأ لكل جالس . وتجدر الملاحظة أن البدوي يجلس متربعا أثناء سرده لأى قصة ويجثو على ركبته اليسرى . وعندما يغسل يديه يجلس القرفصاء وركبتاه متباعدتان . ويعلق رب البيت بندقيته على مشبك مربوط بعامود الخيمة ويجهز موقدا يحفره في الوسط على شكل دائرة لعمل القهوة . ثم يضع بجانب الموقد فناجين القهوة مع بقية العدة والبخور . وبذلك يكون المكان مهيأ لاستقبال الضيف فلا يبقى سوى احضار القهوة وحب الهيل والماء والوقود عند رؤية الضيف قادما .

ويصنع الرجال السروج من خشب الطرفاء بأنفسهم . ويزخرف (قربوس) مؤخرة السرج بالرصاص المصقول مما يعطيه منظرا فضيا . ويحفظ البدوي بندقيته في جراب من الجلد مزخرف (مزركش) بأهداب جلدية عند فوهة البندقية ويملك البدوي الى جانب البندقية خنجرا (خوسا) حادا من جهة واحدة فقط يستعمله دفاعا عن النفس أو لذبح الغزلان أو الغنم أو الجمال . كذلك يملك ما يماثل الخنجر يسمى (حريدي) يستعمله لذبح طيور الصيد . ويثبت الخنجر بإبزيم داخل الجفت والحريدي داخل كتف الجفت .

الشرف.. والضيافة

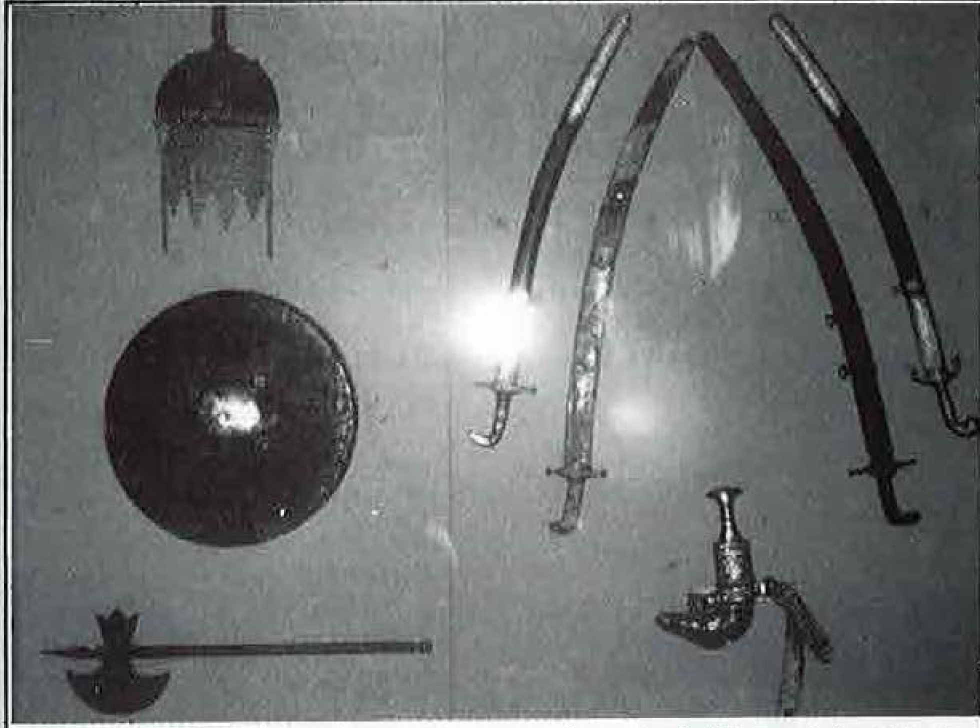
يعتبر الضيف ، عند العرب عامة وبدو الصحراء خاصة ، شخصا مقدسا جدا ويقتضي عرف الضيافة بأن يكرم هذا الضيف ويقدم له الطعام والشراب ويعامل معاملة لائقة حتى ولو كان غريبا أو من قبيلة غريبة .

ولا ينتظر من الضيف أن يفرض وجوده أو يستغل هذا العرف الا اذا كان فعلا بحاجة الى الطعام والراحة . فمثلا بعد يوم طويل من السفر يبحث المسافر عن خيمة يقضي بها ليلته فإذا ما أبصر واحدة يسمح له العرف بالذهاب اليها وطلب الطعام والمأوى . أما اذا كان على بعد ميل أو اثنين من مقصده فعليه أن يعمل جاهدا للوصول اليه بدلا من أن يفرض نفسه على غرباء قد يكونون أفقر حالا منه .

وعلى الغريب أن يتقدم الى الخيمة من بابها الأمامي حتى لا يتعرض للنساء اللواتي قد يكن مكشوفات أو يغسلن شعورهن أو يغسلن أواني الأكل وعليه ألا يجعل جمله يبرك قرب جناح النساء ، وانما على بعد مسافة بحيث يعطى النساء الفرصة لإسدال حجابهن ولباسهن . عند ذلك يخرج صاحب الخيمة فيدعو المسافر أو يبعث خادمه حسب ما يقتضيه وضع الزائر الاجتماعي والذي يبدو من خلال عدد وشكل حاشيته .

واذا كان صاحب الخيمة غير موجود فتخرج زوجته حاملة قدرا من الحليب تقدمه للمسافر أما اذا بدا لها أن العابر شيخ أو من قبيل ذلك تلوح بأحسن ثيابها علامة على ترحابها . كذلك عند عودة زوجها أو ابنها من رحلة طويلة أو من الغوص عن اللؤلؤ تعلق المرأة أحسن أثوابها وأكثرها رونقا وزخرفا فوق عامود أمام باب الخيمة . وتعلق نساء المدن في





هذه المناسبة أحسن أثوابهن فوق سطح المنزل على مرأى من الجميع .

اذا كان رب البيت موجوداً يقوم بنفسه باستقبال الضيف والترحيب به ويرد الضيف التحية بمثلها بدون الاشارة الى زوجة المضيف أو اى من نساء بيته وخاصة اذا كان لا يعرف العائلة . ومن جهة أخرى لا تقترب النساء من الضيف ولا يحاولن مخاطبته الا اذا مضى على وجوده يومان أو ثلاثة عندها يزول التحفظ نسبيا فيخاطبنه (بالاخ) ثم يؤخذ الضيف الى جناح الضيوف وتقدم له القهوة والطعام وفراش النوم . وعندما يخيم البدو فرادى فإنهم يحاولون بذلك اخفاء خيامهم عن الأنظار حتى لا يكشفهم العدو من ناحية ، ولكي لا يراهم مسافر فيفرض عليهم تلك الالتزامات الضيافية .

ويعتبر عمل القهوة للضيوف المهمة الوحيدة والهامة التي يقوم بها الرجل بنفسه ، سواء أكان الضيف قريبا أو غريبا ، وفي حالة الأمير أو الشيخ فيقوم بعمل القهوة بدلا منه خادم أو شخص موثوق به .

دعونا نتخيل بأننا قد وصلنا الآن الى بيت بدوي ميسور الحال . يعمل القهوة بنفسه . بعدأن برك جملنا على بعد من جناح النساء يقوم المضيف بالترحيب بنا واجلاسنا في جناح الرجال . تنتشر قطع السجاد الأنيق على الجانبين ونتكيء نحن على سروج الجمال التي وضعت بجانب القاطع الذي يفصل جناح النساء ، أو نجلس متربعين بانتظار حفلة القهوة ، في

نفس الوقت نستمع الى عبارات الترحيب التي تصدر عن مضيفنا (يا هلا .. طال عمرك .. حياك الله .. يا هلا ..) يتخللها نداءاته الموجهة الى رجاله في الخيمة لإحضار الروث المجفف وقطع الخشب لموقد النار والماء من الأوعية الجلدية قرب طرف جناح النساء . وفي الوقت الذي يصدر فيه أوامره بصورة سريعة ومتقطعة يجلس قبالة ضيوفه ويمطرهم بالتحيات والسؤال عن صحتهم ، ثم يقوم فينظف موقد النار في جناح الضيوف ويبدأ بملئه بالوقود .

والآن يجلس مضيفنا ويبدأ بالتركيز على عمله ويلاحظ بأنه لا يسألنا عن أعمالنا ولا من اين أتينا والى اين نحن قاصدون ، لأن في ذلك قلة أدب وعلى الضيوف أن يقوموا بإخباره إن هم أرادوا ذلك .

ويوجد الى جانب الموقد أربع (دلال) أباريق قهوة ذات أحجام مختلفة . ثلاثة منها قد اسوّد لونها من جراء اقترابها من النار والرابع (الذي تصب منه القهوة للضيوف) يظل براقا ولامعا . يضع مضيفنا هذه الأباريق صفا واحدا بجانب الموقد ويبدأ بإشعال النار . ثم يأخذ حبوب القهوة من كيس جلد الغزال المزركش ويجهز المحمصة والابريق الذي يحمص فيه القهوة ويد المحمصة التي يحرك بها القهوة . ثم يضع بجانبه وعاء الفناجين وهو صندوق نحاسي أسطواني الشكل تحفظ به فناجين القهوة أثناء السفر ، والهاون المصنوع من النحاس ، والمبرد وهو الطبق الذي يستعمل لتبريد القهوة بعد تحميصها ، والمخبط (خشبة لتحريك القهوة أثناء التحميص) ، وليفة (سعف من النخل أو القنب) يستعمل كمصفاة وأخيرا البخور .

وعندما يخمد لهب النار يملأ مضيفنا المحمصة بحبوب القهوة ويحملها بواسطة يدها الطويلة فوق النار وأحيانا يضعها فوق مقعد معدني من ثلاثة أرجل بحيث لا تلمس الجمر في الموقد . وعندما يصير لون القهوة بنيا يحركها باستمرار حتى لا تحترق ، بعد ذلك يضعها في المبرّد الخشبي لتبرد ثم يصب من الابريق الثاني (الخمرة) في القدر الثالث (وهي قهوة اليوم السابق التي أضيف عليها قليل من الماء) . يملأ القدر الثالث بالماء البارد يوضع فوق النار وما أن تبدأ (الخمرة) بالسخونة حتى تصب حبوب القهوة في الهاون وتبدأ أحب الموسيقى الى البدوي في العزف وهي صوت الهاون والمهباش (يد الهاون) . ويعتبر كل عربي خبيرا بطحن القهوة والتفنن في ايقاعات المهابش والهاون . وبعد عدة ضربات يهز مضيفنا المهباش من جانب الى آخر داخل الهاون لإنزال القهوة العالقة به في الوقت الذي تؤدي هذه الحركة الى قعقعة متقطعة . وقد تؤدي هذه الموسيقى (الايقاعات) الى قدوم مجموعة كبيرة من الأقرباء والجيران .

يستغرق طحن القهوة من خمس الى سبع دقائق تقريبا وما أن تغلي (الخمرة) حتى يقوم المضيف بصب القهوة المطحونة في ابريق القهوة بعناية بالغة ويحركها باستمرار بواسطة المخبط ويضعها فوق النار ثم يرفعها عن النار كلما أصبحت على وشك الطفو . وبعد أن تأخذ حاجتها من الغليان يرفعها عن النار ويهمس من فوق القاطع الى نسائه لمناولته حب الهيل . وترتفع يد صغيرة من فوق الستارة ببعض حبوب الهيل الثمينة ، فيضعها بالهاون ويسحقها قليلا ثم يضيفها الى القهوة .

ترفع القهوة من على النار ثم تحضر (الدّلة) الابريق المتألق اللامع . يرفع غطاء الدّلة ثم تصب فيها القهوة ، ثم تصب مرة ثانية في الدّلة السوداء الكبيرة ، ومرة أخرى بعد عدة ثوان تصب في الابريق اللامع . وتوضع الليفة في طرف (بزباز) الابريق . وفي نفس الوقت تؤخذ ثلاثة او أربعة فناجين من وعائها وتغسل بالماء البارد ثم يتناولها المضيف بيده اليمنى وابريق القهوة في يده اليسرى . ويقوم بصب قليل من القهوة لنفسه ويشربه وهو تقليد يؤكد خلوها من السم . ثم يقوم بصب بعض القهوة يكفي لبضع رشفات في فنجان أهم ضيف ثم يدور ببقية الضيوف يقدم لهم القهوة . وعندما ينتهي أول الشاربين من قهوته ، يأخذ المضيف الفنجان ليقدم فيه القهوة مرة أخرى ، بدون غسله ، ثم تتكرر نفس العملية حتى يكتفوا . والسلوك المهذب عادة يمنع الضيوف من شرب القهوة أكثر من ثلاثة أقداح من القهوة . ولكن اذا كان الضيف ذا مكانة خاصة يلح عليه بتناول قدح رابع وخامس . ويمسك العربي بالقدح بين إبهام وسبابة اليد اليمنى عندما يريد الاشارة الى تناول كفايته من القهوة يهز الفنجان الخالي هزات سريعة متلاحقة .

وعندما ينتهون من تناول القهوة يتحدثون لفترة ما ويتبادلون عبارات الترحيب ثم تقدم القهوة مرة أخرى . واذا لم يكن الضيوف مدعوين للطعام او لقضاء الليلة ، فأنهم يستعدون للرحيل . وقبل ذهابهم يرسل أحد أهل الدار الى خباء النساء لإحضار بعض البخور . وفي المبخر توضع (الجلة)روث الجمل المشتعل وفوقه البخور . ومن حين لآخر يتصاعد دخان معطر زكي ويمرر المضيف المبخر قريبا من أنوف ضيوفه وعند أطراف كوفياتهم أو في طيات عباءاتهم . ثم يرحل الضيوف في صمت .

وفي المدن تلاحظ مراسم مشابهة . ففي الكويت عندما يمر زائر عابر بمجلس الصباح لدى شيخ أو تاجر معروف يقدم له قدح من القهوة عند حضوره وآخر بعض عشر دقائق يتبعه المبخر . وفي مثل هذه الجلسات يتوقع انصراف الضيف عند هذه النقطة . والقول (ما بعد العود قعود) مثل بدوى شائع . وفي أقاليم شمال الجزيرة العربية وفي مصر تقدم القهوة التركية المحلاة المخلوطة بالثفل وعلى سطحها طبقة من الرغوة . ويقوم بإعدادها أحد الخدم في المطبخ بعيدا عن الأنظار .

ومن البدو من تستمر زيارتهم اكثر من عشر دقائق ـ ويتوقع أن يتناول الطعام أو قضاء الليلة ـ وتقدم القهوة على فترات متفاوته كل ربع ساعة تقريبا . وعندما يحين موعد الطعام ، اذا كان الضيف هاما والمضيف من الموسرين نوعا ما ، تذبح شاة وتطهى مع الأرز المخلوط بالزبيب واللوز وحلقات البصل . ويقدم كل هذا فوق صوان مطروقة نحاسية كبيرة ومستديرة (واذا كان المضيف يستحسن عادات وسلوك أهل نجد ، يثبت قاعدة منخفضة أسفل الصينية) توضع فوق حصيرة مستديرة . ويكوم الأرز المطبوخ فوق الصينية ويغطى بالصلصلة الصفراء المصنوعة من دهن الغنم . ويعلو ذلك خروف أو شاة صغيرة مسلوقة ، وعادة ما تكون ذكرا . ويطهى الأرز واللحم بطريقة بسيطة مع كمية كبيرة من الزبد المصفى (السمن) وعادة ما يكون اللحم عسير المضغ إلا اذا كان الخروف صغيراً . وأطيب قطع اللحم

وأرقها هي الشرائح الموجودة على جانبي العمود الفقرى وأجزاء الكتفين وأجزاء الفخد قرب مفصل الأرجل ، واللسان ، والكليتين وجانبا الفم والعينين كذلك من الأجزاء الشهية المعروفة . ويعتبر شحم الذيل من نصيب الضيف دائما الى جانب طبق اللحم والأرز يضع المضيف سلطانيتين أو ثلاثا من اللبن الذي يطفو فوق سطحه قطع من الزبد ، وكذلك صحنا أو اثنين من التمر .

وبعد تناول الطعام تقدم القهوة وهي بالنسبة للبدو مشروب عادي يصنع مع كمية كبيرة من حب الهيل . ومن آداب السلوك شكر المضيف بعد الغذاء مع مدح الطعام ومهارة ربة البيت في طهوه . ولا يأكل المضيف مع ضيوفه بل يتناول طعامه فيما بعد مع باقي أفراد الأسرة . واذا كان الضيف شخصية هامة فمن اللائق أن يترك عند رحيله هدية من الأرز والقهوة أو السكر لأهل الخيمة . واذا أراد أن يظفر بثناء أكثر فإنه يجلب معه أقمشة تكفي لصنع ستة أثواب لنساء الخيمة .

واذا كان الضيف بدويا فقيرا يقدم له عشاء مكون من الأرز المطهو بدون لحم مع بعض التمر واللبن . واذا كان هذا المضيف فقيرا فإنه يستقبل المسافر ويبذل أقصى جهده لاستضافته حتى ولو كان لا يستطيع تقديم إلا بعض التمر فقط .

ولا يقدم البخور أبدا إلا من قبل أصحاب الخيام المجهزة بكل الأدوات ، في هذه الحالة يقدم بعد تناول الطعام والقهوة . وبعض القبائل وخاصة قبائل المنتفق على شواطىء نهر الفرات ، يدققون كثيرا في اتباع تقاليد الضيافة لدرجة أنهم قد يجلبون الخراب لأنفسهم حتى لا يقال انهم بخلوا بشيء على ضيوفهم . فقد يمتلك الرجل شاة واحدة ولكنه يذبحها راضيا لإطعام ضيف غريب . وأولاد واصل في فرع (البرية) من قبيلة مطير لهم شهرة مماثلة في اكرام الضيوف ولهذا يحظون بكثير من الإحترام .

ومن العادات التي تتبعها بعض القبائل ، وخاصة الظفير ، وغالبا ما تزعج الجالسين لتناول الطعام . أنه عندما يجلس جماعة من الرجال لتناول العشاء ، اذا شبع أحدهم ونهض مكتفيا ، يجب على بقية الجماعة النهوض أيضا وغسل أيديهم دلالة إنتهائهم من تناول الطعام . ولتجنب ترك المائدة قبل تناول الكفاية من الطعام تكون النتيجة أن الضيوف يزدردون الطعام بطريقة مؤذية .

والمشروبات المفضلة بين أصحاب قطعان الغنم هي اللبن والروبة (اللبن السميك المخثّر) . والقبائل التي تملك الإبل يستطيعون عمل اللبن من حليب الناقة ، ولكنهم غالبا ما يقدمون حليب الناقة للضيف . اذ انه لا يحتوي على قشدة ولهذا لا ينتج عنه زبد ، وهو مسهل بعض الشيء ولهذا يستحسن تناوله بكميات قليلة .

وحفلات العشاء التي يقيمها سكان المدن أو العرب الأكثر ثراء ، هي مناسبة افخم مما سبق ذكره ويجهز الأرز بالطريقة المعروفة لأهل العراق وشمال ايران . فبعد سلقه يحمر الخروف بأكمله وذلك بتقليبه في السمن أو الدهن الحار . ويمكن شيّه في فرن الخباز وهذا ما يعرف باللحم المشوي ويوضع فوق الأرز طبقة رقيقة من الزبيب الحار ، والبصل المبشور المحمّر ، والحمص وتوابل

اخرى . وغالبا ما يقدم حب الرمان المجفف المبشور الذي يشبه البرغل . ويحاط كل ذلك بأطباق ، أو سلطانيات صغيرة ، مملوءة بأنواع أخرى من اللحم ، والخضراوات ، والفواكه (وعادة ما تتكون من شرائح البطيخ) . ويتصاعد عدد الأطباق مع أهمية وثراء المضيف . وفيما يلي أهم الأطباق التي تقدم :

المـــرق : شهيـة بنية اللـون مصنوعة من قطع صغيرة من اللحم والطماطم والباذنجان والبامية .

مرق الطماطم : مثل المرق السابق ويطبخ من صلصلة الطماطم والبصل .

شيـخ المحشي : قرع أبيض صغير ، أو يفضل الخيار الكبير الحجم المحشى بالأرز واللوز واللحم المفروم .

الدولمة أو البراغ : أرز مجروش ولحم ملفوف بورق العنب ، ويطهي بعناية .

الدولمة : بصل ملفوف أو ورق عنب كالسابق .

كبـــاب : خليط مفـروم من اللحم ، والأرز والزبيب . لذيذ الطعم والرائحة .

محلبية (مهلبية) : أرز مطحون أو نشا يطهي بالحليب ويجمل طعمه بحب الهيل وأحيانا بالفستق المفروم .

المهلبية والزعفران : كالخليط السابق ويمزج معه الزعفران ليصفر لونه .

الهـريس : نـوع من القمـح المجروش وثريد اللحم .

ويقدم مع كل هذه الأطباق صحون من التمر ، وسلاطين من اللبن ، والعنب وشرائح من البطيخ الأصفر أو الأحمر (في موسمها) مع رقائق كبيرة رفيعة مستوية من الخبز بدون خميرة ، أو خبز سميك مستدير مستوي يخبز في الأفران شائع جدا في الشرق . وكذلك أطباق مختلفة الألوان من الحلوى الرجراجة (الجيلي) .

والضيف الذي يبحث عن مكان للراحة عادة مايمكث ليلة واحدة ثم يرحل في الصباح الباكر . وهذا النوع من الإستضافة في الصحراء يحدث يوميا . ولا يجرؤ الضيف على محاولة دفع أي نقود ، اذ لن تقبل محاولة كهذه ، وعندما يزور شيخ أو رجل ذو سعة (ميسور الحال) خيمة رجل فقير فمن المتوقع أن يكافيء مضيفه بهدية نقدية أو منحة من الأقمشة عند رحيله أو عند وصوله الى داره . وثلاثة أيام هي الحد الأقصى لبقاء ضيف في ضيافة صاحب الخيمة . وإذا مكث ، مدة أطول فمن حق المضيف أن يسأله عن وجهته وأن يطلب منه المساعدة ويكلفه بعمل أي شيء . وعادة ما يكون هذا التلميح كافيا وينطلق الضيف المتقاعس في طريقه .

والملوك ، والأمراء العظام والشيوخ ذوو الشأن في الصحراء يلحون على ضيوفهم المبجلين في البقاء والتمتع بضيافتهم لمدة تصل الى عشرة أيام ، ولكن بعد ذلك يستأذن الضيف في الرحيل . وعنـدئذ يتبـادل الطرفـان الهدايا . وأتذكر في المناسبتين اللتين زرت فيهما الملك ابن سعود مع سير بيرسي كوكس (وكان في ذلك الوقت المندوب السامي في العراق) أن قام سير بيرسي عند رحيلنا بدفع مبلغ ٦٠٠ روبية هبة لخدم الملك وأتباعه ، بينما تسلم هو وجماعته من الأوروبيين فرسا وزيا عربيا كاملا لكل منهم ونال كل خادم عباءة وكوفية وعقالا . وفي يناير عام ١٩٢٦م قام بتوزيع ٣٠٠ زبون ، عندما زار ابن

سعود الكويت ، (وهي جبة من القماش الراقي) وعباءة على أتباع الشيخ ، واعطى مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ روبية كهدايا لمن يستحقونها ، ووزع بنفسه ١٠,٠٠٠ روبية على الفقراء ، وفيما بعد أتبع ذلك بإحدى عشرة سيارة هدايا لأقارب الشيخ . وقام الشيخ من جانبه بتوزيع ٩٥,٠٠٠ روبية ، منها ٢٥,٠٠٠ روبية لأبناء الملك ، وكذلك ٧٥٠ زبونا وعباءات لأتباعه . وتقديم الهدايا من جانب المضيف لضيفه هو امتياز خاص للمضيف إذا كان ذا شأن وضيفه فقيرا . وأي شيخ بدوي يأتي لزيارة الملك أو الأمير أو شيخ رفيع المكانة يتوقع استقبال هدية قبل رحيله ، تقديرا للرحلة البعيدة التي قام بها لتقديم ولائه وابلاغ (نقل) المعلومات .

وعادة الضيافة يمتد مغزاها وراء التقديم الفورى للطعام والمأوى ، فإن مجرد تناول الطعام والقهوة مع الضيف يعطيه الحماية والأمان من قبل مضيفه وحتى من أقربائه وقبيلته . وهذه الحماية تستمر ثلاثة أيام ، إذ من المعتقد أن ملح طعام المضيف يبقى في معدة الضيف خلال تلك الفترة . وبالمثل فإن الضيف ملزم بأن لا يصيب المضيف ضرر من جهة قبيلة الضيف . وقد سمعت عن رجل قدم ، خلال رحلته ، الى خيمة رجل من قبيلة أخرى وقضى الليلة هناك . وفي اليوم الثالث هاجمت جماعة من قبيلة الضيف خيمة المضيف واستولوا على خمسة جمال وفرس . وكان للمضيف حق عادل على الضيف فاستطاع استرجاع حيواناته بفضل تدخل الضيف . وفي مثل هذه الحالة لابد أن يقوم الضيف بتلك الإعادة (التعويض) ليس ذلك فقط ولكنه سيجد القبيلة بأكملها في صفه إذا كان من الضروري إرغام المغيرين الذين سرقوا الإبل . وبالإضافة إلى ذلك يعطي المضيف جملا أو اثنين إضافيين كتعزية (تعويض) عن خرق عهد الضيافة .

ويمكن مقارنة قوانين الضيافة بالقوانين الخاصة (بالرفيق) وهو رجل واجبه أن يقودك سالما عبر أرض القبيلة ، وحتى إذا كانت قبيلته على عداء مع قبيلتك أو أهلك ، وفي تلك الحالة يكون شرف القبيلة كلها في الميزان (في خطر) وليس شرف ساكن الخيمة فقط .

فمثلا إذا أراد رجل السفر من الكويت الى الحجاز فإنه عادة ما يختار (رفاقه)من المطير ، حرب ، عتيبة ، قحطان أو بعض القبائل المحلية لكي يقودوه عبر أراضي تلك القبائل التي تقع على الطريق . و(الرفيق) عادة ما يستأجر مقابل أجر بسيط وعندما يمر بك عبر أراضي قبيلته عليك أن تجد (رفيقا) آخر من القبيلة التي ستمر بأراضيها . وإذا تركك في تلك الأرض الغريبة يمكنك الحصول على تعويض وافر من الرجل وشيخ قبيلته إذا استطعت إثبات دعواك .

وإذا لم يستطع (الرفيق) لأي سبب من الأسباب مرافقة عميله فيكفي أن يعطيه عصاه ويحفر عليها العلامة المميزة (الخاصة) لقبيلته أو لبطن القبيلة المباشر . وعندما يعطي (الرفيق) عصاه للمسافر فإنه يخبر الجميع بأنه أعطى فلانا عصاه المميزة كضمان له . ولا أحد يجرؤ على المساس بالمسافر خلال مروره أو تواجده في (الديرة) التي تسكنها قبيلة (الرفيق) .

والقوانين المتعلقة (بالقصير) ، جيران خيمة الفرد ، لها مكانة أكثر تقديسا واحتراما من أى عادة أخرى تتصل

بشرف العربي ، بدون استثناء .

وبالتحديد ، فإن ساكن الخيمة هو (قصيرك) إذا نصب خيمته على مرمى (العصا) البعد الذي يمكنك وصوله إذا ألقيت عصاك أو مهمازك (عصاة جملك) . وقد أراني مدرب صقور الرشيدي في عريفجان في عام ١٩٣٢م المدى البعيد الذي يمكن أن تصل إليه تلك العصي إذا ألقاها رجل قوي ، ويقضي ذلك بأن من ينصب خيمته على ذلك البعد من بدوي أخر يصبح في واقع الأمر جارا له ويتمتع بإمتيازات (القصير) . والقصير في حماية الله ، وقد كتبت قصائد وحكايات كثيرة منذ قديم العصور عن الحقوق المقدسة (للقصير) ، وعن الطريقة التي يجب على العربي الشريف أن يعامل بها جاره .

وغالبا ما يعسكر أفراد نفس القبيلة معا وتربطهم صلات القرابة لمساندة بعضهم بعضا في جميع الأحوال ، ولكن قوانين (القصير) تنطبق بصفة خاصة عندما يأتي فرد من قبيلة غريبة ، وأحيانا معادية ، ويطلب السماح له بنصب خيمته قريبا من خيمة شخص أخر ، وينضم الى تلك القبيلة في ترحالهم . وإذا أجيب طلبه ، وهو عادة لا يرفض أبدا ، تسري عليه تلك الحقوق فورا ، رغم انه يفضل أن يقوم (القصير) ، إذا إستطاع مقابلة شيخ قبيلة حاميه ، بذبح جمل ويدعو الشيخ إلى وليمة عامة . وعندئذ يضمن الشيخ أن الجميع يعرفون أن الغريب صار في حماية القبيلة .

ويصبح جار الخيمة ضيفا على ذلك البدوي الذي سمح له أن يعسكر قريبا منه ويصبح (قصيره) . ويتمتع بإمتيازات خاصة ولا يخضع لقواعد وتعليمات قبيلة حاميه . ويجب على البدوي حماية (القصير) ضد جميع المهاجمين وبالمقابل فإن على (القصير) حماية وصيه ضد المغيرين حتى ولو كانوا من نفس القبيلة .

وإذا سرق حيوان او أى شيء من خيمة (القصير) واشتكى إلى حاميه ، فيجب على حاميه إما أن يستعيد ما سرق أو يعوضه عنه . وكذلك إذا هاجم المغيرون (قصيرا) واستولوا على إبله وأفراسه ، فيجب على حاميه أن يعوضه عنها من الغنائم التي يسلبها في غارته القادمة الناجحة . وإذا سرق لصوص الإبل جمالا من قبيلة مجاورة ، فلابد أن ينضم الوصي بنفسه في البحث واكتراء الرجال على حسابه الخاص للبحث عنها .

وإذا كانت هناك شكاوى ضد (القصير) فيفضل بحثها عن طريق الشخص الوصي عليه . ويقول الوصي (قاضيني ولكن لا تقاضي قصيري) فإنني أحل محله . وإذا قام (القصير) بقتل رجل من قبيلة حاميه وطلب منه المساعدة ، فلابد أن يساعده الوصي ويسعى في هربه الى بر الأمان ، حتى ولو اضطر الى الإستعانة بأفراد عائلته لهذا الغرض . وإذا قرر (القصير) دفع الفدية (فدية القتيل) فيجب أن يقوم الوصي بحمايته حتى تتم المفاوضات .

وإذا نشبت الحرب بين قبيلتي (القصير) ووصيه ونهبت الإبل من كلا الجانبين فهم في حل من إعادة الإبل إلا إذا صرح كلاهما علانية أمام شيخيهما بأنهما سيقومان بتعويض أى خسائر تقع على الطرف الأخر . عندئذ تقوم القبيلة المغيرة والتي استولت على جمال أو خيول من الطرف الأخر برد تلك الأسلاب إذا طلب منها ذلك . وإذا كان في خدمة الوصي بدوي غريب يرعى له إبله وغنمه وظهر

بعض من قبيلة ذلك الراعي واستولوا على القطيع ، فيجب على المغيرين إعطاء ثلاثة من النوق لرجال قبيلتهم ، واحدة للركوب وإثنتين لإدرار الحليب .

وبعض قبائل الصحراء ، وخاصة الظفير ، يفخرون بالشهرة التي اكتسبوها لحماية جيران خيامهم . وقد سمع جدعان السويط، شيخ الظفير ، أن أحد رجال قبيلته أطلق النار وتسبب في جرح رجل من قبيلة المطير وكان هذا الرجل (قصير) الشيخ في ذلك الوقت . وأمر الشيخ جدعان بإحضار المعتدى أمامه وقام بنفسه بالإطاحة برقبته بسيفه . وانتشرت أخبار هذه الحادثة بين البدو ، وأصبح جدعان حامي الشرف البدوي مشهورا كشهرة سلفه ، حمود بن سويط . فقبل أن يصبح حمود شيخا ، قام بقتل ابن عمه إرضاء لشرف القبيلة عندما هدد عمه على الملأ بخوزقة نفسه وذلك بالجلوس على سيفه إلا إذا أحضر ابنه أمامه وقتل بحضوره وذلك لقتله (قصيره) في عراك أحمق ! .

وذات مرة ، عندما كنت في الكويت ، كانت تسكن المنزل المجاور لمنزلي مطلقة تاجر لؤلؤ مشهور وابنتها التي تبلغ من العمر الخامسة عشرة . وقد طلب ابن عم لها الزواج منها ولكن الأم صممت على الرفض إلا إذا أعطيت مالا كافيا يمكنها من العيش بمفردها . واشتكى ابن العم لشيخ الكويت الذي قرر أن الشاب على حق وأرسل حرسه عدة مرات لإحضار الفتاة من منزلها ولكن في كل مرة كانت جارتي ترفض السماح لهم بالدخول .

وفي ليلة من ليالي يوليو الحارة كنت نائما فوق سطح داري الذي كان يطل على منزل جارتي . ولم تكن تنام فوق سطح دارها أبدا . وكانت الليلة لا يضيئها قمر ، وقرب منتصف الليل تقريبا استيقظت على صوت جارتي الذي انطلق في الظلام يناديني (أبا سعود ، يا أبا سعود) ، (استيقظ واسمع) . وأفقت من نومي تماما حينما أدركت أن هناك من يكلمني في صوت هامس عبر سطح جارتي على بعد خطوات . (ماذا حدث ؟) سألت محدثي (من هذا الذي أيقظني في منتصف الليل ؟) أجاب الصوت (أنا قصيرك ، وأناشدك أن تستمع الى .) . الآن عرفت من المتحدث الي عبر الجدار وسرعان ما ألممت بالقصة كلها . وفي النهاية قالت جارتي (آه يا أبا سعود إنني في كرب شديد ، أتوسل إليك أن تساعدني ، إنني قصيرتك ، جارتك .) سألتها ماذا تريدينني أن أفعل ؟) أجابت : (أن تذهب في الصباح وتخبر الشيخ أحمد عن توسلاتي ، دافع عني وعن ابنتي ، إذ لو أخذوها فإنني سأموت حتما . ولم تفد كل حججي بأنها ليست في حمايتي وليس ذلك من اختصاصي . وأجابت : (لا أعرف شيئا عن ذلك . كل ما أعرف أنك جاري .. والقانون يحتم عليك أن تهب لمساعدتي .)

وأخيرا وعدتها بأن أفعل ما أرادت ، وذهبت الى الحاكم ، معتذرا عن تدخلي فيما ليس من شأني ، ولكن بتوضيح أن المرأة طلبت أن تكون (قصيرتي) ، ابتهج الشيخ بدفاعي عن أحد رعيته المسلمين ضد قراره ، وقد تأثر بالطريقة التي احترمت بها إحدى نساء دياره وألغى الأمر الصادر سابقا وأعاد الإبنة الى أمها .

(الدخالة) هو قانون الدخول في حماية شخص ما متوسلا . وهذا القانون المقدس من عادات العرب ينتشر في الجزيرة العربية كلها والعراق ويقابل

بأقوى الإستجابة بين البدو ، وتعارضه القبائل المستوطنة أهالي المدن والعربي يطلب (الدخالة) بقوله : (أنا متوسل بك ، وأدخل في عفو الله وعفوك) . ويجب على الشخص الموجه إليه التوسل أن يحمي الشخص المستجير به ويقاتل من أجله ويبلغ به بر الأمان .

وإذا طورد شخص لإرتكابه جريمة فباستطاعته دخول خيمة (أو منزل) ويستجير (الدخالة .) . وعلى مالك الخيمة ليس فقط ضمان الحماية ولكن أيضا ، بعد إطعام الزائر وكسائه ، أن يأخذه الى المنزل أو الخيمة أو القبيلة حيث يعتقد المستجير أنه سيكون بمأمن فيها . وعند ذلك تنتهي مسؤولية الوصي .

وقانون (الدخالة) صارم جدا بين البدو لدرجة أن باستطاعة شخص يحمل عصا مميزة بعلامة الشيخ الذي احتمى به المرور بأمان في طول وعرض أراضي القبيلة ، رغم وجود أعداء له بينهم .

وقانون (الدخالة) يختلف في تفاصيله بين قبيلة وأخرى . وقد أخبرني شيخ المطير أن قبائل المطير وقحطان ، والعتيبة يمنحون قانون (الدخالة) لأي فرد من أبناء قبائلهم إذا إلتجأ بهذا القانون لمدة إثنى عشر شهرا و(الداخل) يستطيع التجول بأمان تام بين قبيلته خلال هذه المدة . وسمعت أن قبيلة عجمان لها قانون مماثل ولكن (الداخل) يجب عليه ألا يبرح المنطقة المجاورة لخيمة أو خيام من منحوه (الدخالة) ، ويجب عليه أن ينصب خيمته قريبا منهم مثل (القصير) . وهذا يعطيه حماية مزدوجة .

ومن ناحية أخرى فان قبائل شمر ، والظفير ، وحرب ، والعوازم تمنح (الدخالة) لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي فقط ثم يضطرون لمساعدة (الداخل) في الهرب الى مكان او شخص أمين . وتلك القاعدة يتبعها تقريبا كل قبائل ما بين النهرين في العراق . وليس باستطاعة المرأة منح حق (الدخالة) لأي شخص إلا إذا كان زوجها غائبا عن مضارب الخيام .

وأخبرني أحد الشيوخ أنه إذا قام مطيري بالأضرار (بالداخل) المحتمي بمطيري آخر ، فان من حق مانح (الدخالة) الإغارة على خيام المعتدي سبع مرات وقتل أكبر عدد من رجال عائلته ونهب قدر ما يستطيع من إبله بدون التعرض لأدنى عقوبة . ولكن لا يمكنه أخذ الإبل بل يجب عليه قتلها خشية اتهامه بالطمع فيها بدلا من الانتقام الذي أغار من أجله .

وفي الأقطار العربية الحديثة حيث حاولت السلطات القضاء على العادات القبلية ، فان ممارسة قانون (الدخالة) مكروه من قبل الحكام ويجده رجال البوليس انفسهم عقبة أمامهم . وأتذكر حادثة لم يقرها القانون أدت بخادم مخلص ومطيع لابن سعود الى المنفى . فقد اضطر صديقي الشيخ لا في بن معلث ، وهو من قبيلة المطير ، الى الهرب الى العراق لأن رجلا كان بوليس ابن سعود يطاردونه لاذ بخيمته وطلب حق (الدخالة) . وقد قاوم لا في كل محاولات البوليس لتفتيش خيمته بحثا عن الهارب ، ولكن لعلمه أن ذلك لن يغتفر له فقد هرب عبر الحدود مع كل أفراد عائلته المقربين . ولو كان البوليس قد انتظروا الأيام الثلاثة لكان من الممكن القبض على الرجل والإحتفاظ بولاء الشيخ .

وقريبا من قانون (الدخالة) فكرة (الوجه) والتي سنشرحها بصورة أوضح في كلامنا عن الحرب

الآن أوضح كيف تسبب قانون (الدخالة)

في إنقاذ ضابط بريطاني حيث استجار بذلك القانون لدى حسن أغا ، قرب السماوه على نهر الفرات . فقد بدأت ثورة ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ في الرميثة عندما اندفعت قبائل تلك المنطقة الى المعتمد السياسي وأطلقت سراح السجناء من السجن . وكان ضابط بريطاني شاب في طريق عودته الى الرميثة عندما أدرك أن هناك شيئا غير عادي ثم سمع طلقات رصاص وطاردته جماعة من الفرسان قادمين من جهة المدينة واستطاع الوصول الى حسن اغا ، وهو فلاح بسيط ذو شأن لدى الإنجليز . وكان حسن أغا غائبا عن الدار ولكن الضابط توسل بنساء المزرعة طالبا الحماية والمأوى . وأدخلنه عندهن وغطينه بعباءة . وعندما وصلت جماعة المطاردين ، طالبوا بتسليم الضابط الانجليزي ، ولكن النساء ـ زوجة حسن وابنتيه ـ صرخن واستغثن من هذا الانتهاك لحرمتهن حتى تراجع الفرسان .

وعندما عاد حسن أغا بعد غروب الشمس علم لدهشته بوجود الضابط الإنجليزي ومدح تصرف نسائه الباسلات . وخرج لتوبيخ الفرسان المهاجمين لإلقائهم الروع في نفوس نسائه ولعب دور الزوج الذي لا يهدىء ثائرته شيء . وأخيرا عند حلول الليل ، ملأ قاربه بالنباتات والحشائش وتمكن من تهريب الضابط الانجليزي المتنكر عن طريق النهر الى بر الأمان قرب جسر السماوه حيث قابله هناك حراس بريطانيون . وعندما كنت في العراق تمكنت من الحصول على مكافأة مجزية من الحكومة لحسن أغا عرفانا بصنيعه النبيل .

وقد لوحظ بالطبع مراعاة البدوي لسمعته الشخصية (الشرف) وسمعة نسائه (العرض) . ويضاف الى ذلك (الشيمة) وهو إحساس بالاحتشام والأمانة يذهب الى أبعد من حدود ما يعرف من قوانين الشرف القبلي أو الشخصي . وأروي القصة التالية لأوضح مثالا على ذلك ، وقد أخبرني بها عثمان الراشد من بريدة وهو يشهد على صحتها .

منذ سنين خلت ، في عهد ابن الرشيد ، عاش في بريدة شخص معروف من عائلة الربادي . وكان هذا الرجل في سعة من العيش ، ولكن مرت به أيام ضائقة بسبب كساد التجارة . ومن كل قطعانه بقيت لديه ناقة عجوز متهالكة قرر بيعها ذات يوم . ولهذا طلب من بدوي مسافر من قبيلة شمر أخذها معه ومحاولة بيعها وعند مروره مرة أخرى بديار حائل يستطيع تسليمه ثمنها . ووافق الشمري وأخذ الناقة معه . ولكن يشاء الحظ أن تكون الرحلة الى حائل قاسية لم تتحملها الناقة ومرضت ثم ماتت في الطريق . وقرر الشمري الشريف أن وبر الناقة ذو قيمة وسيحاول الاستفادة منه لصالح صاحبها ولهذا سلخها وملحها ثم رحل الى دياره .

وعندما نشبت الحروب بين الرشيد وأبناء آل سعودلعدة سنوات لم يعرف تاجر بريدة شيئا عن ناقته ونسيها تماما . وذات يوم بعد حوالي ثلاثين عاما ، أقبل عليه رجل عجوز وشابان صغيران وهم يقودون اثنين وأربعين بعيرا في أتم الصحة والقوة . وعرف أن الرجل العجوز هو التاجر الشمري الذي مر به منذ ثلاثين عاما مضت . أتى ليعطي تاجر بريدة حقه .

وقال يشرح المسألة (لقد ماتت ناقتك ، ولكني حصلت مقابل وبرها على عدة

ريالات أتجرت بها حتى استطعت الحصول على ناقة جديدة ولدت ناقة أخرى وكل تلك الإبل التي تراها من سلالتها . ولم أجد الفرصة قبل الآن للحضور لدفع ماأدين لك به وهو تلك الإبل .) !

الغزوات.. والحروب

في الصفحات السابقة تعرضنا لعادات البدو التي تؤثر عليهم في وقت السلم . وهنا سنستعرض القوانين والسلوك المتعلقة بالغارات (الغزوات) والحروب .

الغزوات هي نسمة الحياة بالنسبة للبدوي . فاذا منعت عنه أصبح أكثر الناس كآبة . فالغزوات ليست فقط هي الطريقة الوحيدة التي يأمل أن تتحسن بها أحواله المعيشية ولكنها أيضا المقابل لأنواع الرياضة المختلفة التي تمارس في العالم الغربي . وكذلك فهي ترمز بالنسبة للبدو لكل ما هو رجولي بطولي ورياضي . والمحارب المشهور يكرم قبل كل الرجال ، والصبيان يتوقون لليوم الذي يسمح لهم فيه بمرافقة الكبار في الغزوات ويكسبون صولات وجولات .

وغزوات الصحراء في معظم الأحيان لا تكون لإراقة الدماء وليس هناك في حروب الصحراء ما يسمى (قتال حتى الموت) أو (آخر نفس) دفاعا عن الزوجات والأطفال والمتاع . فقوانين الصحراء تضع المرأة البدوية وأطفالها الصغار في مكانة مقدسة لا تنتهك حرمتها . وإذا حدثت غزوة مفاجئة على مخيم واجتاحته جماعة من فرسان الأعداء فلا خوف على المرأة من كل ما يحدث وقد يقتل الرجال ويهرب الأولاد ولكن خيمة النساء في مأمن من الخطر . وفي مثل تلك الحالات تلوذ النساء بخيامهن يبكين وينحن ولكنهن يعلمن أن المنتصرين لن يمسوا شعرة من رؤوسهن . وقد أخبرني الشيخ حزام السعدون من قبيلة المنتفق ، وهو محارب معروف في الأيام الخوالي ، أنه في عام ١٩١٧ قتل واحدا من رفاقه في إحدى الغزوات لأنه في نشوة النصر نسي نفسه وحاول أخذ سوار من ذراع صبية من الجانب المهزوم . وهناك قوانين محددة تسمح للمغيرين المنتصرين ، بعد تطويق الإبل والغنم وسحبها ، بالاستيلاء على ممتلكات معينة مثل السجاد ودلال القهوة والخيام الإضافية والمواد الغذائية إذا كانت متوفرة بكثرة . ولكن يجب ترك خيمة رئيسية لربة كل عائلة وطعام كاف لمدة محدودة من الزمن . أما مجوهراتها وحليها فهي في مأمن وكذلك هودجها . وقد حدث خرق لتلك القواعد مرة واحدة في نهاية ثورة الإخوان في ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ .

ويعلم البدوي أن نساءه وأطفاله في أمان ولهذا لا يغامر بقتل محقق إذا كانت هزيمته مؤكدة ! ولهذا يترك إبله تنهب وهو يعلم أن دور إنتقامه سيأتي في يوم قريب . وهذا لا يعطي إنطباعا سيئا عن شجاعة العربي . فهو رجل شجاع مقدام ، ورغم أنه لا يتظاهر بمقاومة قوى



أعظم منه ، ولكنه سيحارب ببراعة إذا رأى أن كفة الحرب متساوية ومما يعطيه حماسا أكبر وقوة أشد صيحات تشجيع نسائه . وفي حالة قبائل العجمان والعوازم كانت النساء يجلبن الذخيرة والماء للمحاربين واشتهرت النساء بإظهار لا مبالاة رائعة بالنسبة للخطر وطلقات النار في تلك الأحوال . ولكن عندما يدرك البدوي أن الهزيمة محققة ففي تلك الحالة فقط يرى أن الحرص والحذر هما الجانب الأسلم من الشجاعة .

وتختلف الحرب عن الغزو في أن الحروب يمكن أن تقوم في وقت السلم وعندما تكون الحرب وشيكة الوقوع بين قبيلتين فيجب تحريك المسببات والعمل ببعض القواعد . أولا إظهار العداء ثم توجيه إنذار من القبيلة التي تنذر بالحرب الى خصومها إما برسالة خطية أو شفوية . ومن الجدير بالذكر أنه ليس من الشهامة العربية شن هجوم مفاجيء على حين غرة .

عندما توجه القبيلة إنذارها إلى الخصوم تضيف له : (فلان بن فلان شجاع الحرب سيحاربكم) . ويقوم شيخ القبيلة التي يوجه إليه الإنذار باستدعاء رجاله ومقاتليه وينبئهم بإعلان الحرب . ثم يملأ فنجانا من القهوة ويصرخ (هذا الفنجان يرمز لفلان وفلان من مقاتلي الخصوم ، من منكم سيشربه ؟ من سيصرعه بضربة واحدة ؟)ويجيب أحد الشجعان (أنا جاهز) فيقدم له الفنجان ويشربه . ومثل هذا يأخذ مجراه عند الخصوم أيضا . وهكذا تتواجه القبيلتان المتقاتلتان ويخرج فارسان من كلا الجهتين ويدور كل منهما نصف دورة في ساحة القتال ليستعرض فرسه وفروسيته ثم يبدأ بمبارزةخصمه من القبيلة الأخرى قبل بدء المعركة الكبيرة .

وأهم هدف تحققه القبائل من الحروب هو الاستيلاء على اكبر عدد ممكن من الجمال وإلحاق الضرر بالشباب من الأعداء . وقلما تحدث الغارات في الشتاء لثلاثة أسباب رئيسية ، أولا : كثرة المراعي في كل مكان وارتكاز القبائل القوية حيث ترعى جمالها ومواشيها يحول دون نجاح اى غارة فجائية ، ثانيا : لا يعود مطلب الماء من الاستراتيجيات المهمة حيث يتحكم في تحركات القبيلة نظرا لوفرته في كل مكان ، ثالثا : تستطيع أى قبيلة صغيرة كانت أو غير قوية أن تتفادى الأعداء بالتنقل المستمر وإخلاء المناطق الخطرة .

أما في الصيف فجميع البدو معرضون للخطر إذ يضطرون للتخييم حول الآبار بينما ترعى جمالهم على مسافات طويلة منهم . ويضطر البدو إلى ترك ماشيتهم وقطعانهم في عهدة دوريات لا تمنح الحماية الكافية ، فلو لم تتمكن الدورية من صد الهجوم في أوله يكون المعتدون قد جمعوا الماشية والرعيان وهربوا بها قبل أن تصل اى نجدة من المخيم .

ويعتمد البدو على عنصر المفاجأة في نجاح الغارة . فإذا شعر المغيرون بأن تحركاتهم مكشوفة تراجعوا بدون أى تردد . وللحفاظ على عنصر المفاجأة فإن اى بدوي يوجد في طريق الغارة يجبر على السير في صفوفها لئلا ينتشر الخبر . كذلك كثيرا ما يعمد القادة إلى تغيير خط إتجاههم بعد يوم من السير إلى إتجاه معاكس تماما . وتعتبر أنسب الأوقات للإغارة عند الفجر أو أثناء العواصف الرملية .

والغارات التي تشن من على بعد مسافات طويله تستخدم الجمال فقط

ويوجه المغيرون ضربة من على بعد مائتين وخمسين ميلا أو أكثر بعد سير يوم وليلة . أما الغارات التي تشن من مسافات قصيرة ، حوالي المائة ميل فتستخدم فيها الجمال والخيول على قدم المساواة . فارس خلف كل راكب جمل ، وتقاد الخيول لمسافة مرمى حجر من المكان المقصود ثم يترجل الفرسان عن الجمال ويقومون بتحميل ظهور الخيول بما يسلبونه ويقوم راكبو الجمال بدور القوة الداعمة التي تعمل كغطاء للفرسان ريثما يجرون جمال أعدائهم وينسحبون . ويحمل الماء للرجال والخيل على ظهور جمال مخصصة في كل أنواع الهجوم ، ولا تنال الجمال أى شيء إلا بعد الإنتهاء من الغزو .

ويشن الهجوم المنظم على المدن أو المخيمات المحصنة مشيا على الأقدام على شكل طوابير متتالية ويظل الفرسان وراكبو الجمال كاحتياطي . يتبع نفس الطريقة ضد العدو الذي إذا ما هوجم إتبع الخدعة الحربية المعهودة وهي الجلاء عن الآبار التي لابد وان يستريح حولها الغزاة .

لكل أمير عربي وقبيلة عربية صرخة حرب خاصة وللبعض عدة صرخات . وتطلق هذه الصرخات عند إحتدام القتال وخاصة اثناء هجوم الفرسان حيث تثير الحماس والاستبسال لديهم . وتهدف صرخة الحرب الى اثارة الرعب في صفوف العدو ، كما أنها تمكن المقاتل من تمييز الصديق من العدو في العراك الذي يعقب الهجوم حيث تكون الوجوه مغطاة فيما عدا العيون كما انه لا يوجد زي محدد يفرق بين الجانبين .

وفيما يلي نماذج لصرخات الحروب الخاصة ببعض القبائل الشهيرة في الجزيرة العربية :

آل سعود : (العوجا) ، أنا أخو نورا . أنا ابن مجرن .

الصباح : أنا ولد سالم ، أنا أخو مريم .

شمر : سناعيس .

عجمان : مفراس الحديد . وأنا ابن العجمان (صفار) . صافي الموت ، أنا أخو من طاع الله ..

(مطير) علوه : علوه ، أهل الرطاة

القبلان : خيال الصبحا ، القبلي .

الموهه : أولاد المويهي ، البطحا ، أنا ابن مدواش .

واصل : أولاد واصل ، آل رحمان ، وأنا ابن واصل .

بني عبدالله : أولاد عبدالله .

صعران : العشوى ، أنا ابن علي .

الصهبا : خيال صبحا مصهبي .

العوازم : عطوى ، أولاد عطوة ، وعادة تختصر بـ(أولاد عطا) .

الرشايدة : الدعيجي ، مر الدلالة الدعيجي ، خيال الصبحا الدعيجي .

حرب : أنا ولد علي .

عتيبة : أهل العطية (آل عطية) وأنا ابن روق .

سبيع : العرفا ، السبيع .

ظفير : الجروا ، سويطي ، صبحاتما .

معظم هذه الصرخات تثير حماس المقاتلين بأسم جد القبيلة المشترك مثل : (أنا ابن فلان وفلان) أو (أبناء فلان وفلان) . وتشتمل بعض الصرخات على إشارات محددة مثل : (الصبحا) عند القبلان فخذ مطير وهو اسم تل في نجد يقصده الناس كمنتجع . وفي صرخات الموهه : (البطحا) وكان اسم جمل

الدويش الخاص ، و (مدواش) اسم جد شهير ، و (العشوى) إحدى صرخات الحرب عند الصعران وهو اسم ناقة .

وإذا كان لابد من الاستسلام فان علامة الاستسلام المعروفة برفع اليدين إلى أعلى يوازيها عند البدوي إلقاء البندقية ووضع الابهامين داخل الفم ومد بقية أصابع اليدين الى الخارج باتجاه الخصم وهو ما يفعله الهارب اذا ما أيقن ان مطارديه على وشك الامساك به وقتله . وبهذا العمل يبين ان لا سبيل الى الفرار وأن الموت حليفه ، ولكنه مع ذلك يعتبر نفسه تحت رحمة الله ورحمة عدوه ، وغالبا ما تكون النجاة بنسبة تسع حالات من عشر .

ويمكن ان ينجو من الموت الرجل من الجهة الخاسرة اذا تعرف الى صديق قديم في صفوف الاعداء وطلب الحماية منه بقوله (بوجهك) . وفي حالة استسلامه لعدوه يناشده بالقول (انا دخيلك) أو (انا تحت رحمتك) . فاذا كان الشفيع المنشود صاحب نفوذ قوى بين رفاقه أجاب (لقد منحتك حمايتي . يدي فوق ذراعيك) ، وفي ظل هذه الظروف ينجو المستسلم من الموت بكل تأكيد ، ويعاقب كل من يؤذيه من القبيلة لانه بذلك يسود وجه الحامي الذي أعطى وجهه علامة العفو . أما اذا لم يكن الشفيع ذا أهمية تؤهله منح الحماية فإنه ينادي على المتوسل وينصحه باللجوء الى شخص آخر أكثر منه اهمية ونفوذا ويشير اليه بمكان وإسم ذلك الشخص .

وتتماثل أحكام الاستسلام مع أحكام الدخاله (الإستجارة) ، فالذي يستسلم يكون وضعه كوضع المتوسل ، ولا يجرؤ العربي على انكار هذه القضية . والفرق الوحيد بين الوضعين هو أن العدو عندما يطلب العفو في الحرب يمكن أن يستجاب رجاؤه أو لا يستجاب . ويمكن ان يضيف الحامي بعض الشروط (أضمن حياتك وبندقيتك ولكن لا أضمن فرسك) او (أضمن حياتك فقط ولا أضمن سلاحك أو فرسك) أو (حياتك رهن لقرار الشيخ) . وعموما اذا منح (الوجه) وجبت سلامة الاسير ، وان خرق أي رجل هذا العرف يخضع لغرامة كبيرة من المال والجمال وتظل فعلته هذه وصمة عار في جبينه أمام قبيلته التي لن تسامحه على ما اقترف .

ويعتبر فيصل الدويش الكبير ، شيخ قبيلة مطير من أبرز شيوخ الجزيرة العربية الذين عرفتهم.

وربما كان أعظم قائد وأبرع استراتيجي بدوي انجبته الجزيرة العربية بعد ابن سعود خلال القرن . كانت أول مرة لقيته فيها في أغسطس ١٩٢٩ في الصبيحية خلال حركة تمرد الاخوان.

كان فيصل الدويش عريض المنكبين ، قصير القامة رأسه وأنفه كبيران بشكل ملحوظ . وكان صارما وصموتا ، يندر أن يتحدث مع من حوله ، ومع هذا فقد كانت قبيلته (الدوشان) وقبيلة مطير بكل فروعها وأفخاذها تقدسه وتعتبره بطلا . وكان اذا مشي بدا ظهره محدودبا وعرج نتيجة جرح قديم في ساقه ، عبر الى الكويت مع جميع القوى المتمردة من مطير والعجمان وخيموا حول آبار الصبيحية ، كانت خيامهم تحصي بثلاثة آلاف خيمة وجمالهم بمئة الف ، وكان الجند يتضورون جوعا بعد أن نفدت مؤونتهم فتعشم الدويش شراء الطعام لهم من ميناء الكويت ، لقد كان منظرهم مشهداً مؤثراً لن أنساه مدى الحياة .

أبلغت الحكومة البريطانية بتدفق تلك القوات الهائلة الى أراضي الكويت وطلبت حكومتي مني إنذار فيصل بالانسحاب خارج الحدود خلال ثمان واربعين ساعة والا تعرضت قواته للقصف من قبل سلاح الطيران الملكي . طلبت من فيصل مقابلتي في أراضي ملح على بعد خمسة عشر ميلا جنوب مدينة الكويت ، واتجهت الى ذلك المكان دون الانصياع لنصيحة شيخ الكويت الذي كان يخشى الخيانة ، ولكنه في اللحظة الاخيرة تبعني ومعه أربعة من خدمه قائلا بأنه شعر بواجب مشاركتي قدري اذا مالحقني الاذى .

وصل فيصل إلى الملتقى يرافقه القادة الرئيسيون لحركة الاخوان . وبعد أن أبلغته بما يجب أضفت بأنني قد رجوت الحكومة البريطانية أن ترفع يدها لمدة يومين رأفة بالنساء والأطفال الذين يبلغ عددهم عدة آلاف ورجوته ان يعطيني وعدا بالانسحاب خارج الحدود خلال الفترة المحددة . وتكلم لمدة ساعة كاملة مؤكدا أن لا خلاف بينه وبين البريطانيين وانه وقبيلته موالون لشيخ الكويت منذ القدم ويريدون العودة الى حكمه . وقال بأنه ورجاله يعانون من نقص في الغذاء والمؤن .

كنت متشددا معه بالرغم من تأثري العميق ، وأخيرا أقنعته باعطائي الوعد بالانسحاب ، وكانت الشمس قد بدأت تحتجب خلف تلال المناقيش فقال فيصل بان وقت الصلاة قد حان وأخذ ينادي بنفسه على رجاله للصلاة . وضع كل رجل بندقيته أمامه على الارض حسب الطريقة الاخوانية الصحيحة وبدأت الصلاة تحت إمامته ، وما أن انتهت الصلاة وما زال فيصل العظيم راكعا على ركبتيه حتى استدار بوجهه نحو قادته وجنرالاته وأعطى السلام الذي تختتم به الصلاة ، بعد ذلك استدار نحوي وهو ما زال راكعا وقال (أعدك بشرفي أن أفعل ما طلبته مني ، إذهب بسلامة الله) .

التزم فيصل الدويش بوعده ولم أره مرة اخرى الا بعد خمسة أشهر عند استسلامه في الجهراء في يناير عام ١٩٣٠ ، يومها حاولت شق طريقي خلال قذائف الطائرات التي كانت تحاصر مخيمه ، وناشدته لمدة ساعتين الاستسلام لسلاح الطيران وعدم محاولة التقدم كما كان ينوي ، لقد كان وضع الدويش سيئا إذ أن دخوله لأراضي الكويت مرة ثانية جعله عرضة لحصار ومطاردة من قوات سلاح الطيران الأرضية والجوية ولما كانت فرصة النجاة ضئيلة فقد انصاع لنصيحتي وتقدم نحو مخيم ضابط العمليات العسكرية البريطانية وسلم سيفه .

قبل أن يتم نقل فيصل الدويش كسجين الى البصرة عهد الى بزوجته واخواته الثلاث وطفلين صغيرين وسبع وعشرين من أقربائه النساء ، وكانت وصيته الوحيدة (أبو سعود : اترك حريمي في ظل رعايتك وعهدتك الخاصة) . وقد تحملت مسئولية هاته النساء العربيات شريفات النسب وأطفالهن لمدة اكثر من شهر الى أن أرسل ابن سعود شاحنات وخدماً لنقلهن الى عاصمته . وكان لاهتمامي وزوجتي بهؤلاء السيدات النبيلات تقدير كبير لدى الملك الذي دفعته الشهامة العربية لحماية النساء . وقد شكرنا برسالة خطية حارة .

توفي فيصل الدويش في الأسر في الرياض عام ١٩٣٢ . وكان بدون أدنى شك قائدا عظيما حمل أفكاراً نبيلة

وعظيمة لمستقبل الجزيرة العربية .
عرفت كذلك الابن الأكبر لفيصل الدويش (عبدالعزيز) وكان شابا رقيقا منتصب القامة ذا شعر فاتح ، وكان يعرف باسم (عزيّز) . كان والده شغوفا به وقد قيل ان حركة الاخوان قد بدأت بالانحسار عام ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ يوم مقتل الشاب عزيز . وحسب قول مطير فإن الاب عندما سمع نبأ وفاة ابنه اصبح كئيبا نكد المزاج قليل الأكل يعتريه التردد والحيرة .

وبالرغم من وفاة عزيز وهو ما زال في الخامسة والعشرين الا انه أبلى بلاء حسنا بالاغارة مع والده ، وقصة إغارته الملحمية الاخيرة أخبرني بها كل من ابن عشوان والشيخ مطلق السور وفيصل بن شبلان الذين كانوا يرافقونه .

ففي منتصف شهر اغسطس من عام ١٩٢٩ قبل أن يحاول الاخوان المتمردون العبور الى أراضي الكويت قرر فيصل الدويش ان يبعث ابنه في غارة طويلة الى أرض قبائل حرب وشمر وجنوب مناطق عنزة بهدف إقناع المتشككين بان حركة تمرد الاخوان حركة جادة وقوية وان على اولئك المتفرجين ان ينضموا الى (الصفوة المختارة) ، ذهب عزيز بقوة منتقاة مكونة من ستمائة وخمسين راكب جمل مختار هم زبدة شباب مطير والعجمان ، ورحل عزيز جهة الشمال الغربي يرافقه عدد من المستشارين ذوى الخبرة الكبيرة للتأكد من أنه لن يجعل الحماس يطغى على الحيطة .

بدأت الفرقة المغيرة سيرها من (عرق) في منطقة الكويت المحايدة فاجتازت حفر الباطن الى اليمين ثم مرت عبر منطقة الباشوك وتركت آبار لينا الى اليمين وآبار الطربية الى الشمال ووصلت الى هازل (شمال حايل) ومن هناك اتجهوا شمالا الى آبار الليفية واستولوا على قطعان كبيرة من جمال شمر والعمارات وقافلة سعودية تقدر قيمتها بعشرة آلاف ريال ثم بدأوا بالعودة الى موطنهم . وفي طريق العودة مروا بـ (لوقا) على اليمين و (جميمه) على اليسار و(لينا) على اليمين . وكانوا ينوون التوقف عند آبار ام الرثامة جنوبي غربي منطقة العراق المحايدة لسقي جمالهم وما ان اقتربوا من لينا حتى سمعوا أن ابن مساعد قد قطع الطريق عليهم واحتل الآبار التي كانوا ينشدونها .

كان وقع هذا النبأ أليما وخاصة في مثل شهر أغسطس حيث القيظ الشديد والجمال عطشى لم تذق الماء لأربعة أيام مضت ، بدأت بعدها تهوى وتنفق من شدة الانهاك وبناء عليه عقد مجلس شوري أشار فيه فيصل بن شبلان الكبير بتغيير وجهة السير فورا ، للابقاء على حياتهم ، الى الشمال الشرقي باتجاه (الرقعي) في الزاوية الجنوبية الغربية من الكويت ، ومن هناك يحاولون الوصول الى المنطقة المحايدة جنوبي الكويت .

ايد ابن عشوان وعدد كبير آخر مشورة ابن شبلان الا ان عزيز قال : (إن الله في صف الاخوان ومن اصطفاهم الله ومن العار تفادي القتال) . ناشده الكبار العدول عن رأيه ولكن دون جدوى . وأخيرا جاء الكشافة بأنباء تقول بأن آبار أم الرثامة تسيطر عليها قوة كبيرة توازي عدد المغيرين . وهنا يتقرر من المقاتل المقدام ! فيصل بن شبلان صرح بانه ينوي الاتجاه برجاله نحو الشمال الشرقي على أية حال ودعا جميع الرجال الحكماء ان يتبعوه ..

رفض عزيز ذو الطبع الحاد اتباع ابن

شبلان . وهكذا رحل الاخير مع ابن عشوان وغيرهم يرافقهم مئة وخمسون رجلا ومئات من الجمال . تقدم عزيز على رأس خمسمائةرجل فقط بالرغم من أن جماله كانت منهكة وتحتضر فوصل الى منطقة الآبار في منتصف النهار وكانت هذه الآبار تحت سيطرة ما يزيد على الف وخمسمائة بدوي . كان الوضع بائسا والحرارة شديدة والجمال بحاجة الى ماء وجميع القرب الجلدية الاحتياطية قد نفذ منها الماء منذ وقت طويل ، ولم تذق قوات عزيز الماء خلال الثماني الساعات الماضية .

وعلى مرأي من العدو دعا عزيز رجاله الى التوقف وإقامة الصلاة . فركعت القوات الظمأى لأداء الفريضة وصرخ قائدهم (السنا من الاخوان ، ومن اصطفاهم الله ؟ سوف نحصل على الماء والله سيعين عبيده ..) . وبعد نصف ساعة ودع عزيز مهرته الغالية وتركها في عهدة أحد خدمه وطلب منه ان يحميها ما أمكنه ذلك ، وأمر رجاله بالهجوم بكل ما أوتوه من شجاعة واقدام ، وهكذابدأ الهجوم المريع لخمسمائة من الرجال الذين أصابهم الجنون من شدةالعطش .

كانت قوات الاخوان الشرسة على وشك كسب المعركة الا ان قوات ابن مساعد بدأت في التزايد باستدعاء المجموعات من الاحتياطي . وجاءت النهاية مع غروب الشمس القاسية التي لا ترحم ، واقتيد عزيز مع خمسة من خدمه الخاصين بعد أن خسر ما يزيد على ثلاثة ارباع عدد رجاله الذين لم ترهم العين احياء بعد ذلك وانما وجدت جثثهم وجثث جمالهم جافة في (الهجيرة) في الصحراء بعد شهرين من المعركة ، فقد قتلهم الظمأ . كانت النهاية البطولية لعزيز قد ملأت عالم البدو بالاعجاب .

استطاع عدد قليل من قوات عزيز الفرار الى جانب أولئك الذين رحلوا قبل بدء الهجوم . الشيخ مطلق السور ومجموعة من الرجال توقفوا على بعد خمسة أميال من مؤخرة الفرقة المقاتلة لحراسة الجمال المسلوبة ثم هربوا بها الى الجهراء بعد غروب الشمس . وهربت مجموعة اخرى عندما بدأ الظلام يخيم على ساحة القتال واختبأت بين كثبان الرمال حتى اليوم التالي . ولما كانوا على وشك الجنون من شدة الظمأ فقد عادوا عند الفجر طلبا للماء ولكنهم وجدوا قوة مؤخرة من شمر حول الآبار (فأعطتهم وجها) او (منحتم العفو) ولكنها جردتهم من أسلحتهم ، وبعد يوم تركت قوة المؤخرة الآبار لتنضم الى ابن مساعد كما انضم الى الرجال العزل هارب آخر اسمه شافي بحوزته بندقية وذخيرة ، ولما علم ابن مساعد بوجود أربعين من الرجال العزل عند آبار أم الرثامة بعث بستة من رجاله لقتلهم .وصل هؤلاء الرجال الى الآبار عند منتصف النهار فالتقوا بشافي الذي خبأ بندقيته وأفسح المجال للرجال الستة بالاقتراب ، وما أن بدأوا باطلاق الرصاص على الرجال العزل وقتلوا رجلين منهم حتى فر شافي فجأة من خلفهم مع بقية الرجال طارحا على الارض رجلين وجملا واستولى على جمل آخر محملا بأربعة قرب من الماء . وقد مكنت هذه القرب والجمل الثمانيه وثلاثين جريحا الذين بقوا على قيد الحياة من الوصول بسلام .

وأخيرا وصل خادم عزيز ومهرته الى الكويت عبر الجهراء في رحلة بطولية رائعة ، وبالرغم من ان المهرة تناولت شربة ماء واحدة فقط صباح يوم المعركة

الا انها قطعت مسافة مائة وثمانين ميلا من الارض الجرداء المكشوفة الى الجهراء خلال ثلاثة ايام بدون ماء. وعندما يكون الوقت في شهر اغسطس حيث تصل درجة الحرارة شمس الصحراء الى ١٧٠ درجة فرنهيت خلال النهار فهذه المهرة الفذة تصنف كأحسن فرس يقتنيه عربي ، بعد أسبوع من المعركة تم نقل هذه المهرة الى الكويت وكان من حظي ان توضع في اسطبل بالقرب من بيتي حيث قمت باطعامها ورعايتها لمدة ثلاثة اشهر.

لقد كانت حيوانا جميلا ذات فم وخياشيم صغيرة ، عيناها مستديرتان وكبيرتان تنم عن الحساسية والذكاء ، جبهتها عريضة ولونها كستنائي داكن وعمرها حوالي ثلاثة عشر عاما ، وعندما أحضرت الى ذلك الاسطبل كانت نحيلة عظامها بارزة ومصابة بجرح في وسط ظهرها ، وقد قمت وزوجتي برعايتها الى ان تحسنت صحتها ، فقد كنا نطعمها من أعشاب الفصفص والتمر المهروس والحليب ، بعد ذلك بفترة قصيرة بيعت سرا حيث طالب بها كل من ابن مساعد وقبائل مطير والظفير كحق مكتسب من خلال انتصارهم في المعركة . وفي النهاية اخذها مالكها الجديد الى العراق وقد شاهدتها عدة مرات هناك خلال السنتين التاليتين .

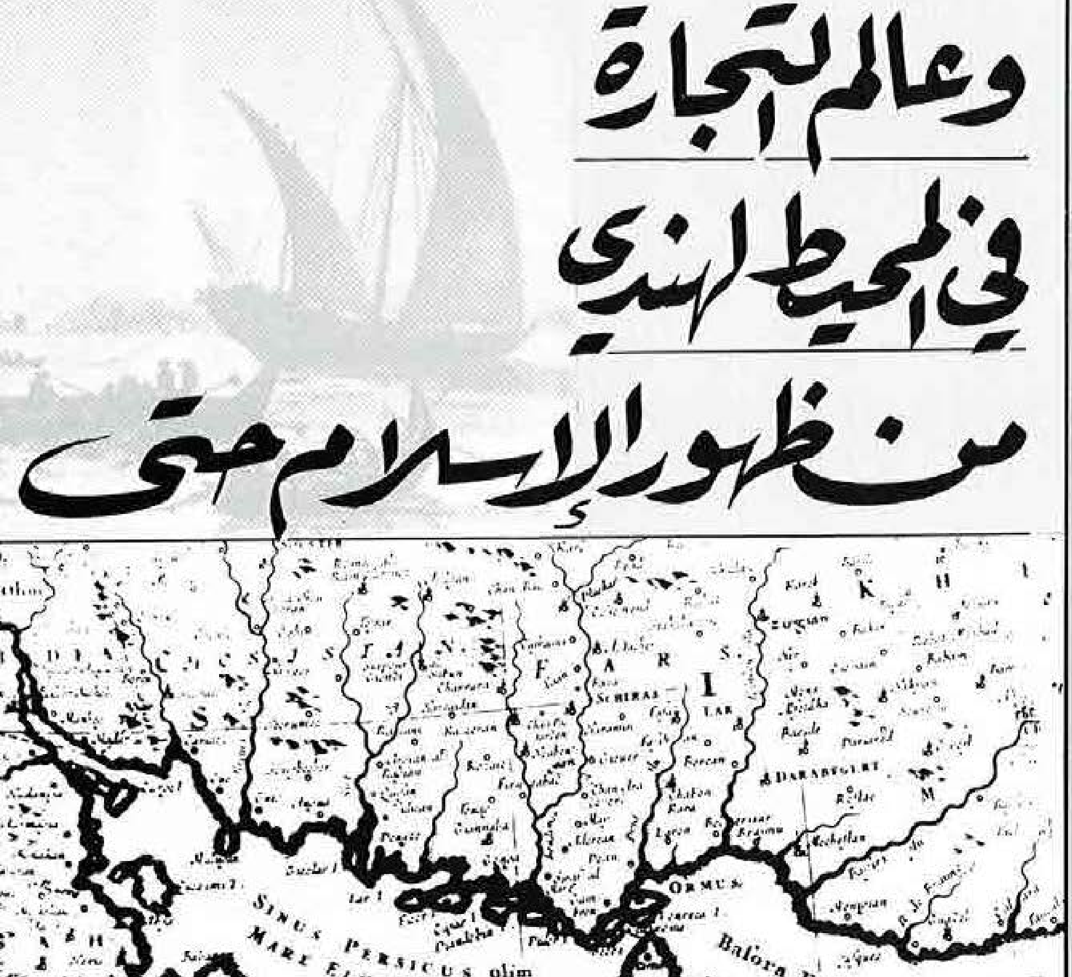
يتبع

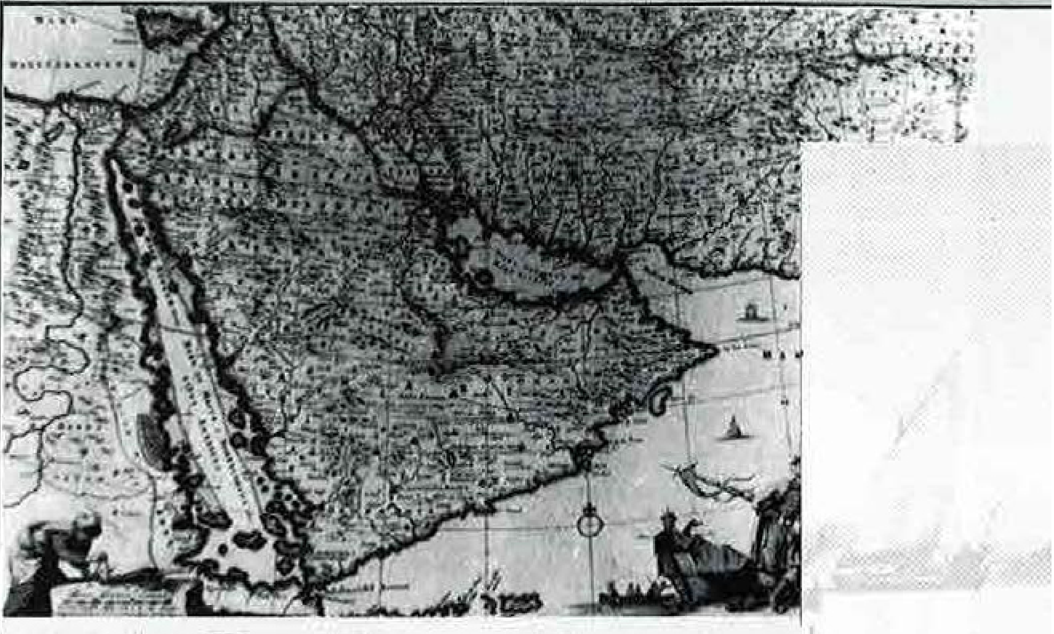
الخليج العربي

وعالم التجارة

في المحيط الهندي

من ظهور الإسلام حتى





بدايات الإستعمار البرتغالي

منذ أسس الرسول صلوات الله عليه الدولة الاسلامية في ٦٢٢ م وخلال قرن واحد من الزمان واجهت حضارات الشرق الأدنى القديمة ظاهرة تاريخية عربية تمثلت في ظهور نظام عالمي جديد . موحد سياسيا ودينيا واجتماعيا واقتصاديا يقوم على تعاليم الاسلام الفكرية والعملية وكان من النتائج المباشرة للوحدة الاسلامية التي امتدت من السند في غرب الهند وحتى جبل طارق على البحر المتوسط أن نشط التبادل التجاري عبر مسافات طويلة برا وبحرا[١] .

وكانت جذور الاسلام الروحية والاجتماعية حتى ذلك الوقت المبكر من الخلافة الأموية راسخة أساسا في المدن والحواضر .

بقلم : البروفيسور ك . ن . شودرى
أستاذ التاريخ الاقتصادي بجامعة لندن

ومن البديهي أن أية حضارة تعتمد على المراكز الحضرية تكون مضطرة الى الاعتماد على التجارة لتزويد أبنائها بالحاجات اليومية الضرورية . والكماليات اللازمة لأصحاب الحياة المرفهة . وقد أدى تأسيس المدن الجديدة في كل من العراق ومصر والمغرب وتطوير المدن الساسانية والبيزنطية التي دخلها الفاتحون العرب الى نتائج اقتصادية ملموسة في حجم وطرق تنظيم التجارة والنشاط التجاري في كل من الخليج والبحر الأحمر[٢] .

ويرجع تأسيس البصرة واعادة اعمار الأبله من جديد ليصبحا الميناءين الرئيسيين للعراق الى الحاجة الاقتصادية والسياسية الممثلة في ضرورة إقامة طرق مواصلات أمنه بين الخليج ودمشق التي أصبحت عاصمة الامبراطورية الاسلامية بعد عام ١٦٦١م [٣] وقد وضعت الأراضي الزراعية الخصيبه في السواد التي كانت تروى بالقنوات وكذلك القدرة العالية لوادى النيل في انتاج الاغذية ـ وضعت ـ في أيدي الحكام العرب موارد اقتصادية خصبه مما استدعى ايجاد المواصلات البحرية وطرق القوافل اللازمة لاستثمارها والاستفادة منها ، وكان البحارة الاقباط وصناع السفن لمصر والخليج يتمتعون بسمعة عالية لمهارتهم منذ القدم . واذا كان قادة الابل من البدو قد طوروا الكثير من طرق القوافل إلا أن الفضل يرجع للملاحين الذين جابوا المحيط الهندي والبحر المتوسط في إنشاء أول اسطول اسلامي للتجارة والقتال في وقت قصير ..

وقد أدرك الجغرافيون والمؤرخون العرب اهمية النتائج التجارية التي نشأت عن الوحدة التي خلقها الاسلام في المنطقة الممتدة بين الصين (المحيط الهندي) وبحر الروم (البحر المتوسط) . وان كانت مؤلفاتهم لم تجمع على ذلك حتى جاء القرن التاسع أو العاشر الميلادى ويعتبر المؤرخ المقدسى وهو سورى المولد من اكبر المؤلفين العرب المتقدمين ومن أروع مؤلفاته كتابة «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» حوالي ٩٨٠م وهو ليس كتابا عن جغرافيه البلاد الاسلامية فحسب وانما هو تحقيق دقيق في الموارد الاقتصادية لكل الولايات الكبرى الممتدة من سوريا وحتى خراسان[٤] وكان المقدسى مهتما بدرجة ملحوظة بالدور الذى يلعبه التمدن والتحضر في التجارة بعيدة المدى . والباحث الذى يفتش اليوم عن تعاريف المدن ورموزها سوف يجد أن المقدسى قد سبقه بألف عام في هذا المجال وسوف يجد أيضا أنه أورد تفاصيل شامله عن الموضوع في مقدمة كتابة عن قائمة طويلة من المدن التجارية في الامبراطورية الاسلامية .

وقد قام المقدسي بتصنيف المدن جغرافيا وحسب درجة إدارتها السياسية . فكان يعتبر العواصم كا لملوك وعواصم الولايات كأمناء المال والمدن الصغيرة كالفرسان والقرى كالمشاة . وقد استخدم كلمة «مطرانيه» ليصف بها احدى المدن حيث كان يعيش الحاكم الأعلى وحيث كانت توجد دوائر الحكومة التي يتم فيها اجراء مراسيم تعيين حكام الولايات . وكانت كل من دمشق والقيروان وشيراز من أمثال هذه المدن . وكانت بعض هذه العواصم من الضخامه لدرجة انها كانت تضم مجموعة من المدن مثل طخارستان في بلخ وبتانه في واسط بالعراق والزاب في افريقيا ومن الواضح أن أسلوب المقدسي في وصف العواصم الاسلامية ودورها الاقتصادي قد اعتمد على مشاهداته الشخصية خلال اسفاره عبر مناطق جغرافية شاسعة ومتنوعة وحدتها نظرية واحدة عن الحكومة والادارة السياسية والارتباطات الاقتصادية .

فما هي السمات البارزه لعالم التجارة في كل من الخليج والبحر الأحمر والمحيط الهندى من القرن الثامن الى القرن الخامس عشر الميلادى ؟

لاشك أن العلاقات الثقافية والتجارية بين الطرف الغربى لبحر العرب والهند قد قامت قبل ظهور الاسلام بوقت طويل . ولكن معرفة طبيعة هذه العلاقة بالضبط وتبين أبعادها وتفاصيلها في أواخر العصر الساساني يعتبر أمرا صعبا طبقا للمصادر التاريخية والأثرية المتاحة حتى الآن[٥] وان كانت الأمور قد بدأت تتضح ابتداء من أواسط القرن الثامن عندما بدأ التجار المسلمون يمارسون نشاطهم التجارى ليس فقط مع الديبل وهي الميناء الكبير قرب مصب نهر الإندوس بل أيضا مع ساحل المليبار في الهند[٦] وقد بدأت سفنهم تجوب هذه المياه وتوجد إشارات في المصادر الصينية المبكرة لعام ٧٥٨م عن ظهور ملاحين من العرب والفرس في كانتون[٧] وقد أمكن على ضوء التنقيبات الأثرية التي أجراها ديفيد وايت هاوس في سيراف وبدقة معرفة الزمن الذى قام فيه المسلمون بأسفارهم الى كل من الصين وشرقي افريقيا وهما منطقتان يفصل بينهما ستة آلاف ميل والى جانب المصادر التاريخية فقد تم العثور على دليل هام في هذا المجال اذ عثر على قطع من الخزف في سيراف التي كانت ميناء هاما وبارزا في القرن السابع وقد عثر على كميات كبيرة من الخزف الصيني في موقع المسجد الجامع الذي بنى حوالي ٨١٥ ـ ٨٢٥م[٨] وقد أدى إنشاء مدن كبيرة بالعراق كبغداد وسامراء الى تنشيط التجارة برا وبحرا في الخليج كما زاد الطلب على البضائع الفاخرة والسلع الكمالية من الهند والصين مما يدل على نمو كبير في

النشاط التجاري . وفي الربع الثالث من القرن التاسع زاد عدد التجار القادمين من الشرق الاوسط الذين أقاموا في الصين وواصلوا تجارتهم معها . ويقال إنه عندما قام القائد الكبير «هوان شاو» بغزو كانتون ونهبها في عام ٨٧٨م فقد قتل ١٢٠ ألف نسمة بينهم عدد كبير من المسلمين واليهود والنصارى والزرادشتيين[٩] وكانت رحلات المسلمين التجارية الى الصين مربحة جداً كما كانت بمثابة اختبار جدى للمهارات الملاحية للبحارة العرب والفرس في الابحار بعيدا عن السواحل . ومن ناحية أخرى فقد ساعد عدم الاستقرار السياسي في امبراطورية تانج الآفلة على نمو التجارة في ملتقى طرق التبادل الثقافي الذى كان ممثلا في ذلك الوقت في أرخبيل الملايو .

وقد اكتشف العالم العربي الموسوعى المسعودى اثناء احدى سفرياته حوالي سنة ٩١٤م أن السفن القادمة من سيراف وعمان في الغرب كانت تلتقى بالسفن القادمة من بحر الصين في مالابار بشبه جزيرة الملايو وكتب المسعودى في بحث رائع عن مستوطنة للمسلمين على الساحل الغربي للهند قائلاً : «كان عدد المسلمين في مستوطنة سيمور آنذاك ١٠ آلاف نسمه فيهم البياسرة والسيرافيون والعمانيون والبصريون والبغداديون وآخرون من مدن اخرى تزوجوا من المحليات واستوطنوا تلك المنطقة وكان منهم بعض التجار البارزين»[١٠] .

وبعد أن تدهورت الخلافة العباسية سياسيا واجتماعيا خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين استمرت بل زادت هجرة المسلمين الى الهند وشرق افريقيا . وعندما قام الرحالة المغربي ابن بطوطة بزيارة المحيط الهندي كانت مدينتان كبيرتان في شرق افريقيا هما مقديشيو وكلوه وكذلك ساحل ملبار قد اصطبغت كلها بالصبغة الاسلامية لدرجة كبيرة وقد سجل ابن بطوطه خلال زيارته تقديره للسلطان ابو المظفر حسن سلطان كلوه لهداياه السخية وأورد وصفا للمباني الرائعة التي شاهدها في المدينة . وعلى الجانب الآخر من المحيط الهندى كان ميناء كويلون على ساحل ملبار ملتقى هاما للتجار المسلمين والسفن الصينية الشراعية . وقد تبرع تاجر مسلم بارز في المدينة اسمه خواجه مهذب بالأموال اللازمة لاقامة مسجد جامع بها[١١] .

وكان برزك بن شهريار (حوالى ٩٠٠ ـ ٩٥٠م) على معرفة تامه بعالم الملاحه في كل من سيراف وعمان وجده وقد سجل تفاصيل وافيه عن مغامرات النواخذه الذين أبحروا من الخليج الى جنوب الصين . ورواياته التجارية البحرية مكتوبه بأسلوب شائق كأسلوب قصص البحار المثيرة للدهشة وهي تلقى الضوء على تجارة

العرب المبكرة .. وكانت سفن المسلمين التي تتاجر مع الصين والتي كانت تنطلق من سيراف وجدة تستغرق حوالى ثلاث سنوات في الذهاب والإياب مما كان له أثر كبير على التنظيم المالي للتجارة . وكانت سفرة واحدة عبر المحيط الهندى تقتضى وقفات طويلة في المرافىء الأمنه خلال تغير اتجاه الرياح الموسمية في مارس وسبتمبر . وكانت هناك بعض القيود المفروضه على نوع السلع وحجم الفوائد . وكان رأس المال المستثمر في الرحلة يظل مجمدا لثلاث سنوات مما استدعى أن يرفع التاجر من نسبة ارباحه وفي النهاية كان لابد أن تكون بين البضائع المشتراة نسبة من السلع الثمينه حتى تنخفض التكاليف الاجمالية للرحلة . غير أن الخيارات التي كانت مطروحة أمام التجار القدماء كانت محدودة جدا وخاصة في اختيار نوع السلع وكان نوع السفينة يتحكم في ذلك . فلو كانت السفينة مشحونة بكميات من السلع الثمينة وغرقت فإن الخسارة تكون باهظة ، ولو كان هيكل السفينة خشبيا فإن الأمر كان يقتضى شحن حمولة ثقيلة لحفظ التوازن في مخازن السفينة ، وكان أغلب التجار يفضلون أن يحفظ التوازن بشحنة ذات مردود اقتصادي على شحنة غير اقتصادية لذلك كانت السفن المبحرة لمسافات بعيدة في المحيط الهندى تحمل شحنات ثقيله ذات أحجام كبيرة لحفظ توازن السفينة ولتكمل بها حمولتها الاساسية من السلع الثمينه .

ومع ارتفاع مستوى الاستهلاك وتنوع أساليب التجارة كما وكيفا ونمو المراكز الحضريه في الشرق الاوسط وتزايد سكانها اختفت تدريجا تلك الرحلات الطويلة بين الصين وموانىء الخليج وظهرت المراكز أو المحطات التجارية التي تبيع مختلف السلع وحتى أواخر القرن العاشر الميلادي ظهر تجار أثرياء من الفسطاط وجدة وعدن وصحار والبحرين وسيراف والبصرة في كانتون وهانجشو بالصين الا انهم كانوا يتوقفون لفترات أطول في مينائى «كويلون وكاليكوت بالهند وكانوا يقومون بالتجارة في موانىء أخرى في ممر ملقا وفي هانوى في الهند الصينية وقد فضلوا بذلك الحصول على البضائع الصينية من المدن التجارية الوسيطه ومن هذه الفترة وحتى القرن الخامس عشر الميلادي كانت التجارة بين القارات عبر المحيط الهندى تتم عن طريق عدد من المراكز التجارية أما الموانىء التجارية في كل من الخليج والبحر الأحمر فسوف تلعب دورا هاما في الترتيبات الجديدة التي جاءت بعد ذلك .

ولا يجوز أن نفهم من الملاحظات العامة السابقة أن التاريخ التجارى للمدن المختلفة ظل ثابتا في مواجهة المتغيرات التي مربها العالم الاسلامي . بل لقد تغيرت اهمية الخليج والبحر الأحمر كطريق حيوى

للتجارة البحرية نسبيا في الفترة بين انشاء بغداد وقيام الخلافة الفاطمية في مصر (٩٦٩م) . فقد أدى تمرد الزنج وهم الأرقاء الافارقة الذين كانوا يعملون في المزارع حول شط العرب الى توقف تجارة البصرة بين عامي ٨٦٨م ـ ٨٨٣م . وابتداء من منتصف القرن العاشر واجهت الخلافة العباسية في بغداد أزمة حادة تمثلت في ظهور الخلافات الدينية وأصبحت البحرين واليمن وهما مركزان بحريان اسلاميان ملاذا آمنا للثائرين على الخلافة مثل القرامطة والاسماعيليين وانتشرت بهما واستوطنتهما اعداد كبيرة من الجماعات المناهضة للاتراك في الشرق الأوسط مما كان له انعكاس على استقلالية الخلافة العباسية . وكما ذكر المسعودى فإن بغداد والمدن الرئيسية الأخرى في العراق أخذت تواجه انهيارا اقتصاديا حادا في الوقت الذى زادت فيه أهمية مدن أخرى كعدن والفسطاط والاسكندرية على حساب التجارة الخليجية واستمر الحال كذلك حتى بدأ عصر التجارة بين البندقية ومصر ووصل البرتغاليون الى كاليكوت عام ١٤٩٨ م .

وقد استمرت المراكز الرئيسية البحرية في الخليج في تقديم خدماتها في منطقة التجارة البحرية الواسعة عن طريق القوافل التي كانت تصل الى داخل آسيا الوسطى ويدل التطور الفنى المتزايد في طرق الملاحة والنقل البحري الذى وجد في مختلف موانيء الخليج على وجود شبكة تجارية حديثة امتدت الى كل من الهند وحضرموت والحجاز وشرق افريقيا وان وجدت بعض السلبيات في مينائى البصرة وجدة ، ولم تكن الملاحة في الخليج سهلة وكانت المياه حول شط العرب والواحات العراقية الجنوبية ممتلئه بالعراقيل والعقبات . وكان البحر الأحمر في غاية الخطورة بالنسبة للملاحة والنقل البحرى . وكان اتجاه هبوب الرياح في كل من الخليج والبحر الأحمر يختلف عن اتجاهها المعروف في المحيط الهندى وكانت السفن القادمة من مختلف أرجاء بحر العرب لا ترغب في التوغل داخل الخليج أو البحر الأحمر وكانت السفن الكبيرة تجد من الأفضل والأسهل لها أن تفرغ حمولتها في ميناء يقع بالقرب من هرمز يكون فيه الماء عميقا . وكان هذا هو السبب في تفضيلها لموانيء سيراف اولا ثم قيس وهرمز وصحار والبحرين بعد ذلك .

واتخذ نظام التبادل التجاري عن طريق المستودعات شكلا ثلاثيا وكان القسم الأول ويضم الخليج والبحر الأحمر مرتبطا بكجرات والملبار في الهند . والثاني كان يضم قطاعا يمتد بين الهند ومضايق ملقا وسوندا في الأرخبيل الاندونيسي ويضم القسم الثالث الرحلات التجارية فيما بين الصين واليابان وكوريا وموانيء جنوب شرق آسيا .

وبهذه الطريقة مرت السلع الثمينة والبضائع الاستهلاكية سواء كانت من الشرق أو الغرب بالموانىء الوسيطة ونقلت من بيت تجارى الى بيت تجارى آخر ومن تاجر الى تاجر وتم استهلاكها في بيوت كل الناس سواء كانوا أغنياء أو فقراء . ويبدو منطقيا أن نظام التبادل التجارى عن طريق المستودعات وظهور الموانىء الدولية حيث يتواجد التجار من مختلف الجنسيات كان نتيجة الظروف الناتجه عن الرياح الموسمية ومشاكل الملاحة في المحيط الهندى . ويؤكد ذلك ما ورد في كتاب المؤرخ البرتغالى (توم بيرى) واسمه «سوما أورينتال حوالى ١٥٢٠م» من قوله : «نظرا لأن التجار من كل من القاهرة ومكة وعدن لم يكن باستطاعتهم الوصول الى ملقا خلال موسم واحد للرياح الموسمية فقد كان التجار الفرس والتجار من هرمز وتركيا وآخرون مثل الأرمن يذهبون الى مملكة كجرات في الوقت المناسب لهبوب هذه الرياح ويجلبون كميات كبيرة من السلع . وكان تجار مصر ينقلون البضائع الى الطور ومنها الى جدة ومن جدة الى عدن ومن عدن الى كامبى حيث يفرغون بها البضائع التي يقبل عليها الناس أما بقيه البضائع فكانت تواصل طريقها الى ملقا»(١٢).

ويرى «توم بيرى» أن الناس بصفه عامه كانوا يعرفون في ذلك الوقت أن السفر بين موانىء الشرق الأوسط والهند يعتمد كليا على مواقيت الرياح الموسمية وأن ذلك كان وراء إنشاء مدن مثل كامبى وكاليكوت وملقا . الى جانب أن الميناء الذى يستخدم كمستودع لتبادل السلع هو أمر معروف في تاريخ التجارة . ومع أن الجدول الزمنى للرياح الموسمية يعتبر تفسيرا لاختيار موقع ميناء ما مثل موانىء ممر ملقا الا انه لايقدم كل الأسباب لظاهرة التبادل التجاري عن طريق المستودعات وعلينا أن نبحث عن أسباب أخرى في الدوافع الاقتصادية والسياسية . فقد أدى اللجوء الى التجارة عن طريق المستودعات الى تخفيض أجور الشحن وتقليل المسافات التي كان على التاجر أن يقطعها فضلا عن تقديم خيارات أوسع أمام التجار سواء في البضائع أو الخدمات التجارية . وكانت المدن التجارية مثل سيراف والبحرين وصحار وكامبى وملقا محايدة سياسيا وكان يلتقى بها التجار من مختلف الجنسيات والأديان حيث يتمتعون بحرية التحرك والتصرف دون التعرض لأية أخطار . وقد أدى مناخ التسامح السياسي والثقافي الذى ساد المحيط الهندي إلى جعله منطقة ملائمة لممارسة الأنشطة السلمية الى أن تعرض هذا الجو الهادىء لهزه عنيفة بسبب البرتغاليين في القرن السادس عشر وان كانت القرصنة التي كانت تجرى بصورة منتظمة قد جعلت التجارة غير آمنه

كليا قبل ذلك الوقت .

وقد اعتمدت الحياة الاقتصادية في المدينتين التجاريتين الرئيسيتين بالمحيط الهندى وهما ملقا وكامبى على عدن وهرمز على التوالي . وكانت هناك مدن اخرى بالمنطقة نشطة ومزدهرة ومتطورة بنفس الدرجة على الأقل منذ القرن العاشر الميلادي فيقول المقدسي : «إن اليمن بلد واسع وقد قضيت عاما كاملا في زيارة مدنها التي وصفتها أنفا[١٣] وكانت «زابد» توصف بأنها بغداد اليمن وهي مدينة حسنه البناء وبها الكثير من الأمراء والتجار والمثقفين . وكانت «المخا» مدينة تجارية مزدهرة تنتج كمية كبيرة من زيت السمسم . وكانت «صنعاء» وهي العاصمة مشهورة ببساتينها وفاكهتها . أما في حضرموت فكانت «الشير» مدينه ساحلية تقوم بتصدير الاسماك كبيرة الحجم التي يتم صيدها من على الساحل . وكانت صحار في عمان ميناء رئيسيا تنطلق منه الرحلات الى الصين وكانت توجد بها أسواق جميلة على الساحل أما بيوتها فكانت عاليه ورائعة ومبنيه من الآجر وخشب الساج . وفي منطقة الخليج كانت الأحساء عاصمة هجر التي تعرف أيضا باسم البحرين تشهد حركة تجارية ضخمة وتشتهر بنخيلها ومغاصاتها . واخيرا ظلت كل من البصرة وبغداد مفتاحين للقطاع الشمالي من التجارة عبر القارات مرورا بالمحيط الهندى . وكانت المناطق المجاورة والاحياء التجارية في مدينة السلام معرضه للتخريب والغزو من الاتراك والمغول بين وقت وآخر مما أحدث دمارا للأراضى الزراعية في العراق لكن سرعان ما كانت المدينتان تستعيدان ازدهارهما بسبب موقعهما الهام .

إن موضوع التبادل التجاري للسلع الثمينة والعادية بين الخليج والمستودعات التجارية في كل من الهند وجنوب شرق آسيا والصين ذكر في كافة المصادر التاريخية واشتملت قوائم السلع على سلع ثمينة كالبخور والمر وعطر الورد واللآلىء والخيول الأصيلة والأقمشة الحريرية والحرير الخام والسجاد الى جانب التمور والفاكهة الطازجة والمجففة والجلود والقهوة . وكانت قيمة هذه المنتجات الشرق أوسطية تدفع بسلع اخرى كالذهب والفضه والمنسوجات الصوفية الفاخرة والمصنوعات المعدنية الأوروبية والعاج والأخشاب والأغذية من شرق آسيا والمنسوجات القطنية والاحجار الكريمة والحبوب من الهند والتوابل وخشب الصندل وجلود السلاحف من الأرخبيل الشرقي والخزف والحرير والشاى والكافور من الصين . وكانت الخيول العربية الاصيلة القادمة من الخليج رمزا للثروة الشخصية وللقوة العسكرية وقد نالت مغاصات اللؤلؤ في البحرين والكويت وكذلك المغاصات الواقعة في البحر الاحمر (عيذاب)

نفس الشهرة . وطبقا لما ورد في كتابات «ابن جبير» الرحالة الاندلسى (١١٨٣ - ١١٨٤م) فإن موسم صيد اللؤلؤ في الجزر الواقعة حول (عيذاب) كان يمتد من يونيو الى يوليو وكان الغواصون يخرجون في جماعات صغيرة في الزوارق لصيد المحار المزدوج المحتوى على اللؤلؤ . ولم تكن مهاد المحار عميقة وتعجب «ابن جبير» من أن الأماكن القاحلة مثل (عيذاب) استطاعت أن توفر لقمة العيش لسكانها بفضل الأحياء البحرية[١٤] وكان المقدسي قبل قرنين قد أشار أيضا الى مغاصات اللؤلؤ الواقعة في «أوال» وجزيرة «خرج» في هجر وذكر أن الغواصين كانوا يتعرضون لأخطار جسيمة من اللخمة وأسماك القرش . كما كتب المقدسى والكتاب الآخرون المعاصرون له عما يسمى «اللؤلؤة اليتيمة» الخرافيه التي لا يوجد مثيل لها في العالم . وكتب برزك بن شهريار بالتفصيل عن قصة العثور على هذا النوع من اللؤلؤ فقال : ان تاجر لؤلؤ عماني يسمى مسلم بن بشر فقد ثروته كلها وأصبح فقيرا معدما فأقنع زوجته ببيع مجوهراتها واستثمر ثمنها في تنظيم رحلة اخيرة للغوص . وطبقا للتقاليد المحلية اتفق مع الغواصين على أن الرحلة لن تتجاوز الشهرين وبعد أن أوشك الشهران على الانتهاء عثر الغواصون في اليوم الأخير على لؤلؤتين وكانت واحدة منهما «لؤلؤة يتيمه» باعها مسلم بن بشر لهارون الرشيد بمبلغ ٧٠ ألف درهم وباع اللؤلؤة الأخرى بمبلغ ٣٠ ألف درهم .

وفي منتصف القرن الخامس عشر طبقا لما ورد في كتابات ابن ماجد كانت حوالي الف سفينة بحرينية تشارك سنويا في عمليات الغوص[١٥] .

إن صادرات الشرق الأوسط الى مختلف بلدان المحيط الهندي سواء من حيث الحجم أو القيمة وخلال الفترة موضع الدراسة كان لها صلة بواردات الهند ونظام التخصص في مختلف أوجه النشاط الاقتصادي الهندي وكذلك النظم الاقتصادية التي كانت موجودة في البلدان الشرقية الأخرى . فقد زود النساجون الهنود الاسواق بكميات كبيرة من المنسوجات القطنيه سواء من الأنواع العادية أو الأنواع الممتازة وكانت كل مدينة في كوجرات والبنجاب وكورومندل على صلة تجارية بالخليج لها اسلوبها الخاص في انتاج المنسوجات ومختلف أنواع الأقمشة . فكان هناك النسيج القطني الرقيق الشفاف والملاءات الملونه والمزينه بالرسوم والمفارش والقماش المزخرف أو القماش المصقول كالورق أو القماش المزين برسوم خاصة مطلوبة لقبيلة ما أو مدينة معينه في الخليج . وكان نساجو الحرير في مدينة أحمد أباد مكلفين كل عام بصنع كسوة الكعبة المشرفة . وفي حين تخصصت الهند في صنع المنسوجات القطنية أو المخلوطة من

القطن والحرير تخصصت الصين في صنع الحرير الرقيق واحتكار صناعته أيضا . وقد زاد الطلب الخارجي على الحرير الصيني لدرجة دفعت الأمبراطور الى حظر تصديره بين وقت وآخر . وكان الخزف الأخضر الشهير والأطباق المصقولة والخزف الابيض والأزرق الذى يعود لسلالة مينغ من بين البضائع التي كانت معروضة للبيع في جميع الموانىء الرئيسية بالشرق الأوسط . ومجموعة الخزف الموجودة حاليا في متحف «طوب قبو» باسطنبول والتي نقلت أصلا من القاهرة حينما فتح العثمانيون مصر عام ١٥١٧م تعطي لنا فكرة عن أهمية الخزف في التجارة البحرية للصين والشرق الأوسط . وكانت بعض مكونات الأطعمة التي تقدم في أطباق الخزف الصيني تستورد من الأرخبيل الشرقي كما استخدمت التوابل الثمينة المستوردة من ملقا والقرفه المجلوبة من سيلان في إعداد الأرز واللحم ويقدم لنا كتاب عن الطبخ يعود للقرن الثالث عشر عددا من الوصفات التي كانت مستخدمة في بغداد وانواع البهارات التي كانت تستخدم في صنعها وهي وصفات لن يشعر الطهاة في الهند أو العالم العربي اليوم بغرابتها[١٦] مما يعنى أن فن الطهو الرفيع لم يتغير عبر ستة قرون . وكانت التوابل المجلوبة من اندونيسيا وساحل ملبار في الهند تشكل نسبة كبيرة من السلع التجارية التي تمر عن طريق عمان والبصرة في الخليج والسويس والاسكندرية في مصر .

وفي عام ١١٨٣ لاحظ ابن جبير أن شحنات الفلفل الأسود والقرفة كانت تنقل بين «عيذاب» والنيل بواسطة قوافل الجمال عبر الصحراء . وكان قائد القافلة اذا وجد أحد الجمال قد مرض ولا يستطيع اكمال الرحلة ينزل شحنة التوابل من على ظهره ويتركها في الصحراء حتى يستردها فيما بعد ولاحظ أيضا أنه على الرغم من كثرة المارة في نفس الطريق فإن أحداً لم يكن يمس هذه الشحنة على الرغم من معرفتهم بارتفاع قيمتها[١٧] .

إن الكتابات المعاصرة التي تعرضت لحجم واتجاهات التجارة البحرية في المحيط الهندى تثبت بما لايدع مجالا للشك أن الملاحين العرب كانوا قادرين على الابحار بسفنهم في أعالي البحار والأمر الذى مكنهم من ذلك هو درايتهم بالفلك ودقة معرفتهم لشكل السواحل ومعالمها إضافة الى المهارة التي اشتهر بها الملاحون العرب والهنود من «المعلمين» في القرن الخامس عشر والتي جاء ذكرها ليس فقط فيما كتبه احمد بن ماجد بل أيضا في وصف رحلة فاسكو دى جاما الأولى الى الهند . وقد استخدم فاسكو دى جاما في مالندى بشرق افريقيا مرشدا هنديا قاده عبر المحيط الهندي حتى وصل الى كاليكوت بسهولة ويسر . ويعود تاريخ الملاحة العربية الى زمن قديم وقد كان

أصحاب السفن المشهورين ينافس بعضهم بعضا في التنبؤ بالوصول بدقة الى مكان محدد من اليابسة اعتمادا على معرفتهم بالقياسات البحرية واتجاهات الريح وحركة الأمواج . مثال ذلك ما حدث في بداية القرن العاشر عندما كان النوخذة محمد بن بابشاد متوجها من فنسور في سوماطره الى عمان وعندما دخلت السفينة خليج البنغال سأله معلم السفينة عن المكان الذى سترسو عليه السفينة في نهاية الرحلة فأجاب النوخذة بأنهم سيرسون في «ريسوت» وهو ميناء يقع بين «شهر» و«رأس الحد» وقد اختلف معه المعلم وذكر أنهم سيرسون على ميناء آخر يبعد ٧٥ ميلا أسفل ريسوت وتراهنا على ٢٠ دينارا توزع على الفقراء . وبعد ١٥ يوما اعتقد المعلم بأنهم اقتربوا من المرتفعات العربية وفي اليوم التالي عقب صلاة العصر أعلن المعلم أنه يرى الساحل العربي ونظر الجميع ولكنهم لم يروا شيئاً وعندما صعد المراقب الى نقطة المراقبة صاح «الله اكبر» وردد كل البحارة الهتاف وراءه فقد شوهد البر وفي اليوم التالي ألقت السفينة مراسيها في أحد الموانىء ولم يكن سوى ميناء «ريسوت»(١٨) .

ورغم مهارة الملاحين والبحارة المسلمين الا أن المحيط الهندي ظل محيطا مليئا بالأخطار . وكانت الخسائر التي تسببها العواصف والقراصنة ما تزال تسبب القلق وتثير الخوف في قلوب التجار الآسيويين .

ويروى بزرك بن شهريار قصة تاجر من تجار الساحل الغربى للهند أعد سفينة للسفر الى عمان وكان الساحل الغربي للهند مشهورا في ذلك الوقت بخشب الساج الذى كان مطلوبا في الخليج لصناعة السفن وبناء البيوت وشحن التاجر قطعة كبيرة من خشب الساج حفر عليها اسمه في السفينة التي أبحرت الى عمان وعقب شهرين من رحلة السفينة جاءه شخص ليخبره أن قطعة الخشب عثر عليها على ساحل الهند وقد حفر عليها اسمه وذهب التاجر فوجد انها قطعة الخشب التي شحنها وكانت هذه الاخشاب الضخمة لاتوضع في السفينة نفسها وإنما تربط الى جانبها محمولة بالمياه وتصور التاجر أن السفينة قد غرقت بسبب العواصف ولكن لدهشته عادت السفينة من عمان سالمة . في البداية كان القطبان مترددا في الاعتراف بضياع الشحنة لكنه أوضح فيما بعد أن قطعة الخشب ضاعت في البحر بسبب العواصف الشديدة والتيارات المائية . وكان من حسن الصدف ان هذه العواصف نفسها هي التي حملت قطعة الخشب الضخمة عائدة بها الى ساحل الهند واذا كانت نهاية هذه القصة سعيده بعودة الخشب الى صاحبه الا أن كتاب بزرك بن شهريار يتضمن قصصا أخرى كثيرة ليست نهاياتها

سعيدة مثل هذه . القصة . ففي سنة ٩١٨م ابحرت سفينة لعبدالله جنيد من سيراف متوجهة الى سيمور (شاول) بالهند وكان برفقتها سفينتان أخريان وبعد ١١ يوما من السفر تعرضت السفن الثلاث لعاصفة شديدة ولم يكن هناك أي أمل في انقاذها وأمر القباطنه بإخلاء السفن وركب ٣٣ شخصا من البحارة احد قوارب النجاة وظلوا في البحر دون ماء ولا طعام مدة خمسة أيام حتى وصلوا الى البر أما بقية اطقم السفن الذين رفضوا ترك السفن فقد لقوا حتفهم . ومما لاشك فيه أن أمثال هذه الكوارث البحرية سببت خسائر مالية فادحة لتجار سيمور وسيراف .

واذا كانت العواصف البحرية قوة قاهرة تدخل في نطاق القضاء والقدر وتخرج من دائرة قدرة الانسان الا ان القراصنة كانوا خطرا بالإمكان التصدي له ومحاربته . ولم يستهن التجار الهنود والعرب أبدا بالخطر الذي كان يشكله القراصنة وانما كانوا يستعدون له . ففي عام ٩٢٩م كان صاحب سفينة اسمها «الاسماعلاوية» عائدا بسفينته من مضيق ملقا عندما تعرضت السفينة لهجمة من قراصنه الملايو . فتصدى لهم وقاومهم وبعد قتال دام ثلاثة أيام استطاع أن يحرق معظم سفنهم بسفينته وفي رحلة العودة قطعت السفينة الرحلة في زمن قياسي هو ٤١ يوما وقد استقبل سلطان عمان القبطان وافراد الطاقم استقبالاً حسناً وقدر ثمن شحنة السفينة بمبلغ ٦٠٠ ألف دينار وكان ذلك مبلغا كبيرا[١٩] .

لقد كانت عصابات القراصنه المنظمة في غربي الهند والخليج نشطة في هذه الفترة وقد اكتشف ماركوبولو في القرن الثالث عشر أن الاسطول التجاري في رحلته السنوية من والى الشرق الأوسط كان يرافقه دائما أسطول مسلح لحمايته ضد هجمات القراصنة[٢٠] . لقد كان تاريخ التجارة البحرية في الميط الهندى ابتداء من عصر صدر الاسلام وحتى عصر الاستعمار البرتغالى حافلا بالنشاط التجارى والازدهار الاقتصادي بين مختلف المجتمعات ولم يكن هناك أى توتر عقائدى أو سياسى بين مختلف الطبقات من التجار الذين كان لهم الفضل في تنشيط حركة التجارة ونشر الرفاه والازدهار اللذين كانت تعكسهما حالة المدن الاسلامية الكبيرة في ذلك الوقت بسبب العائدات المالية التي كانت تحصلها من تجارة الترانزيت وكانت هذه المدن مراكز تجارية حيوية في الحركة التجارية المزدهرة . ولم تكن المشاركة العربية في التجارة عبر القارتين الأوروبية والآسيوية لأكثر من ألف عام ترجمة لرغبة اسلامية في التوسع وإنما كانت تأكيداً على قدرة الاسلام في خلق عالم واحد تسوده ثقافة واحدة .

الهوامش

1. G.F. Hourani, Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times, Princeton, 1951, P. Crone, Meccan Trade and the Rise of Islam, Oxford, 1987; Ibn Ishaq, in English translation by A. Guillaume, The Life of Muhammad: A Translation of Ishaq's Sirat Rasul Allah, London, 1955, al-Tabari, Ta'rikh al-Tabari, Leiden, 1879.
2. A.M. Watson, Agricultural Innovation in the early Islamic World, Cambridge, 1983; H. Lammens, la cite arabe de Taif a la veille de l'heqire, Beirut, 1922; Ibn Khaldun, The Muqaddimah, English translation by F. Rosenthal, Princeton, 3 vols., 1967.
3. Donner, F.M., "Tribal settlement in Basra during the first century A.H.". in Khalidi T., ed., Land Tenure and Social Transformation in the Middle East, Beirut, 1984; The Early Islamic Conquests, Princeton, 1981; Naji, A.J. and Ali, Y.N., "The suqs of Basrah: commercial organization and activity in a medieval Islamic city", Journal of the Economic and Social History of the Orient, vol. 24, 1981, 298-309.
4. Al-Muqdisi, Arabic text in M.J. Goeje, ed., Bibliotheca Geographorum Arabicorum, Leiden, 1870-1906, vol. III; English translation by G.S.A. Rankin and R.F. Azoo, Calcutta, 1901; French translation by A. Miquel, Damascus, 1963.
5. A.H.M. Jones, "Asian trade in antiquity", in D.S. Richards, ed., Islam and the trade of Asia, Oxford, 1970; L. Casson, Ancient Trade and Society, Detriot, 1984; D. Whitehouse and A. Williamson, "Sasanian maritime trade", Iran, vol. 11, 1973, 29-49; J.C. Wilkin-

son, "Arab-Persia relationships in late Sasanid Oman", Proceedings of the sixth seminar for Arabian Studies, London, 1973, 40-51.
6. in H.M. Elliot and نزهة المشتاق، الادريسي On Daybul see, J., Dowson, the History of India as told by its own Historians, London, 1867-77, vol. 1,77.
7. Hourani, Arab Seafaring, 68, 76-7; Wang Gungwu "The Nanhai trade; a study of the early history of Chinese trade in South China Sea", journal of the Malayan Branch of the Royal Asiatic Society, vol. 31, 1958, 1-133.
8. R. Hodges and D. Whitehouse, Mohammed, Charlemagne & the Origins of Europe: Archaeology and the Pirenne Thesis, London, 1983, 143.
9. Wang Gungwu, "the Nanhai trade: a study of the early history of Chinese trade in South China Sea".
10. Arabic text and المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر French translation in C. Barbier de Meynard and Pavet de Courteille, Les Prairies d'or, 9 vols., Paris, 1861-77, II, 85-6.
11. Ibn Battuta, Rihla, ed., With French translation by C. Defremery and B.R. Sanguinetti, 4 vols., Paris, 1853-1914; English translation by H.A.R. Gibb, The Travels of Ibn Battuta, Cambridge, 3 vols., 1958-71.
12. Tome Pires, The Suma Oriental of Tome Pires: An Account of the East from Red Sea to Japan, written in Malacca and India 1512-1515, edited by A. Cortesao, Lisbon, 1944, vol. 269.
13. المقدسي، احسن التقاسيم ص ١٢٧
14. Ibn Jubayr, The Travels of Ibn Jubary, English translation by R.J.C. Broadhurst, London, 1952,64.
15. Buzurg Ibn Shahriyar, The المقدسي احسن التقاسيم ص ١٥٣ ابن ماجد كتاب الفوائد .213 , Book of Wonders of India, 78;
16. Muhammad Ibn al-Hasan, Kitab al-Tabikh, English translation by A.J. Arberry, A. Baghdad Cookery Book, Bombay, 1939.

17. Ibn Jubayr, The Travels, 61
18. Buzurg, The Book of the Wonders of India 53.
19. Buzurg, The Book of the Wonders 76
20. Marco Polo, The Description of the World, 410.

رواد الإصلاح في

محمد عبده

بيبليوجرافيا

٢

بدأنا في عدد سابق نشر هذه الدراسة عن رواد الاصلاح في العصر الحديث وقدمنا في الحلقة الأولى منها الرائد الفذ جمال الدين الأفغاني ونقدم في هذه الحلقة . وهي الثانية من هذه الدراسة . رائدا آخر عبقريا هو الامام محمد عبده .

للدكتور

فهمي توفيق

مقبل

يلف الغموض تاريخ ولادة الامام الشيخ محمد عبده ومكانها ، لكن العديد من المصادر الموثوقة ، يتفق على انه من مواليد سنة ١٢٦٦هـ/١٨٤٩م ، في قرية صغيرة من قرى مصر تسمى محلة نصر من أعمال شبراخيت بمحافظة البحيرة .

نشأ الشيخ محمد عبده وترعرع في بيت عرف أهله بسمو النفس ، وكرم الخلق ، واشتهر رجاله بالصبر على الأذى وقوة التحمل والتضحية في سبيل الحق ، حتى ضرب المثل بشجاعتهم وبسالتهم في مواجهة الطغاة والظالمين ، وكثيرا ما دفعوا ثمنا باهظا لقاء مواقفهم الوطنية والشجاعة . وقد ادرك محمد عبده في عقده الثاني عهد الظلم وفساد الحكم ، ورأى بنفسه الاجحاف المادي والمعنوي الشديد الذي لحق بأسرته ، وكيف يزج بأهله ومن يلوذ بهم في السجون حتى الموت ولا يخرجون منها إلا الى القبور .

العصر الحديث

...بده

١٨٤٩ - ١٩٠٥



هذه الطفولة الحزينة المقموعة ، التي مر بها محمد عبده صغيرا ، احتلت مساحة واسعة من تفكيره ، ورؤيته للمستقبل ، وانعكست على مجمل شئون حياته الشخصية والفكرية ، لكن من الثابت انه قد صاحبها دائما شعور بالاعتزاز بالمجد والاصالة ، وعدم الربط بين هذه الاصالة وبين الجاه المادي المتعلق خصوصا بالثروة وكثرة المال .

نهل الامام محمد عبده علومه الأولى في كتاتيب قريته ، وهو في سن السابعة من عمره ، حيث أتم فيها مرحلة حفظ القرآن وتجويده ، ثم انتقل الى الجامع الاحمدي بمدينة طنطا ، بادئا بذلك اول خطوة في مسيرته نحو الأزهر الشريف ، ليلتحق به في العام ١٢٨٢هـ/١٨٦٦م ، وفي أزهر القاهرة بدا الشيخ وكأنه يقف أمام أبواب مرحلة حاسمة من تاريخه ، تمثلت باتصاله بالداعية الاسلامي الثائر جمال الدين الأفغاني ، الذي كان قد وصل الى القاهرة للمرة الثانية عام ١٢٨٨هـ/١٨٧١م ، مقررا البقاء فيها ، وما كاد يلتقي الأفغاني ، حتى انبهر به أيما انبهار ، ثم أخذ يلازمه كظله ، حاثا طلاب العلم على حضور مجالسه وسماعه ، وتلقى العلم عنه ، آخذا هو بدوره عن استاذه ، العلوم الرياضية والفلسفية والكلامية .

ويكتشف الأفغاني في تلميذه الشيخ عبده ، حلمه الكبير ، في بناء

التنظيم المنشود والأرضية الصلبة للتحرك نحو الأهداف المرجوة، فيصب من نفسه في نفس تلميذه المتقدة من الشجاعة والحماسة ما يضمن لها سرمدية الاتقاد ولتترك أثرا بعيد الغور في سجل اعماله الخالدة. وقد ظهرت بواكير هذا الاثر جلية، في كتابات عبده لجريدة الأهرام القاهرية، ثم ابان تسلمه لرئاسة تحرير الوقائع المصرية سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠م، ووصلت ذروتها بمشاركته في الثورة العرابية ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م.

تخرج الامام محمد عبده في الأزهر الشريف وحصل على شهادة العالمية سنة ١٢٩٤ هـ/ ١٨٧٧م، بادئا أولى خطوات مسيرة حياته العلمية مدرسا في دار العلوم والأزهر ومدرسة الالسن في القاهرة، وعلى هدى من خطى استاذه بدأ يشن حملة انتقادات بناءة لاذعة، كان حظه منها مثل حظ الأفغاني نفسه، إذ جر عليه منهجه الاصلاحي هذا، غدر السلطات وغضبها، حيث لم يرق لها هذا التشخيص، واسلوب العلاج الحاسم للمشكلات التي يعاني منها المجتمع! وانتهى الأمر بتسفيره الى قريته، وفرض الاقامة الجبرية عليه فيها..

ومما زاد الطين بلة، والمحنة سوءا تزامن هذه الرزايا مع صدور قرار نفي استاذه الأفغاني سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩م من مصر حيث بدأ الأفغاني - بعد ان عاد الى نقطة الصفر - رحلة شتات جديدة في الهند واوربا.. أما الشيخ محمد عبده فسرعان ما تدخل مريدوه وعارفو فضله لدى رياض باشا، ناظر النظار، الذي استصدر بدوره عفوا عنه من الخديوي توفيق (١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م) واستدعاه من قريته ليعينه محررا في الوقائع المصرية، حيث انتهى به الأمر في العام نفسه ليصبح رئيس تحريرها.. لكن النفوس الأبية ترفض المهادنة والمساومة وتأبى لنفسها موقفا لا ينسجم مع مبادئها وقيم دينها وأمتها.

لذا والحالة هذه كان لا بد من أن يقف عبده نفسه - كما هي عادته - الى جانب الشعب، مشاركا في الثورة العرابية وصانعا لأحداثها ومخططا لها.. لكن الثورة التي نيطت بها آمال الأمة، سحقت تحت سنابك الانجليز واعوانهم من الخونة والمارقين.. والقي القبض على الشيخ محمد عبده مع من قبض عليهم من قادة الثورة ورجالاتها... وحكم عليه وعلى عدد من قادة الثورة بالنفي خارج الوطن، فاتخذ عبده من بيروت محطته الجديدة لتضميد الجراح والتقاط الأنفاس وللانطلاق من جديد مستأنفا مسيرة كفاحه، وفيا للمبادىء الشريفة

التي عقد النية للدفاع عنها مهما كلفه ذلك من تضحيات .. وما ان استقر به المقام في بيروت ـ التي وجد من اهلها حسن الاستقبال وطيب الاقامة ـ حتى لبى نداء الواجب الذي دعاه اليه استاذه الأفغاني ، حيث كتب اليه يستدعيه للحاق به الى باريس ، وذلك في اواخر سنة ١٣٠١هـ/١٨٨٢م ، ليؤسسا معا في المنفى جريدة «العروة الوثقى» ، التي كانت اول صوت اسلامي مطبوع في فجر النهضة الاسلامية الحديثة ، وتعد اللبنة الأولى في اساس هذه النهضة .. وقد صدر من هذه الصحيفة ١٨ عددا ، كان اولها بتاريخ الخميس ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ/١٣ آذار (مارس) ١٨٨٤م ، وآخرها بتاريخ الخميس ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١هـ/١٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٨٤م . وقد استطاعت العروة في هذا الزمن القصير من عمرها ان تصبح لسان حال الآلاف من احرار المسلمين ، ومفكريهم ، وعلمائهم .. ولكن القوى المعادية للصوت والحق الاسلامي العادل ـ وعلى رأسها الحكومة البريطانية آنذاك ـ أمرت بمصادرة اعدادها ، ومنعت دخولها الى سائر مستعمراتها ..! بعد ان لاحظت هذه القوى ان «العروة» استطاعت ان توصل الصوت الاسلامي ، وتسمعه مدويا للعالم أجمع ، موقظة الغارقين في سبات الجهل والاستسلام للعبودية ، مستنهضة الهمم لمكافحة الاستعمار وفضح دسائسه والتشهير بجرائمه والتنديد باحتلاله ، مؤججة روح الثورة في نفوس العرب والمسلمين ، رامية الى بث الوعي في العقول ، والى بناء الانسان القادر على مواجهة التحديات وصعاب الأمور .

بعد توقف العروة عن الصدور ، غادر الشيخ عبده باريس ومنها الى بيروت سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م ، ليكون هذا التاريخ آخر عهده باستاذه الأفغاني ، لتقتصر علاقتهما ـ نتيجة الظروف القاهرة ـ على المراسلات التي شكلت الحد الأدنى للتواصل الفكري والانساني بينهما . وبعودة عبده للمرة الثانية الى بيروت ، عمل على وضع توجه وأسس جديدة لتحركه في اتجاه الاصلاح المأمول مستفيدا من خبراته السابقة خير فائدة .. وفي هدي هذا التحرك الجديد ، شغل وقته ـ خلال الأربع السنوات التي قضاها في منفاه الاختياري (بيروت) ـ بالعمل الثقافي والتربوي والفكري والسياسي ، وتحقيق كتب التراث ، وتأسيس الجمعيات الخيرية .. كما أسس جمعية سرية هدفها التقريب بين الأديان ، وفي هذه الفترة استقر رأيه على مفهوم جديد للاصلاح ، يوصل لتحقيق التغيير المنشود ، يتم

بواسطة التربية والتعليم ، وهو المفهوم الذي بقي ثابتا عليه حتى وفاته .

وفي ضوء هذا الهدف سعى للعودة الى مصر ، وبتوسيط أهل الحل والرأي ، تمكن في سنة ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م ، من الحصول على عفو من الخديوي توفيق يسمح له بالرجوع الى وطنه .. وبعد ان مر بمرحلة اختبار قاسية ، متعهدا بالابتعاد عن السياسة واهلها شرع بتطبيق منطلقاته الفكرية ، مصلحا بواسطة التربية والتعليم ، فاشتغل باصلاح المؤسسات التعليمية والتربوية والاجتماعية الثلاث : الازهر والأوقاف والمحاكم الشرعية .. ولم يكن هذا وحده كافيا ليشبع نهمه بالاصلاح المنشود ، فشارك بقوة وفعالية في الحياة العامة ، حيث شهدت الفترة ما بين عودته الى مصر ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م وحتى وفاته ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م ، حركة لا تنقطع ، ونشاطا لا يهدأ ، وهمة لا تفتر في المشاركة والتأسيس لجمعيات ومؤسسات تربوية ، وتعليمية ، واجتماعية متعددة الأغراض والأهداف الانسانية ، من أهمها مشاركته في تأسيس الجمعية الخيرية الاسلامية التي تهدف لنشر التعليم واغاثة المنكوبين ، والتي تولى رئاستها في سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م ، كذلك تأسيسه لجمعية احياء العلوم العربية ، بهدف تحقيق ونشر آثار التراث العربي الاسلامي ، فضلا عن اهتمامه برجال العلم والفكر والاصلاح ، من امثال عبدالرحمن الكواكبي ، ومحمد رشيد رضا حيث أوجد لهما ارضا صلبة مع توفير اسباب الاستقرار النفسي (في مصر) وغني عن القول ما قدمه امثال هؤلاء الاعلام من عطاء في خدمة القضايا الاسلامية المصيرية ، التي نذروا حياتهم من اجلها .

ومن أسمى المناصب التي تقلدها عبده في حياته ، منصب مفتي الديار المصرية سنة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م ، وبعد ان ظل ما يقرب من تسع سنوات يشغل منصب القاضي ، والمستشار في محاكم مصر ، حيث اثبت على الدوام بأنه قاضي العدل والانصاف . وقد اتاح له منصب الافتاء القيام بجولات للاطلاع على احوال العالم الاسلامي في اصقاع المعمورة ، فشملت جولاته الكثيرة ، بلاد الشام واوربا وافريقيا العربية (تونس ، الجزائر ، وزار السودان في أواخر حياته) ..

لقد كان الامام عبده من تلك النخبة من المفكرين العرب الاسلاميين ، التي استيقظت على احوال الأمة المزرية ،فهبت تنافح لجلاء الصدأ الذي اعترى فكرها ، وللقضاء على الأوهام التي سيطرت على اذهانها ،

وكسر القيود التي كبلت ارادتها، فطفق ينادي بتحرير الأمة من نير الظلم والطغيان، الذي جعل منها لقمة سائغة بين فكي الاستعمار الغربي الحديث .. وأخذ بالتي هي أحسن المجافين للتجديد والاصلاح الحق المتفق مع روح الاسلام الصحيح، ناعيا على بعض العلماء والفقهاء جمودهم، وضيق أفقهم، منددا بمرارة بطرق التعليم والتدريس العقيمة في كل من الأزهر، والأموي، والزيتونة، والقرويين وكان خصومه (سامحهم الله وغفر لهم) يتمسكون بتطرف بتلك الأساليب الدراسية العقيمة، وبالأفكار التي توارثوها من عصور مظلمة، مؤثرين النقل على العقل مدابرين لكل جديد .. ويذكر الاستاذ قدري قلعجي رأي الشيخ محمد عبده نفسه في طرق تدريس هؤلاء الاساتذة حيث يقول: «كنت اسمع الشيخ وهو يدرس، فأحسبه يتكلم بلغة أجنبية»! ثم يضيف: «ان اكثرهم اتخذوا دينهم متجرا يكسبون به الحطام، فاختلط عليهم الأمر بين الاسلام الصحيح وبين ما نسبوه الى الاسلام من عادات جاهلية، وبدع وثنية، وأوهام نسجتها عصور الظلام وعهود الاستبداد، كما يدافع المرء عن مورد رزقه، متهمين كل من يخرج على هذه القيود التي تكبل الفكر والروح، وكل من دعا الى العلم والعقل بالكفر والفساد». لا يهمهم أن يقول لهم قائل «انكم تتهمون أفضل رجالكم وأعقلهم بالمروق، مع انهم لا يريدون بكم إلا الخير والرقي والسعادة. فلماذا؟ ألأن دينكم لا يجتمع مع العقل والعلم والفضل(*).

هذه هي شخصية محمد عبده، شخصية جبلت على شرف النفس وصدق اللسان ونقاء السريرة، وعلو الهمة. وكان مع علمه الثر جم الأدب، رفيع الخلق، سمح الخلقة، طلق المحيا، كريم المعشر، شريف الغايات نبيل المقاصد وبوفاته ـ رحمه الله ـ طويت صفحة ناصعة من انصع صفحات تاريخنا الحديث، وفقدنا رجلا عظيما عاش لأمته وقضاياها اكثر بكثير مما عاش لنفسه وأهله، وشعوب امتنا ـ بكل ما تملك من احترام ووفاء لرجالها الذين امتحنوا

(*) انظر قدري قلعجي، ثلاثة من اعلام الحرية، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، سعد زغلول، دار الكتاب العربي، (بيروت، د. ت) ص ٢٧٧ وما بعدها.

في سبيلها ، وبذلوا ارواحهم رخيصة لرقيها ، ومن أجل ان تبقى زمام المبادرة في يدها ، «كخير أمة اخرجت للناس» ـ لن تسقط من ذاكرتها أبدا أمثال هؤلاء الرجال ، الذين رسموا لها الخطة الأثيرة ، وساقوها الى طريق المستقبل الأدوم حضورا والأبقى

تفوقا . وسيبقى محمد عبده ـ بما تركه من اعمال باقية جليلة ، وذكر

عطر ، وافكار ملهمة اوصلته الى مقام الامامة بكل معناها ـ ماثلا ابدا في

وجدان أمته ، وستبقى ذكراه جذوة من نور حية سرمدية لا تنطفىء .



أعمـالـه

أ - الكتب

- رسالة الواردات ، (القاهرة ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٤م) ، انظر محمد عمارة الأعمال الكاملة للامـام محمد عبده ، ٦ مجلدات ، (بـيروت ، ١٣٩٢هـ ـ ١٣٩٤هـ/١٩٧٢ ـ ١٩٧٤م) ، راجع هنا الجزء الأول ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

- حاشية على شرح الديـواني للعقائـد العضديـة ، (القاهـرة ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٦ م طبعة ثانية ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م) ، انظر عمارة المرجع السابق ص ٢٠٩ ـ ٢١٩ .

- **العقيدة المحمدية : (القاهرة ١٢٩٤ هـ ـ ١٨٧٧ م . طبعة ثانية ١٣٤٤ هـ/ ١٩٢٥ م) .**

- **مع السيد جمال الدين الأفغاني ، العروة الوثقى** ، (صدر منها ١٨ عددا ، اولها بتاريخ الخميس ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ/١٣ آذار (مارس) ١٨٨٤م ، وآخرها بتاريخ الخميس ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١هـ/ ١٦ تشرين اول (اكتوبر) ١٨٨٤م ، أعيد طبعها مرارا ، في القاهرة ، وبيروت من ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م وحتى ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م ، كما أعيد طبعها في كتاب محمد رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ٣ أجزاء ، (القاهرة ١٣٥٠هـ/١٩٣١م) تجدها هنا في الجزء الثاني ص ٢١٥ ـ ٣٤١ ، كذلك تجدها باختصار في الجزء الأول ص ٢٨٣ ـ ٢٨٩ ، أعاد نشرها ايضا محمد عمارة في كتابه جمال الدين الأفغاني ـ الأعمال الكاملة ـ الجزء الثاني (بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م) ، وكان الاستاذ عمارة قد نشرها في كتابه الأعمال الكاملة للامام محمد عبده ، الجزء الأول ، ص ٢٢٩ ـ ٢٤٠ .

- **شرح كتاب نهج البلاغة للامام علي بن ابي طالب ، (رضي الله عنه) (بيروت ١٢٧٥هـ/١٨٨٥م) أعيد طبعه أكثر من مرة ، أنظر محمد عمارة ، عبده ، ج ٣ ، ص ٤١٧ ـ ٤١٩ .**
- **رسالة الرد على الدهريين** ، للسيد جمال الدين الأفغاني ، ترجمها من الفارسية الى اللغة العربية ، مع مقدمة للترجمة ، (بيروت ١٢٧٦هـ/١٨٨٦م و١٣٧٥هـ/١٩٥٥م) .
- **شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني** ، (بيروت ١٢٧٩هـ/ ١٨٨٩م) ، انظر عمارة ، عبده ، ج ٢ ، ص ٤١٤ ـ ٤١٦ .
- **رسالة التوحيد** ، (طبعت مرارا في القاهرة وبيروت من العام ١٣١٥هـ/١٨٩٧م وحتى العام ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م) وصححها وأعاد طبعها محمد رشيد رضا ، ط ١١ ، دار المنار بمصر (القاهرة ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م) ، وأعاد طبعها محمد عمارة في كتابه عبده ، ج ٣ ، ص ٣٥٣ ـ ٤٧٥ . نقلت الى اللغتين الانجليزية والفرنسية (راجع اعماله المترجمة) .
- **شرح كتاب البصائر النصيرية في علم المنطق لعمر بن سهلان الساوي** ، (القاهرة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م) .
- **شرح كتاب المخصص ، لابن سيده** ، (القاهرة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م) .
- **شرح كتاب اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني** ، (القاهرة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م و١٣٢١هـ/١٩٠٣م) .
- **تقرير مفتي الديار المصرية في اصلاح المحاكم الشرعية : (القاهرة ١٣١٨ هـ ـ ١٩٠٠ م)**
- **الاسلام والرد على منتقديه** ، (القاهرة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) ، موضوعات الكتاب نشرت اولا على حلقات في جريدة المؤيد القاهرية ، آيار (مايو) ١٩٠٠م/١٣١٨هـ كرد على مقالات كتبها المفكر الفرنسي ووزير الخارجية الفرنسي انذاك : (١٨٥٣ ـ ١٩٤٤م) A. Gabriel Hanotaux ونشرها في صحيفة Journal de Paris تحت عنوان «وجها لوجه مع الاسلام ومسألة المسلم» وفي وقت مبكر من نفس العام (١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م) ، أعاد نشر هذه المناظرات وردودها محمد رشيد رضا في كتابه تاريخ الامام الجزء الثاني ، ص ٤٠٨ ـ ٤٦٨ ، ومحمد عمارة ، في كتابه عبده ، الجزء الثالث ، ص ٢٠١ ـ ٢٣٩ ، وقارن ص ٢٤٣ ـ ٢٥٠ .

- **الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية** ، (القاهرة ١٣٢٠هـ - ١٣٨٠هـ/١٩٠٢ - ١٩٦٠م) وكان المرحوم محمد رشيد رضا قد نشرها على حلقات في مجلة المنار، الجزء الثاني (١٣١٨هـ/١٩٠٠م) كرد على سلسلة مقالات كتبها فرح انطون (١٢٩١ - ١٣٤١هـ/١٨٧٤ - ١٩٢٢م) في مجلة الجامعة ، تعكس اعجابه الشديد بالفكر الاوربي وهيامه المعروف بجديده ، أعاد نشرها عمارة في كتابه عبده ، ج ٣ ، ص ٢٤٣ - ٢٥٠ ، راجع ايضا ، تاريخ الامام ج ١ ، ص ٨٠٥ - ٨١٦ .

- **تفسير سورة الفاتحة** ، (القاهرة ١٣١٩ - ١٣٧٩هـ/١٩٠١ - ١٩٥٩م) ، اعاد نشرها طاهر طناحي في دروس من القرآن الكريم ، (القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م) ، ص ٤٥ - ٨١ ، وايضا عمارة في عبده ، ج ٤ ، ص ٢٣ - ٥٣ ، وصدرت في طبعة مستقلة : محمد عبده ، فاتحة الكتاب ، ط ٢ ، ١ كتاب التحرير (القاهرة ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م) .

- **تفسير سورة العصر** ، (القاهرة ١٣٢١هـ/١٩٠٣م) أعاد نشرها طاهر طناحي ، في دروس من القرآن الكريم ، (القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م) ، ص ٨٣ - ١١٣ ، وتجدها ايضا عند عمارة ، عبده ج ٥ ، ص ٥٠١ - ٥٢١ .

- **تفسير جزء عم** (القاهرة ١٣٢٢هـ - ١٣٤١هـ/١٩٠٤ - ١٩٢٢م) ، اعاد طبعها محمد عمارة في عبده ، ج ٥ ، ص ٣٠٩ - ٥٧٤ .

- **الفتوى المهمة في الشريعة الاسلامية**، (القاهرة ١٣٣٣ هـ/١٩١٤م).
- **فلسفة التربية الحقة** (الاسكندرية ١٣٣١هـ/١٩١٤م).
- **مع محمد رشيد رضا**، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ١٢ مجلدا، (القاهرة ١٣٤٦ - ١٣٥٥ هـ/١٩٢٧ - ١٩٣٦م) تفسير محمد عبده تجده في محمد عمارة، عبده، الجزئين الرابع والخامس.
- **مشكلات القرآن ومشكلات الحديث**، (القاهرة ١٣٧٣ هـ/١٩٥٣م).
- **مذكرات الامام محمد عبده**، باشراف طاهر طناحي، (القاهرة د.ت) تجدها في محمد رضا تاريخ الامام الجزء الاول ص ٩ - ٢٧ و١٥٧ - ٢٢٤.
- **دروس من القرآن الكريم**، باشراف طاهر طناحي، (القاهرة

١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م).
- المسلمون والاسلام، (القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م).

ب ـ المقالات

معظم المقالات التى كتبها الشيخ محمد عبده والتى تم نشرها في الاهرام، والوقائع المصرية، والعروة الوثقى، وثمرات الفنون البيروتية، والمنار،.. الخ قد أعاد طبعها الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه «تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده» وفيما يلي أهم المقالات الاصلاحية التى أسهم فيها الشيخ عبده ووجهها الى الناس في ذلك العصر عبر وسائل الاعلام :

- «**المدبر الانساني والمدبر العقلي الروحاني**» في الاهرام العدد ١١، ديسمبر ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، تجدها في رضا، تاريخ الامام، ج٢، ص ٢٣ ـ ٣٧، قارن عماره، عبده، الجزء الأول، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.
- «**العلوم الكلامية والدعوة الى العلوم العصرية**»، في الاهرام العدد ٤١، ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م، تجدها في رضا، تاريخ الامام، ج٢، ص ٣٧ ـ ٤٥، وكذلك عماره، عبده، ج٣ ص ١٥ ـ ٢٢.
- «**فلسفة التربية**» في جريدة مصر ١ حزيران (يونيو) ١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩م، اعاد نشرها رضا، تاريخ الامام، ج٢، ص ٢ ـ ١٤.
- «**التربية في المدارس والمكاتب الاميرية**»، في الوقائع، العدد رقم ٩٥٧، ت٢ (نوفمبر)، ١٨٨٠م/١٢٩٨هـ ، اعاد نشرها رضا، تاريخ الامام، ج٢، ص ٨٠ ـ ٨٣، كذلك عماره، عبده، ج٣، ص ٢٧ ـ ٣٠.
- «**العفة ولوازمها**» في الوقائع العدد ٩٩٥، ك١ (ديسمبر) ١٨٨٠م/١٢٩٨هـ ، أعاد نشرها رضا، تاريخ الامام، ج٢، ص ٨٧ ـ ٩١، كذلك عماره (عبده) ج٢، ص ٣٠ ـ ٣٤.
- «**ما أكثر الكلام وما أقل العمل**»، في الوقائع، رقم ١٠١٢، ك٢ (يناير) ١٨٨١م/١٢٩٩هـ، انظر رضا، تاريخ الامام، ج٢، ص٩٨ ـ ١٠٣، عماره عبده، ج٢، ص ٣٥ ـ ٣٩.
- «**القوة والقانون**»، في الوقائع، رقم ١٠٣١، شباط (فبراير) ١٨٨١ م/ ١٢٩٩هـ ، انظر رضا، تاريخ الامام، ج٢، ص ٩٢ ـ ٩٩، عماره، عبده، ج١، ص ٢٨١ ـ ٢٨٧.

- «المعارف في المجتمع» في الوقائع، رقم ١٠٤١ (١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م) انظر عماره، عبده، ج٢، ص ٦٠ ـ ٦٢.
- «حاجة الانسان الى الزواج»، في الوقائع، رقم ١٠٥٥، آذار (مارس)، ١٨٨١م/ ١٢٩٩هـ) انظر رضا (تاريخ الامام) ج٢، ص ١٠٩ ـ ١٢٢، عماره، (عبده) ج٢، ص ٦٨ ـ ٧٢.
- حكم الشريعة في تعدد الزوجات، في الوقائع رقم ١٠٩٤، نيسان (ابريل)، ١٨٨١/ ١٢٩٩هـ، انظر رضا، تاريخ الامام، ج٢، ص ١١٣ ـ ١١٨، عماره، عبده، ج٢، ص ٧٨ ـ ٨٣، وقارن ص ٨٤ ـ ١٣٢.
- «خطط العقلاء» في الوقائع، الاعداد ١٠٧٩، ١٠٨٢ و١٠٩٢، نيسان (ابريل) (١٨٨١م/ ١٢٩٩هـ) انظر رضا، ج١ تاريخ الامام، ص ١١٩ ـ ١٣٢، عمارة، ج١، ص ٢٩٦ ـ ٣٠٨.
- «تأثير التعليم في الدين والعقيدة»، في الوقائع رقم ١١٨٦، آب (اغسطس) (١٨٨١م ـ ١٢٩٩هـ) انظر رضا، تاريخ الامام، ج٢، ص ١٦٤ ـ ١٧١، عمارة، عبده، ج٣، ص٥٣ ـ ٦١.
- «الحياة السياسية»، في الوقائع الاعداد ١٢٥١، ١٢٥٢، ١٢٥٤، ١٢٦٧، ت٢، (نوفمبر) (١٨٨١م/ ١٢٩٩هـ)، انظر رضا، تاريخ الامام، ج٢، ص ١٩٤ ـ ١٩٦، عمارة، عبده، ج١، ص ٣٣٦ ـ ٣٤٥، وقارن C.Adams, op cit, p. 49 n.1
- «في الشورى والاستبداد» في الوقائع العدد ١٢٧٩، ك١ (ديسمبر) (١٨٨١م/ ١٢٩٩هـ)، انظر رضا، تاريخ الامام، ج٢، ص ١٩٧ ـ ٢٠٥، رضا، عبده، ج١، ص ٣٥٠ ـ ٣٦٦ قارن كذلك ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢.
- «الناس من خوف الذل في ذل ومن خوف الفقر في فقر»، في الوقائع، العدد ١٣١٦، ك٢ (يناير) (١٨٨٢م/ ١٣٠٠هـ) انظر عمارة، عبده، ج١، ص ٣٧١ ـ ٣٧٥.
- السلطة للصفوة المستنيرة»، في عمارة، عبده، ج١، ص ٣١٦ ـ ٣١٧.
- «الاحتلال الانجليزي لمصر»، "English Occupation of Egypt" في in The Pall Mall Gazette, Vol. xi, No. 6056, Aug. 7, 1884 (London p.1-2)

نقلها الى العربية عثمان امين ونشرها في مجلة الثقافة العدد ٨٤ ، آب ، (اغسطس) القاهرة (١٩٤٠م/ ١٣٥٩ هـ) ، أيضا في عمارة ، (عبده) ، ج١ ، ص ٦٣٠ ـ ٦٣٤ . من الجدير بالذكر ان جميع المراجع التي نشرت

نقلا عن عثمان امين (النص العربي) ذكرت خطأ تاريخ العدد المنشور فيه المقابلة مع الشيخ عبده باللغة الانجليزية، على اعتبار أنه ١٧ أب (اغسطس) ١٨٨٤/١٣٠٢هـ ، والصحيح هو كما أشرنا فيما تقدم يوم ٧ أب (اغسطس) ١٨٨٤م/١٣٠٢هـ . راجع :

F.T. Mukbil, The Development of Reform Concept in Nineteenth Century Egypt with Special Emphasis on Shykh Muhammed ‘Abduh and His Group, Ph. D. Thesis, (Manchester, 1983), p. 114 n.1.

- «**لائحة اصلاح التعليم العثماني**» في رضا ، تاريخ الامام ، ج٢ ، ص ٥٠٥ ـ ٥٢٢ ، كذلك عماره ، عبده ، ج٣ ، ص ٧١ـ٨٧ .
- «**لائحة اصلاح القطر السوري» ، في رضا ، تاريخ الامام ، ج٢ ، ص ٥٢٢ـ٥٣٢ ، وعماره عبده ، ج٣ ، ص ٩٢ـ١٠٣** .
- «**نظام التربية والتعليم بمصر**» ، في رضا ، تاريخ الامام ، ج٢ ، ص٥٢٢ـ٥٢٣ ، عماره ، عبده ، ج٣ ، ص١٠٥ـ١٢٢ .
- «**انما ينهض بالشرق مستبد عادل**» ، في مجلة الجامعة العثمانية ، ١ آيار (مايو) (١٨٨٩م/١٣٠٧هـ) انظر رضا، تاريخ الامام، ج٢، ص ٣٩٠ـ٣٩٢، عمارة، عبده، ج١، ص ٧١٦ـ٧١٧.
- «**آثار محمد علي في مصر**» في المنار م ٥ ، ٧ حزيران (يونيو)، (١٩٠٢/١٣٢٠هـ). انظر رضا، تاريخ الامام، ج٢، ص ٣٨٢ـ٣٨٩، كذلك عماره، عبده، ج١ ص ٢٢١ـ٢٢٨، انظر ايضا العروة الوثقى، باشراف صلاح البستاني، (القاهرة ١٣٧٧/١٩٥٧م)، ص ١٢ـ١٦.
- «**استعانة المسلمين بالكفار وأهل البدع والاهواء لنصرة الملة وحفظ حوزة الأمة**» في رضا، تاريخ الامام، ج١، ص ٦٤٧ـ٦٤٩ ، ٦٦٢ـ٦٦٦، وقارن ٦٦٢ـ٧١٦، انظر أيضا عماره، عبده، ج١ ص ٧٨ـ٧١٥.

(ج) أعمال مجهولة المصير :

- **تاريخ اسماعيل باشا**، راجع رضا، تاريخ الامام، ج١ ص ٧٧٧، ايضا عماره، عبده، ج١، ص ٢٢٢ـ٢٢٣، انظر كذلك : Charles C. Adams, Islam and Modernism in Egypt: A Study of the Modern Reform Movement Inaugurated by Muhammed Abduh, (Cairo, 1946), p. 273.

- **تاريخ أسباب الثورة العرابية**، انظر رضا، تاريخ الامام، ج۱، ص ١٥٧-٢٢٤، كذلك عماره، عبده، ج۱، ص ٤١٥-٥٧١ عثمان أمين، رائد الفكر المصري الامام محمد عبده، (القاهرة ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م) ص ٢٦٤.
- **رسالة في وحدة الوجود**، انظر رضا، تاريخ الامام، ج۱، ص ٧٧٧.
- **فلسفة الاجتماع والتاريخ**، انظر رضا، تاريخ الامام، جزء ۱، ص ٧٧٧. انظر كذلك : Adams, op, cit,p. 273.
- **رسالة في علم الوضع**، أنظر أمين، رائد الفكر، ص ٢٦٣.
- **في المنطق**، أنظر المرجع السابق، ص ٢٦٤.
- **دروس دار الافتاء**، انظر المرجع السابق.
- **التربية**، للفيلسوف الانجليزي المعروف هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٠٤/١٨٩٠م) ترجمة الشيخ عبده من الفرنسية الى العربية، والكتاب صدر اصلا باللغة الانجليزية، أنظر المرجع السابق.

(د) أعماله المترجمة : Translations:

Risālat al-Tawhîd, Fr. trans. Expose de la religion Musulmané, by B. Michel and Moustapha Abdel Raziq (Paris, 1925, 2d edn., 1965).

Risālat al-Tawhîd, Eng. trans. The Theology of Unity, by I.Muscad and K. Cragg, (London, 1966).

Al - Islam wa al- Radd ala Muntaqidih, Fr. trans. L'Europe et L'Islam, by Talat Harb, (Cairo, 1905 and 1925).

A. Abdel-Malek, ed., 'Abduh's Selected Writings', in Anthologie de la Littérature arabe contemporaine, (Paris, 1965), pp. 54 ff., 75 ff., and 79 ff.

"English Occupation of Egypt", The Pall Mall Gazette (London) vol. xi, No. 6065, 7 Aug., (1884), pp. 1-2. Reprinted in Amin, op.cit., pp.58-63; Arabic trans. by Uthman Amin in Al-Thaqafa Magazine, No. 84, Aug., (1940); re-

printed in Amarah, Abduh, i, pp. 630-634. All references put the date of interview wrongly as 17 Aug., (1884). Two widely-known newspapers, Truth and The Times also published reports of discussions on the condition of matters in Egypt between Abduh and British political figures. Especially Abduh's discussion with Lord Hartington, then Secretary of State for the Army. See Amarah, Abduh, i, pp. 628-629; Amin, op. cit., p. 63; also cf. A. Amin, Zucama, p. 331; and Uthman Amin, 'Jihad Muhammad Abduh Fi Manfah, Paris wa London; in Al- Thaqafa, Vols. 30 July and 6 Aug., (1940).



دراسات باللغة العربيّة

أ - الكُتب

- **أحمد أمين** : زعماء الاصلاح في العصر الحديث، ط٤، (القاهرة ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م)، انظر هنا بشكل خاص ص ٣٠٢-٣٦٩.
- **أحمد باشا شفيق** : مذكراتي في نصف قرن، مجلدان ، (القاهرة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م)، أنظر هنا المجلد الثاني، ص ١٨٩٢-١٩٠٣.
- **أحمد الشايب** : الشيخ محمد عبده، (الاسكندرية ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م).
- **أحمد الظواهري (شيخ)** : السياسة والأزهر، (القاهرة ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م).
- **أحمد الظواهري (شيخ)** : العلم والعلماء، (القاهرة ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م).
- **أحمد محمود شحاته** : منهج الامام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم، (القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م).
- **أحمد موسى الخطيب** : الشعر في الدوريات المصرية، ١٨٢٨-١٨٨٢م - دار المأمون للطباعة والنشر، (القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- **تشارلز ادامس** : الاسلام والتجديد في مصر، ترجمة عباس محمود العقاد، (القاهرة ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م)، انظر اسم الكتاب بالانجليزية في القسم الرابع من أعمال محمد عبده (بالاجنبي)، لمؤلفه (Adams, c.c.)
- **سليمان دنيا** : الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين، في مجلدين، (القاهرة ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م).
- **صلاح البستاني (اشراف)** : العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى، (القاهرة ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م).

- **عباس محمود العقاد** : الامام محمد عبده، (القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) اعادت طبعه دار الكتاب العربي (بيروت ١٣٩١هـ/١٩٧١م).
- **عبدالجواد سليمان (شيخ)** : الشيخ محمد عبده، (القاهرة ١٣٧١هـ/١٩٥١م).
- **عبدالكريم سلمان** : أعمال مجلس ادارة الأزهر، (القاهرة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م).
- **عبداللطيف حمزة** : أدب المقالة الصحفية في مصر، في ٨ مجلدات، ط٢ (القاهرة ١٣٧٨ ـ ١٣٨٢ هـ ١٩٥٨ـ١٩٦٣م)، أنظر هنا المجلد الثاني ص ٦٢ـ١١٣.
- **عبدالله محمود شحاته** : منهج الامام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم، من منشورات المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ٤٤ نشر الرسائل الجامعية (٢) (القاهرة ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م).
- **عبدالمنعم حمادة** : محمد عبده، (القاهرة ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م).
- **عثمان أمين** : محمد عبده، (القاهرة ١٣٦٤هـ/١٩٤٤م)، نقله للانجليزية تشارلز ويندل C. Wendall, Muhammed Abduh, (Washington, 1953)
- **عثمان أمين** : رائد الفكر المصري الامام محمد عبده، (القاهرة ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م).
- **عمر دسوقي** : في الأدب الحديث، في مجلدين (القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م)، أنظر هنا المجلد الأول ص ٢٣٧ـ٢٦٢.
- **غازي توبة** : الفكر الاسلامي المعاصر : دراسة وتقويم، ط٣، (بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م) أنظر هنا ص١٣ـ٥٤.
- **فهد الرومي** : منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، مؤسسة الرسالة، (بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، انظر هنا، ص ١٢٤ـ١٦٩.
- **قدري قلعجي** : محمد عبده بطل الثورة الفكرية في الاسلام، (بيروت ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م).

قدرى قلعجي : ثلاثة من أعلام الحرية، جمال الدين الافغاني، محمد عبده، سعد زغلول، (بيروت د.ت).
- **مجموعة من المؤلفين** : ارشاد الأمة الاسلامية الى أقوال الائمة في الفتوى الترانسفالية، (القاهرة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م).

- **محمد أحمد خلف الله** : هكذا يبنى الاسلام، (القاهرة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).
- **محمد رشيد رضا** : تاريخ الاستاذ الشيخ محمد عبده، في ٣ مجلدات، (القاهرة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م).
- **محمد صبيح** : الشيخ محمد عبده، في مجلدين، (القاهرة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٤م).
- **محمد علي رضا** : **الأزهر بين الماضي والحاضر، (القاهرة ١٣٦٦هـ/١٩٤٦م).**
- **محمد عماره** : الأعمال الكاملة للامام محمد عبده، في ٦ مجلدات، (بيروت ١٣٩٢ـ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٢ـ١٩٧٤م).
- **محمد عماره** : الاسلام والمرأة في رأى محمد عبده، (بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م).
- **مصطفى عبدالرازق** : محمد عبده، (القاهرة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م).
- **يوسف أسعد داغر** : مصادر الدراسة الأدبية، في ٤ مجلدات، (بيروت ١٣٧٦ـ١٣٩٢ هـ/ ١٩٥٦ـ١٩٧٢م) أنظر هنا المجلد الثاني ص ٥٩٧ـ٦٠٢.

ب ـ المقالات

- **ابراهيم يوسف** : «رسالة في الاسلام : بين هيجل (*) ومحمد عبده»، في الرسالة، القاهرة العدد ١٠٥، ص ١١١٨.
- **أحمد حسن الزيات** : «محمد عبده» في الرسالة، (القاهرة)، مجلد ١٩٣٥، ص ١٠٨١ـ١١٢١.
- **أحمد الزرقا** : «محمد عبده والطير الابابيل» في الرسالة، (القاهرة)، رقم ٧٩٤.
- **أنور الجندى** : «مجالس الشيخ محمد عبده» في العربي (الكويت) رقم العدد ١١٠، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ١٥٤ـ١٥٧.
- **تركي رابح** : «الشيخ البشير الابراهيمي عن اللغة العربية والاسلام في الجزائر «١٣٠٧ـ١٣٨٥هـ/ ١٨٨٩ـ١٩٦٥م، في الفيصل، (الرياض)،

(*) : هيجل (فردريش) Hegel . (١٧٧٠ـ١٨٣١)، فيلسوف الماني معروف، له مبادىء فلسفة الحق.

عدد أذار (مارس) ١٩٨٣م/١٤٠٤هـ ، ص ٦٧ـ٧١.

- **جرجي زيــدان** : «محمد عبده مفتى الديار المصرية»، في الهلال العدد رقم ١٣ (القاهرة) ص ٥٥٤.
- **حافظ عوض** : «أثار أقدام في رمال الزمان» : من ذكرياتى عن الشيخ محمد عبده»، في الهلال، العدد رقم ٥١، (القاهرة) ص ٥٥٧ وما يليها.
- **حسن عبدالرزاق** : «الشيخ محمد عبده، اشتغاله في مجلس الشورى»، في المقتطف، عدد ك ١ (ديسمبر) (القاهرة) (١٩٠٥م/١٣٢٣هـ).
- **الرسالة (مجلة)** : من مذكرات بلنت : (*)صفحات مجهولة من حياة الامام محمد عبده»، مجلد ٧، (القاهرة) ص ١١٠٤ـ١١٥٦.
- **رستم رشيد** : «بين الفيلسوفين هربرت سبنسر (*) ومحمد عبده»، في الهلال، العدد رقم ٤٧، (القاهرة) ص ٦٠٤.
- **زكى مبارك** : «روح الشيخ محمد رشيد رضا، أثر محمد عبده عليه»، في الرسالة، العدد رقم ١١، (القاهرة) ص ٦٠٤.
- **الضياء (مجلة) (الهند)** : «محمد عبده» المجلدان ٥ و٧، ص ٩٧ و٩٢٧.
- **بدالله شريط** : «منهجية في بحث الفكر السياسي عند ابن باديس ومحمد عبــده»، حــوليــات جــامعــة الجــزائــر، رقم ١، (الجــزائــر ١٤٠٧/١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٦/١٩٨٧م).
- **عبدالمنعم حمادة** : «الاستاذ الامام يواصل الجهاد في منفاه» في مجلة الثقافة، القاهرة، العدد ٢٩، ص ١٥.
- **عبدالهادي بو طالب** : «بزيارة محمد عبده موفدا، من استاذه جمال الدين الافغاني، يمكن تأريخ بدء التنظيم السلفي في تونس»، من كتابه ذكريات وشهادات ووجوه، نشرته في حلقات جريدة الشرق الاوسط، الحلقة ٩، العدد ٣٤٨٧، ١٥ حزيران (يونيو)، (١٩٨٨/١٤٠٩هـ) ص ١٤.
- **عبدالهادي بو طالب** : «المغرب كان مهيئا لتقبل الفكرة السلفية وكثير من علمائه تميزوا بالجهر بالعودة الى الاصول الاسلامية»، من كتابه ذكريات وشهادات ووجوه، نشرته في حلقات جريدة الشرق الاوسط، الحلقة ٧، العدد ٣٤٧٣، ١ حزيران (يونيو)، (١٩٨٨/١٤٠٩هـ) ص ١٦.

(*) ويلفريد سكوين بلنت (Blunt) (١٨٤٠ـ١٩٢٢) كاتب وشاعر ورحالة انجليزى مرموق، ارتبط بصداقة حميمة مع الشيخ محمد عبده، وله خبرة ودراية واسعة بشئون مصر بخاصة والشرق بعامة.

(*) سبنسر (هربرت) (Spencer) (١٨٠٤ـ١٨٩٠)، فيلسوف انجليزي معروف.

- **عثمـــان أمين** : «أثر المرأة في حياة محمد عبده»، في الرسالة، العدد ٢٢، (القاهرة) شباط (فبراير) (١٩٣٧م/١٣٥٦هـ)، ص ٣٠١ وما بعدها.
- **عثمان أمين** : «جهاد محمد عبده في منفاه»، في الثقافة، عدد تموز وآب (يوليو واغسطس) (القاهرة ١٩٤٠م/١٣٥٩هـ)، ص ٣١٢، ١٣٤١.
- **عثمان أمين** : «محمد عبده وتعدد الزوجات»، في الثقافة، عدد حزيران (يونيو) (القاهرة ١٩٤١م/١٣٦٠هـ).
- **عثمان أمين** : «محمد عبده واصلاح الازهر»، في الرسالة، عدد نيسان (ابريل) (القاهرة ١٩٤١م/١٣٦٠هـ).
- **عثمان أمين** : «خواطر عن محمد عبده الفيلسوف» في الثقافة، عدد تموز (يوليو)، (القاهرة ١٩٤١م/١٣٦٠هـ).
- **عثمان أمين** : «الانسانية والحرب في نظر محمد عبده» في الثقافة، عدد تموز (يوليو)، (القاهرة ١٩٤١م/١٣٦٠هـ).
- **عثمان أمين** : «مستطرفات ونوادر عن محمد عبده» في الثقافة، (القاهرة) ١٠ آب (اغسطس) و٥ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٤٣م/١٣٦٢هـ.
- **عثمان أمين** : «محمد عبده والدفاع عن الاسلام» في مجلة الازهر، المجلدان ١٤ و١٥ (القاهرة).
- **عثمان أمين** : «محمد عبده فيلسوف الحرية» في الثقافة، القاهرة. عدد تموز (يوليو)، ١٩٤٢م/١٣٦١هـ .
- **عثمان أمين** : «مشاهدات محمد عبده في بالرمو (صقلية)» في الاهرام (القاهرة) عدد حزيران (يونيو) ١٩٤٣م/١٣٦٢هـ.
- **عثمان أمين** : «محمد عبده المصلح الاخلاقي» في الثقافة، عدد تموز (يوليو (القاهرة) ١٩٤٣م/١٣٦٢هـ.
- **عثمان أمين** : «محمد عبده نصير الحرية». في مجلة العلوم، عدد ك ٢ وشباط (يناير وفبراير)، القاهرة، ١٩٤٤م/١٣٦٣هـ.
- **عثمان أمين** : «الامام وتفسير القرآن» في مجلة الازهر، المجلد ١٥، (القاهرة).
- **عثمان أمين** : «الامام محمد عبده وأهل التصوف» في مجلة الثقافة، عدد تموز (يوليو) (القاهرة ١٩٤٠م/١٣٦٠هـ).
- **عثمان أمين** : «صوت الاستاذ الامام» في منبر الاسلام، (القاهرة) عدد أب (اغسطس) ١٩٤٨م/١٣٦٧هـ ، ص ٥٨-٥٩.
- **عثمان أمين** : «جوانب مجهولة من فلسفة محمد عبده» في مجلة المنتدى، (الفلسطينية) عدد تموز (يوليو) ١٩٤٥م/١٣٦٤هـ.

- **عثمان أمين** : «محمد عبده»، في مجلة الكتاب (القاهرة ك٢، (يناير) (١٩٤٩م/١٣٦٥هـ).
- **عثمان أمين** : «محمد عبده ناقد المجتمع المصرى»، في النهضة المصرية، عدد تموز (يوليو) «القاهرة، ١٩٥٢م/١٣٧٢هـ).
- **عثمان أمين** : «محمد عبده من رواد الحركة الاصلاحية في العصر الحديث»، في مجلة الوعي (القاهرة) عدد ت١ وت٢ (اكتوبر ونوفمبر)، (١٩٥٢م/١٣٧٢هـ).
- **عثمان أمين** : «محمد عبده والسياسة» في الاهرام، عدد ١٥، تموز (يوليو) (القاهرة ١٩٥٣م/١٣٧٣هـ).
- **عثمان أمين** : «رائد الفكر العربي الحديث الامام محمد عبده في ذكرى وفاته الحادية والستين»، في مجلة العربي، (الكويت) العدد ٩٥.
- **علي عبدالرازق (شيخ)** : «محمد عبده» في البيان، شباط (فبراير)، (نيويورك ١٩٥٦م/١٣٧٦هـ).
- **قدري قلعجي** : «محمد عبده حياته وعلمه»، في مجلة الطريق، المجلد ٢ (بيروت) ص ٣.
- **محمد البهي** : «الازهر والامام محمد عبده» في الرسالة، المجلد رقم ١٠، ص ١٠٢٢ وما بعدها، (القاهرة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م).
- **محمد رشيد رضا** : «الاستاذ محمد عبده»، في الهلال، العدد رقم ٤٣، (القاهرة) ص ٣٧.
- **محمد الشرقاوي** : «محمد عبده كفاحه ونجاحه» في الرسالة، مجلد (١٩٥٠) القاهرة ص ١٨٥٥.
- **محمد عاكف افندي** : «الشيخ جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده»، في المنار، العدد رقم ١٣ (القاهرة). ت١ (اكتوبر) ١٩١٠م/١٣٢٨هـ - نشر هذا المقال في الاصل باللغة الروسية في جريدة «الشورى» وذلك ردا على الهجمة الشرسة التى يتعرض لها رموز الفكر والاصلاح في العصر الاسلامي الحديث، مستنكرة على ضيقى الأفق والعقول المريضة استهتارهم برجال الأمة وعقلائها، والباسهم تهما جاهزة مشبوهة تصل الى حد وصفهم بالخونة عملاء الغرب والماسونية العالمية. وقد تتلون التهمة احيانا بتلون نظرة الناس للمفاهيم السائدة والاكثر شيوعا وتأثيرا في الطعن بهؤلاء العمالقة المفكرين.. ففي الجزيرة العربية مثلا يتهمون «بالوهابية» وفي تركيا «بالماسونية»، وفي بلاد فارس «بالبابية»..؟! من وحى هذا الموضوع راجع أحمد ابراهيم الفقيه، في

عموده اليومي «كل يوم» في جريدة الشرق الاوسط ، العدد ٣٨٥٩، ٢٢ حزيران (يونيو) (١٩٨٩م/١٤٠٩هـ) ص ١١.
- **محمد كرد علي** : «محمد عبده» في مجلة المجتمع العلمي العربي دمشق، مجلد ٢٨ العدد ١٢، نيسان (ابريل) ١٩٣٣م/١٣٥٢هـ ، ص ١٦١-١٨٠.
- **محمد النجار** : «صفحة مطوية من حياة محمد عبده في بيروت»، في مجلة دار العلوم، (القاهرة) ت٢ (نوفمبر) (١٩٣٥م/ ١٣٥٤هـ).
- **محمد الهراوي** : «وقفة على دار الامام محمد عبده» في الرسالة، مجلد ٥٥ (القاهرة) ص ١٢٢٨ وما بعدها.
- **محمود شلتوت (شيخ)** : «محمد عبده وطريقته في التفسير»، في الرسالة، القاهرة مجلد ١٩٤٤.
- **مصطفى عبدالرازق** : «محمد عبده» في المنار العدد ٢٣ (القاهرة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م)، ص ١٠-٢٨.
- **مصطفى عبدالرازق** : «أثر المرأة في حياة الشيخ محمد عبده» في مجلة الشباب، العدد رقم ١٧، (القاهرة) شباط (فبراير) ١٩٢٦م/١٣٤٥هـ.
- **مصطفى عبدالرازق** : «رجال التاريخ الحديث في مصر، محمد عبده» في السياسة الاسبوعية، العدد رقم ٥٥ (القاهرة) اذار (مارس) ١٩٢٧م/١٣٤٦هـ.
- **مصطفى عبدالرازق** : «الشيخ محمد عبده والاحسان» في مجلة الراديو المصرية (القاهرة) تموز (يوليو) ١٩٤١م/١٣٦٠هـ.
- **مصطفى عبدالرازق** : «الشيخ محمد عبده»، في العروة الوثقى، (طبعة بيروت ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م) ص ٢٢-٢٩، وطبعة ثانية دار الكتاب العربي، بيروت (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) ص ٣١-٣٧، وانظر كذلك العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى، باشراف صلاح البستاني، (القاهرة ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م).
- **مصطفى عبدالرازق** : «الاستاذ الامام»، في كتاب دروس محمد عبده، في القرآن الكريم باشراف طاهر طناحي، (القاهرة ١٣٥٩ هـ/١٩٥٩م)، ص ٢٠-٤٢.
- **مصطفى المراغي (شيخ)** : «الشيخ محمد عبده» في الرسالة، رقم ٢١ تموز (يوليو) القاهرة ١٣٦٠هـ/١٩٤١م.
- **المنار (مجلة)** : «سفر الشيخ محمد عبده الى الاستانة» مجلد ٤، (القاهرة) ص ٤٣٥.

- **منصور فهمي** : «الامام الشيخ محمد عبده» في مجلة الراديو المصري، القاهرة، تموز (يوليو) ١٩٤٣م/١٣٦٢هـ.
- **في الهلال (مجلة)** : «محمد عبده» عدد آب (اغسطس) (القاهرة ١٩٠٥م/١٣٢٣هـ).
- **ياسر فرحات** : «مطلوب انقاذ التراث الاسلامي : الخطر يهدد تراث محمد عبده ورشيد رضا» في الشرق الاوسط، العدد ٣٤٨٩، ١٧ حزيران (يونيو) (١٩٨٨م/١٤٠٩هـ).
- **يوسف م. موسى** : «الدين والفلسفة والشيخ محمد عبده والتوفيق بينهما»، في المقتطف، مجلد ١٠٥، (القاهرة) ١٣٦٤هـ/١٩٤٤م، ص ١٣١.